كلمة الوزارة

أ. الدكتورة لبانة مشوح
وزيرة الثقافة

العربية في يوم عيدها...

أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة منذ أربعة عقود - وتحديداً في جلستها الثامنة والعشرين المنعقدة في الثامن عشر من كانون الأول عام ١٩٧٣م - القرار رقم (٣١٩٠) القاضي بجعل اللغة العربية إحدى اللغات الرسمية ولغات العمل في المنظمة الدولية وفي لجانها الكبرى.

وبعد سبعة وعشرين عاماً على صدور هذا القرار، اتخذت دائرة الإعلام التابعة لمنظمة الأمم المتحدة في التاسع عشر من شباط ٢٠١٠م قراراً بتخصيص أيام عالمية للاحتفال باللغات الرسمية الست للمنظمة. فكان أن وقع الخيار على الثامن عشر من كانون الأول ليكون يوماً عالمياً للغة العربية.

وهكذا أصبحت منظمة «اليونسكو» تحتفل يوم الثامن عشر من كانون الثاني من كل عام باليوم العالمي للغة العربية. وقد أدرج هذا اليوم ضمن احتفاليات المنظمة الدولية بتوصية من مجلسها التنفيذي إدراكاً منه لأهمية دور اللغة العربية في الحفاظ على الحضارة والثقافة الإنسانية ونشرها، ونظراً لأنَّ اللغة العربية هي اللغة الرسمية لاثنين وعشرين دولة عضواً في منظمة اليونسكو، وأن أكثر من أربعمئة واثنين وعشرين مليون عربي ينطقون بها، ويستعملها أكثر من مليار ونصف المليار من المسلمين في أنحاء العالم كافة، فضلاً عن أنها إحدى لغات العمل الست في المنظمة إلى جانب الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والصينية والروسية.

ومما لا شك فيه أن هذا القرار نبع من قناعة منظمة اليونسكو بضرورة تعميق علاقات التعاون بين الشعوب، ولاسيما أنَّ التعددية اللغوية والتقارب الثقافي والحوار الحضاري ضمن التنوع والاحترام المتبادل هي إحدى أهم وسائل تعزيز تلك العلاقات وأنجعها.

لكن مما استوقفني في هذا السياق ملاحظة وردت في الوثائق الرسمية للمنظمة مفادها أن هذه الأخيرة حصلت على تأكيدات مطمئنة من الدول العربية والدول التي تعتمد اللغة العربية كإحدى لغاتها الرسمية مفادها أنَّها، أي تلك الدول، ستحافظ على اللغة العربية وتحميها وتحتفي بها.

والغرابة في الأمر أننا أهل لغة الضاد وحُماتها بتنا، على ما يبدو، بحاجة لمن يذكرنا بقيمة لغتنا، لغة آبائنا وأجدادنا، ويوعّينا بمناقبها ومحاسنها، ويحثنا على العناية بها والحفاظ عليها من الضياع، ويدعونا للاحتفاء بها وتكريمها بما تستحق من تكريم وتعظيم !!!!

والقائمون على اليونسكو مشكورون من دون شك على حرصهم وغيرتهم على العربية، لكن يبدو أنَّهم نسوا أو تناسوا موقع هذه اللغة على خارطة اللغات الإنسانية. فهي ليست تلك اللغة الوليدة الهزيلة التي لا يتجاوز عدد الناطقين بها بضعة آلاف.... ولا هي من اللغات المهددة بالانقراض التي ينفضّ عنها أهلها ويعبّرون بسواها عن جوهر فكرهم ومكنونات أحاسيسهم.... ولا هي باللغة العقيمة القاصرة عن مواكبة احتياجات أهلها ورفدهم بأدوات التعبير عن متطلبات عصرهم في شتى حقول العلم والمعرفة.

هي لغة ضاربة جذورها في التاريخ، جامعة للأمة، حافظة للذكر، تمتلك من المزايا الصرفية ما يجعلها غنية في اشتقاقاتها، متنوعة في تراكيبها، غنية بمفرداتها، واسعة في دلالاتها. أُفردت لعلومها خلال قرون ثمانية آلاف المجلدات والمؤلفات التي تفجّرت فيضاً مدراراً في النحو والصرف والبلاغة، ودُرست بمنهجية وموضوعية كنظام متكامل قائم بذاته، وشيّد لها اللغويون العرب صرحاً عظيماً من القواعد، فشملت دراساتهم مستويات اللغة كافة الصوتية منها والصرفية والنحوية والدلالية، وبذلوا جهوداً جبارة في التقعيد والتصنيف والشروح، فاتسعت العلوم اللغوية وتنوعت إلى حد التضخم والتعقيد والتكرار والإبهام لا بل والتناقض أحياناً حول بعض المسائل. إلا أن هذا لم يُفقدها أهميتَها في أعين الدارسين والباحثين اللسانيين المُحدَثين الذين لا ينفكون يعدّونها المرجع الأول والأهم الذي يعتدّ به في استقاء الأمثلة اللغوية واستخراج المعطيات النحوية والصرفية والدلالية، لاستبيان الفصيح من المختل والصحيح من المنحول.

ومازالت العربية مواكبة لمقتضيات العلوم والمعارف، بدليل النجاح الكبير لتجربة تعريب التعليم العالي الذي كان للجامعات السورية فضل السبق والريادة فيه، فقدمت البرهان القاطع على قدرة اللغة العربية على التكيف مع مستلزمات العصر.

فما المبرر إذاً لهذا القلق على العربية؟ وما الذي يسوّغ لليونسكو أن تنبّه أهلها لضرورة الحفاظ عليها؟

أتراه الإهمال الذي تلقاه من الناطقين بها وما يرتكبونه من أخطاء فاضحة في استخدامها كتابة وشفاهة، حتى بات من المسلمات عندهم رفع المجرور وجرّ المنصوب؟

أم تراها الأرقام المفجعة التي تفضح عزوفنا كشعوب عربية عن القراءة؟

أم هي النسب المفزعة للأمية في الدول العربية والتي قاربت الخمسين بالمئة من مجموع مواطنيها؟

أم هو نضوب واضح في حركة الإبداع اللغوي والأدبي، وغياب للابتكار والتجديد في روائع تخلد اللغة وتخلّد بها؟

أم تراه قصور في ترجمة روائع الفكر والآداب العالمية، واستسهال للترجمة المتسرّعة التي تضعف اللغة والفكر في آن معاً؟

أم تراه عقم كل الجهود المبذولة في توحيد المصطلحات العلمية، واستعصاء اتفاق أهل الاختصاص على ضرورة هذا التوحيد في توطين المعرفة؟

أم لعلّه تشبث بعض اللغويين بأنّ الصواب ينحصر في لغة الخليل ولسان العرب وحدها، وإنكارهم لكل ما عداها على أنّه لحن وتخريب لغوي، ناسين أو متناسين حقيقة أنّ العربية، شئنا أم أبينا، لغة كسائر اللغات، تخضع لقانون التجدد والتطور والاغتناء، ولا يضيرها هذا في شيء طالما أن ما يطرأ عليها من تطوّر لا يسيء بموازينها الصرفية ولا يضعف تراكيبها ولا يخلّ بقواعدها.

ولمن يظن غير ذلك نقول إنه تكثر في اللغة العربية المعاصرة مفردات مستحدثة لم يرد لها ذكر في المعاجم التي يعتدّ بها كلفظ «الحكومة»، لم يرد في لسان العرب إلا بمعنى «الحكم» و«التحكيم»، ولفظ «الوزارة» الذي ورد فقط بمعنى «حالة الوزير الذي يحمل ثقل الملك ويعينه» ولم يرد بالمعنى المعاهد للكلمة. وأخرى اكتسبت دلالة تخالف تلك التي ينم

عنها وزنها الصرفي كالعائلة، وفئة ثالثة باتت تحمل دلالات غريبة عنها كالحقير، الأمر الذي يثير حفيظة المتشددين فينكرون استخداماتها الحديثة ويلحّون على ضرورة أن يقتصر استخدامها على معانيها القديمة، وهم بذلك ينكرون ما اصطلح اللسانيون على تسميته بالانزلاق الدلالي، لا بل ينكرون على اللغة حق الاغتناء تلبيةً لاحتياجات الناطقين بها ومواكبةً لتطور أنماط حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

أو ربما يكون سبب قلق «اليونسكو» زعم بعض المختصين في علوم العربية النحوية والصرفية أنّ ثمّة هوة تفصل علوم اللغة العربية عن اللسانيات الحديثة، مُدّعين أنّ النظريات اللسانية إنما وجدت لألسنٍ أخرى لا رابط بينها وبين العربية، ومناطق لغوية لا تمتّ للمنطق اللغوي العربي بصلة.

في اليوم العالمي للغة العربية يجدر بنا التفكّر ملياً في طريقة مقاربتنا للغتنا، وأن نعيد النظر في الكثير من المقولات المتصلبة المتخوّفة من التجديد سواء أكان في آليات التطور اللغوي، الدلالي على وجه الخصوص، أو في المقاربات العلمية للدراسات اللغوية. فمثل هذا التشدد يلبس لبوس الحرص على العربية والغيرة عليها، لكنه غير مبرر، بل هو مجافٍ للمنطق العلمي السليم، ويلحق أكبر الضرر بتطور اللغة وعلومها.

وهنا أجد لزاماً تأكيد أهمية أن يستفيد الباحثون اللغويون من النظريات اللسانية الحديثة في إعادة قراءة تراثنا اللغوي، سعياً للوصول إلى فهم أفضل للغتنا العربية العتيدة، والتعمق في قواعدها الناظمة. ومما لا شك فيه أنّ لغويي المغرب العربي متقدمون في هذا المجال عن نظرائهم في المشرق، إذ قطعوا أشواطاً واسعة في هذا المجال، مدركين تعذّر تطوير الدراسات اللغوية باستخدام أدوات قديمة، على أهميتها المنهجية والتاريخية. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر عبد القادر الفاسي الفهري وعبد السلام المسدّي ومحمد صاري وأحمد حاج صالح...

أمّا بعد، فمن حق العربية علينا، في يوم عيدها، أن نعيد اكتشافها بقراءة ما أنتجته من إبداعات أدبية وعلمية وفكرية، وأن نحسن استخدامها ونتبحّر في خصائصها ونفهم أسرارها بأدوات علمية حديثة، وأن نعمل على رفدها بما تتطلبه مقتضيات التطور الفكري والحضاري.

فكل عيد والعربية مزدهرة متجددة...

كلمة العدد

د. علي القيم
رئيس التحرير

قمر كيلاني

سِفرُ براءةٍ.... ونَقاءُ فَجرْ

امرأة هي الوطن.. امرأة موصولة غدائرها بحبال الشمس، وأقدامها ثابتة فوق شواطئ من فضة.. امرأة مجبولة بالعشق والحب والمودة.. قلبها ظلّ معنا، نقيّاً.. مزهراً كحقول البرتقال. كانت حكايتنا.. قمرنا الذي سطع في سماء دمشق ليكشف الطريق.. هذه هي قمر كيلاني، الأديبة الكاتبة الروائية الرائعة، التي نفضت غبار التعب ليطلع ربيع جديد..

قمر كيلاني في جميع ما أبدعته وسطّرته أناملها، كانت «عالم بلا حدود» و«محطة» و«امرأة من خزف» كانت دائماً امرأة مأخوذة بالعطاء والمحبة والتجدد.. لقد رهنت نفسها للعمل الاجتماعي، وتحرير المرأة.. تنتقل من مكان إلى آخر مثل «الفراشة الذهبية»

دائمة التلهّف لإنجاز عملها، ومتابعة مسيرتها الحافلة بالإنجازات الجميلة. التي كلما رجعنا إليها، نحس وكأنها كتبتها للتو، وخاصة عندما يهطل علينا مطر أيلول بعد طول انتظار..

قمر كيلاني، في جميع كتاباتها الصحفيّة والروائيّة والقصصيّة، كانت تجيد الإلمام بالجوهر، والقدرة على الانتقال من موضوع إلى آخر، ومن وصف إلى آخر، مع الاحتفاظ بحيوية النص، وروعة الوصف، وجمال اللغة.. أعمال هذه الأديبة الرائعة، لا تدور في فراغ، الهمّ الوطني شاغلها، تعيش التجربة، تجيد التعامل معها.. تتحدى الجدران والأسوار.. كانت في جميع كتاباتها وإبداعاتها تعبّر عمّا تحس به نفسها وعمّا يضطرب أمامها من معاني الجمال.. فتكشف لنا جوانب من أسراره وخباياه الزاخرة بالمعاني الوجدانية السامية، والإحساسات التي تنقّب عن كل معنى يكمن وراء الموجودات التي نلمح أطيافها في ثنايا أدبها من مقالة وقصة ورواية وخواطر ودراسات صادقة رقيقة..

تتداخل الموضوعات في روايات قمر كيلاني، بين الاجتماعية، وتحرر المرأة، والتقاليد والعادات والعلاقات العاطفية والأسرية، ومشكلات الزواج والطلاق.. لكن الطابع الرئيسي هو الهمّ الوطني- القومي، الذي هو الناظم الرئيسي للرواية.. التي في المطلق لا تدور في الفراغ.. بل ضمن دوائر من الأصغر إلى الأكبر، وهل هناك أوسع من الأمة والوطن الكبير؟ حسب تعبيرها، تقول في هذا المجال: «طبعاً أنا لا أربط بشكل قسري بين الواقع العام، والواقع الخاص، أو الأشد خصوصية.. لكن اكتمال الرواية عندي يكون في هذا المسار.. ثم أن المنبع الرئيسي هو الذات- ذاتي الإنسانية التي تسبح في هذه البحار، بل تعيشها، والتجربة الحقيقية، ولا أقول الذاتية هي المنطلق.. الموضوعات مثل كرات من البلّور تعكس

أطيافهـا بـكل ألـوان قوس قـزح.. لا يطغى فيهـا موضوع فرعـي على آخـر، لكنها تنتظم جميعاً في كونها بلَّوراً يعكس ضوء الشمس»..

❁ ❁ ❁

شخصيـات روايـات وقصص قمر كيلاني، ليست مبهرة ولا ساطعـة، ولا مثالية، ولا من كوكـب آخـر.. هي من حولنا، ومن بيئتنا.. نساء واقعيـات.. بسيطات، معذّبات، مسحوقات، مجهـولات.. موجـودات في الحيـاة الأبدية.. ليس في أعمالها ما هو مجـاني في الشخوص، المهم عندها أن تكون نابضة بالحياة والأفكار والرؤى.. عن الرواية عموماً تقول: «لابد من شـيء من التفصيل، يتداخل مع الهـدف من الرواية.. إنها عوالم فسيحة.. حيوات تتحرك وتتنفس، وتعيش كل حياة منها ضمن دائرتها، وتلتقي الدوائر بعضها ببعض لتشكّل رواية ضمـن بدايـات ونهايات، وتشابك بين الأحداث» هذا هو نسيج الرواية عند قمر كيلاني، هي لا تعتمـد علـى تعريفـات أو مناهج معينة، فما أكثرها في كتب النقـد، والتحليل الروائي، وإنّمـا توصّف ما تقوم بـه عندما تكتب رواية، فهؤلاء الأشخاص وضعتهم أقدارهم ضمن دائـرة واحدة.. تلاقت مصائرهم.. اصطدمت آراؤهم.. اختلفت سلوكياتهـم.. وقع بينهم مـا يقـع بين الناس الحقيقيين عادة من حب وكره وتسامـح وانتقام وصحة ومرض، ولقاء وفراق..

قمـر كيـلاني لم تكن في حياتهـا الأدبية والاجتماعية صاخبة.. بـل كانت رقيقة المشاعر محبّـة لمـن حولهـا، مورقة، مثمرة، تكره النكـد، تبحث عن الأشياء التي تبعـث الأمل فينا، تنشر البسمـة لتحولها إلى حالة فرح نحن أحوج ما نكـون إليها في عالم مضطرب، متغيّر، متأزم يحتاج إلى معجزات حتى نخرج من تحولاته التي لا حدود لها.. كانت تعلم أننا في عـالم يتنفّس ذلّاً وتعاسة، ومع هذا كانت دائماً تصنع أحلامـاً وتغنّيها، وتدرك أنّ الصرخة في أوانهـا شعـر، والهمسـة في حينها شعر، على أن يكون هناك كاتـب يعرف ما يريد، وكيف يستقرئ الأحداث، ويجيد استخلاص العبر منها..

لقد تمرّدت على الركود والسكون.. لقد اخترقت المألوف، وأطلقت العنان، وفي لحظة حب، كثّفت الزمان، واختصرت ذروته في ثوان، ليبقى العود يصدح.. والكمان..

قمر.. يا عذبة الملتقى.. كرومك كانت دائماً تزهو، وقد صدحت فيها العناقيد، لم تبخل على أحد.. يا نسمة الصيف.. أنت الفرحة البكر.. أنت الحب والشعر.. أنت سفر براءة.. ونقاء فجر.. يا أنبل الكلمات الخضر.. أعطيتنا الورد والعطر، ولون الشفق الساحر.. كنت الأغلى.. كنت الأجمل.. كنت الفرحة الكبرى للأدباء.. كنت دائماً بزهو جديد، وحيوية وألق جديدين.. كنت نفحة العبير من دمشق العظيمة.. دمشق التاريخ والفن والحضارة والغد المتجدد.. من مجد التاريخ أتيت.. فوق ضفاف المجد مشيت.. نهراً يمشي فوق الأرض.. معك امتطينا جناحي نسمة، من أعلى مكان في جبل قاسيون، وطرنا إلى الماضي نجمع خيوطاً من الحنين، تعيدنا إلى تلك الفترة الرائعة، فترة بني أمية، التي تحركت فيها الأرض العربية، حتى وصلت إلى الصين شرقاً، وإلى بلاد الأندلس غرباً.. في كتاباتك كان دائماً الحلم يتجدد، ويولد في كل كلمة، وفي كل جارحة من جوارحنا.. معك كنّا نعود إلى التاريخ.. نعود ربيعاً من الأدب، وأنهاراً من الحب.. نبحث عن نبض الحياة العميق، في بساتين غوطة دمشق الفيحاء.. نستعيد رعشات التاريخ في الجامع الأموي الكبير، وقصر العظم وبيمارستان النوري والقلعة الشهيرة وأعمدة «جوبيتر» وضفاف بردى، والفردوس المفقود، وكان دائماً ياسمين دمشق يلاحقنا، ونحن نتأمل عبقرية الأجداد.. عبقرية الوليد وهشام وصلاح الدين ونور الدين زنكي، وابن النفيس الدمشقي، ومحي الدين بن عربي.. وغيرهم من العظماء الذين تركوا بصماتهم في كل زاوية ومرفق من دمشق القديمة.

❁ ❁ ❁

من يقرأ قصص وروايات قمر كيلاني، يرى بدقة ووضوح مدى مقدرة هذه الأديبة على وصف شخصياتها من حيث المظهر، والحالة النفسيّة، مما يجعل الشخصية دقيقة المعالم.. قصصها تفيض عذوبة وذكريات هاربة، تصف البيئة الدمشقية بكثير من الوجد والتعلّق

والشغف، وفي أحيان كثيرة نجد محاولات التخيّل القائم على دمج الواقع بالفانتازيا بغية توليد حالة بنائية، لتقدّم للقارئ وجهة نظرها في موضوع من المواضيع التي تعالجها، أو تريد تسليط الضوء عليها، وكثيراً ما تخرج عن موضوع الحكاية، للدخول في حكاية أخرى، في صياغة فنيّة جميلة، تشد الانتباه، وتجعل القارئ يتابعها بحب وشغف ليصل إلى ما تريد قوله مما تكتب وتسرد..

قمر كيلاني من الأديبات اللواتي يعرفن جيداً التعبير عن واقع الإنسان ومشاكله، من منطلق أن الأدب يستوعب روح الواقع، ويمكن أن يصوغ منه دهشة الفن والبلاغة بأسلوب ممتع، ولغة قريبة من الناس، بعيدة عن التكلّف.. دائماً نجدها ممتلئة رهافة ولطفاً ومحبة وعطفاً، تفيض على من حولها حيوية وإشراقاً وألقاً.. الإحساس بالنسبة إليها.. لحظة.. ومضة.. إشارة.. نبضة قلب.. حول ذلك تقول: «لولا الإحساس لما كان النبيل والخسيس.. والشريف والوضيع، والخائن والنزيه، والصادق والمارق.. ولا كل هذه التناقضات والمفارقات.. ويا للفنون الخالدة.. بأنواعها وتواتر صورها وأشكالها أليست جميعاً قطر الندى للإحساس؟ أليست ذوب القلوب.. عندما خفقت بالإحساس؟ ومواسم الروح، وشعائر الأديان وطقوس الإيمان».

قمر كيلاني وطنها هو الحب.. هو الزهر.. الوطن ليس بخنجر، ولا سكاكين تشهر.. الوطن هو الأمل.. هو الأمن والاستقرار والطمأنينة. الوطن ليس قصيدة شعر نتغزل فيها بشمسه وهوائه وسهوله وبحاره وجباله.. ليس كلاماً يقال، وعواطف تبذل في الهواء.. الوطن حب وخبز وزرع وأمل بالمستقبل.. الوطن عمل دؤوب، ويقظة مستمرة من أجل كل شبر فيه، من أجل كل طفل فيه..

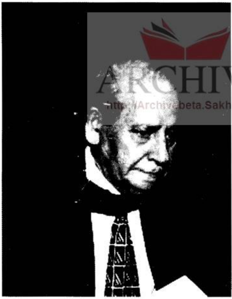
قمر كيلاني منذ بدايات عملها الإبداعي والأدبي والثقافي، رفضت أن تعمل بحكمة القرود الثلاثة: (لا ترى، لا تسمع، لا تنطق) لأنها رغبت بأن تملأ العالم أصواتاً.. بل

صراخاً، وأرادت أن يرهف سمعها كل شيء حتى لدبيب النمل.. وأن تفتح عينيها للدهشة في كل لحظة تنتعش فيها الشمس.. وكان قلبها مفتوحاً ليرى العالم بمنظاره الخاص، ويعبّر عنه برأيه الخاص، ويجعل الناس يسمعونه لأنه قَطْره من مزاجهم الخاص..

لقد عاشت هذا الوهم في رحلاتها وجولاتها، وكانت دائماً تنشر خيوط الأمل وتبشر بالحب وتدافع عن الوطن، وتقول: سلاماً للقلوب المفتوحة على الحياة والخير.. وسحقاً للقلوب المقفلة على الموت والشر».

بعد أن بلغت التسعين شتاءً..
(الجزء الثاني)

حنَّا مينة ✿



يقول المثل (اضرب حديدك حامياً، لا نفع فيه إن برد) وأخذاً بهذا المثل عليَّ أنَّ أعود إلى بداياتي التي منها يحسن أن أنطلق. إنَّ بداياتي كانت نحساً عليّ، ونهاياتي، التي أعيشها الآن أشدّ قتامة وسواداً، لأنني طريح الفراش منذ أربع سنوات بسبب انخلاع في المفصل الرئيسي في جسدي، وزاد عليه تعضل في الرجل اليمنى، وقد زارني عدد من الأطباء متبرعين لمعالجتي مشكورين من دون أجر، وأجمعوا كلهم تقريباً على أن مابي لا يمكن أن يشفى.

✿ أديب وروائي وكاتب سوري كبير، أمدَّ الله بعمره. وقد سمح لنا الأستاذ مينة بالتصرف بمحتوياتها لضرورة النشر.

ويسأل الناس من الزملاء الكتّاب ومن قرائي الكرام (أين هو حتًّا مينة) أجيبهم أنا هنا على فراش المرض ولا دواء لدائي إلا الصبر، وأنا صابر ولكن ليس على طريقة النبي أيوب، فصبري هو كبرياء الصبر وأرفض جداية الصبر الأيوبي الذي هو على الأرجح أسطورة من الأساطير.

أبحث عن الموت خلاصاً من دائي وأوجاعي، لكن الموت كلما اقتربت منه هرب مني لأنَّ الموت جبان وهذا رأي معروف، نعم! الموت جبان تأخذه العزة في الاسم فيحصد الموت أهلي وأصدقائي وأحبائي الواحد بعد الآخر ويتركني واقفاً ملقىً على الرصيف بينما الجميع ممن ذكرت من الذين سبقوني إلى النزهة الأبدية في شراع أبيض غناه أحمد شوقي بقوله:

(ياشراعاً وراء دجلة يجري

في دموعي تجنبتك العوادي)

سر على الماء كالمسيح رويداً

واجرِ في اليمّ كالشعاع الهادي).

إنَّ بي جنفاً عن فهم فلسفة قسّمت الناس رتباً. فراح الموت ينتقي زبائنه من الأهل والأحباء الذين كان لهم حظ السبق إلى نزهة أخيرة في شراع يجري من وراء دجلة ويتركني وحيداً يتيماً غارقاً في دموع الأسى على من سبقني وتركني يتيماً في هذه الدنيا. أحسب أنني في كل ما قلته قد أجبت على الذين يسألون في فضاء هذا الكون عني مع أنني موجود ولا يرونني.

اللهُ! يا اللهُ! متى يكون الرحيل عن هذه الدنيا الفانية؟

متى أعود إلى العدم الذي خرجت منه.

فأعود إلى التراب الذي خرجت منه.

قال شاعرنا الكبير بدوي الجبل:

ويارب من أجل الطفولة وحدها

أفض بركات السلم شرقاً ومغربا

وكأن شاعرنا يقصد كل الأطفال المصابين بأمراض مختلفة، ومنهم حفيدتي الصغيرة المصابة بيدها وركبتها، والتي أصلي وأبكي لأجلها ولأجل كل الأطفال المرضى بأية جارحة ويتحمّلون الألم والعذاب وبقلوبهم البريئة يسألون عن رب كريم الشفاء، وهو الذي يضع حداً لآلامهم، لقد بكيت وبكيت وصليت صلاة المؤمن المنيب من أجل شفاء حفيدتي الصغيرة، ومن أجل شفاء كل الأطفال كي يتعافوا ويعودوا سالمين ويفرحوا بقلوبهم الصغيرة البريئة بأفراح الحياة.

لقد ولدت وأنا مريضاً عليلاً نحيلاً لم يُقَدِّر أهلي أنني سأعيش وأغدو إنساناً سليماً معافى وأنتقل من الطفولة إلى المراهقة إلى الشباب، وقد مرَّ الرب إلى حارتي فأعطاني

من عطفه ولطفه ما أمدّني بالعافية حتى كبرت، وها أنا في التسعين من عمري وقد لملمت عفارة بستان الحياة ووقفت على شاطئ الرحيل منتظراً مرور سفينة الموت التي أخذت أهلي، وأصحابي وأحبائي وتركتني وحيداً أعيش على ذكرياتي التي كانت عقبات في حياتي لأنَّ ساعة الرحيل عن هذه الفانية لم تحل بعد.

فالكل أجله مكتوب على الجبين، وما كتب على الجبين كما يقول المثل (لازم تراه العين) ولكل أجل كتابه وكتاب رحيلي يتأجل من يوم إلى يوم، ومن شهر إلى شهر، ومن عام إلى عام حتى أصبحت عجوزاً لا يرجى منه خير لأنه في أرذل العمر، صابراً على شيخوخته التي طالت، وطالت حتى أخشى أن يتأخر بي يوم الرحيل، فأصبح عالةً على من بقي من أهلي ومن أصحابي وأحبابي، فهل يلعب بي القدر فيطيل في عمري حتى أصبح عجوزاً، عاجزاً عن قضاء بعض حاجاتي بنفسي..؟

لقد جاء في مُنزَل التحكيم: «**وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ**» الآية (٧٠) من سورة النحل. وأشهد أنني، في أرذل العمر، مكسور الساقين، مجرود اللحم عن العظم، شبيه بكل عجوز ياباني يؤخذ إلى أعلى جبل ومعه بعض الزاد وقليل من الماء حتى ينتهي وحيداً منبوذاً لا يشاهد أحداً على الفراق بين روحه والجسد.

إنني أعيش في بيتي وحيداً، وإلى جانبي صديقي الصادق الأمين المؤتمن طيب القلب، المشرف على بيتي والمدير لأعمالي (أبو أديب، أحمد يونس نعامة من اللاذقية ناحية عين البيضا- قرية الدروقيات).. وتأتي ابنتي أمل العزيزة الغالية بين يوم ويوم كي تصنع لي بعض الطعام الذي أحبه.

إن الذين يكتبون قصة حياتهم يبدؤون من طفولتهم وقد خالفت هذه القاعدة وبدأت من شيخوختي فلماذا فضلت ذلك؟

لأنني معاند مشاكس لا أريد ما يريده غيري حتى في اللغة، فقد نبذت كل ماتعارف عليه غيري (أكل الدهر عليه وشرب) (عش رجباً ترى عجباً)، أو (من أخذ أمي أقول له يا عمي) وأمثال هذه الأقوال الباردة المندثرة التي درج عليها الكسالى، الخاملون الذين يخافون الجديد، ولا يعرفون في اللغة العربية (القياس والاشتقاق). فهم يقولون مثلاً رجاءً أن أنال نصيبي من الرزق الحلال وأغلبهم ينال الرزق الحرام ولا يبالي.

ويكثرون من الأبناء قائلين (رزقهم على الله) الله تعالى لم ينصحهم بكثرة الإنجاب، ثم يتركونهم في الشوارع على أمل أن يجدوا رزقهم بالحلال أو الحرام والأغلب في الحرام. فماذا يفعل الطفل كي يحصل على كسرة الخبز في هذه الأيام الرديئة؛

ليتني أعرف لماذا يفضلون كثرة الإنجاب كالفئران؟

ولماذا يلقون اللوم على الله ويقولون الله (يبعث الطفل ومعه رزقه) وهكذا يلقون وزرهم على الخالق الكريم ويعيشون عيشاً كسولاً، ويلقون باللوم على غيرهم فتستريح ضمائرهم من تعب الشهادة والعمل، والله يحب العاملين، لا القاعدين على أقفيتهم بانتظار أن يأتيهم الرزق على طبق من فضة، فإذا لم يأتِ الرزق على طبق من فضة راحوا يجدفون ويلعنون الزمن والحظ وقلّة الحيلة بينما هم السبب في كل شرور الفقر هذا.

وقد جاء في الأحاديث النبوية: «لكل إنسان **ماسعى وإنَّ سعيه سيُرى**» وجاء في أمثال المجتهدين هذا المثل (قم ياعبدي لكي أقوم معك ولاتنام لأطعمك) وهذا جوهر السعي الذي له أجر عند الله سبحانه وتعالى.

إنه بحر العطاء الواسع، وعلى ذكر البحر هذا قول الله تعالى في سورة الرعد من الآية (١٧): «**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ**». وعلى سيرة البحر، واللجّة الزرقاء، فإن غرامي بهما فاق كل تصوّر، لذلك أطلقوا عليّ صفة أديب البحر، وفي الثلاثية التي كتبتها عن الصين، عندما كنت فيها مشرداً، غامرت حتى الموت، وتحديت المنع الصارم المفروض على ممثلي ١٢٠ أمة، ليست «إسرائيل» من بينها بالطبع، وغافلت الحراس تحدياً وألقيت بنفسي في مياه المحيط الباسيفيكي الذي يعج «بالقروش»، ومن قوة العاصفة، وشدّة الرياح، وجدت نفسي خارج الشبك الذي يحمي من القروش من كل الأنواع.

لقد غامرت، وقولي في هذا الصدد معروف، وهو «**حيث تكون المغامرة أكون أنا**» أمّا المغامرة في المحيط الهادئ، أو المحيط الباسيفيكي. فإنها الموت انتحاراً، فهل نزولي المحيط في تلك العاصفة كان انتحاراً مضمراً؟!

هذا هو التفسير السيكولوجي، ومتى، في حياتي الحافلة بالمغامرات، كنت عاقلاً، أنا الذي أقول عن نفسي «**أنا نصف عاقل ونصف مجنون، وأحب نصفي المجنون أكثر**».

الآن، وأنا في حوالى التسعين شتاءً، وقد تعب بصري، وخفَّ سمعي، فأقول «أيها المجنون العالمي، لماذا لم تأخذك سفينة الموت، كما أخذت كل أهلك وأصحابك وأحبابك!؟

لماذا يا موت تفعل ما تفعله بي، وكيف السبيل إلى النزول إلى بحرك الطامي، والبحر حبيبك، واللجّة الزرقاء إحدى أمنياتك!؟ العمر!؟ آه من العمر، واستغفر الله ثلاثاً، لأنك تسعى إلى الموت وهو يهرب منك، ناسياً، أو على الأرجح، ترتكب الإثم، في عدم اعترافك أن «لكل أجل كتاب» وكتاب أجلك لم يأت بعد!!

أهي صبوة في النيران أم شبق!؟ وقد كتبت متحدياً، هذا القول «ولاتخاف عذولاً، فالعذول مضى، والعصر سكران، يا أخت الشقا، تعب، العصر سكران؟ هاتها يا ساقي، مشتاقة تسعى إلى مشتاق» حسب تعبير أمير شعرائنا أحمد شوقي، أنت لست ولوعاً بالخمرة حتى تسعى إليها، أو تسعى هي إليك تشربها مع الصحب، وتفاخر بالادعاء أنك لم تسكر ولم تحب مدى حياتك كلها!

هذا حق، والحق يجب أن يقال، فأنت لم تسكر ولم تحب على مدى هذا العمر الطويل، الذي تضمر فيه عتباً خفيّاً على الموت، بعد أن بقيت مثل السيف فرداً!

في منزل التحكيم هذا البيان: «وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ»، وقد رددت، آثماً، إلى أرذل العمر، من دون أن تعود إلى العدم الذي منه خرجت، أو إلى التراب الذي منه جُبلت، ويبقى السؤال: «أحقاً تريد الموت؟! أنت قلت، قبل عقد من الزمن «جاء الزمن الرديء، وسيلد لنا أبناء رديئين، وأنا منهم، ناسياً، أو متناسياً، أنَّ الشفاعة لا تكون على اللسان، بل هي في القلب، وقلبك يضمر غير مايعلن، وأنك في نشوة البطر، قبل أن تُكسر رجلاك،كنت ترقص، ويرقص الحاضرون معك إذا ما أنشد المغني «عندك بحرية يا ريس!».

أنت، يا كاتب هذا الهراء كله، تكذب على الناس في ادعائك أنك مللت من تطاول العمر».

قال جرير، يعتذر عن زيارة قبر زوجته:

«لولا الحياء لهاجني استعبار
ولزرت قبرك، والحبيب يزار».

فهل كان صادقاً أم مرائياً؟ إنه الاثنان معاً، يبكي زوجته، وينام في حضن غيرها، وهذا ليس من النذالة في شيء، فالحب، والجنس، واللذائذ متع الحياة ونعمها التي أنعم الله سبحانه وتعالى، بها علينا.

أمَّا بالنسبة لي فأنا لم أكن قديساً ولاشيطاناً، راهباً أو ناسكاً فقد عرفت في شبابي كل المتع، كما كنت قادراً، أو راضياً أو متشوقاً، وقد قال عمر بن أبي ربيعة العاشق الأكبر، والماجن الأكبر:

حججنا حين حج الجنان فقلنا: يجمعنا وإياها الطريق

وعندما تقدم به العمر أقصر فقال:

تقول وليدتي لما رأتني
طربتُ، وكنتُ قد أقصرتُ حينا
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً
وهاج لك الهوى داءً دفينا

فأجاب عمر بن أبي ربيعة ملتاعاً:

فوافق بعض ما قد تعرفينا
مشوق حين يلقى العاشقينا

إنه اعتراف صريح بالتقصير أو الونى أو غروب شمس الشهوة الجنسية لديه.

إن في هـذا لعبرة لمن يتقدمون في السن، وقـد سبـق لي أن كتبـت مقالـةً شهيرة في حينهـا عنوانها (شباب الـروح، وشيخوخة الجسد، أي أنَّ الـروح تظل شابة راغبة في متع الحياة، وهـل في الحياة من متعة تفوق متعـة الجنس، متعة أن يضـم الذكر الأنثى بين ذراعيه؟

المعـروف عني أنني من أنصـار (قل كلمتك وامشِ) ولا أرغب في الأخذ والعطاء أو (في اللـت والعجن) مع من يمدحونني أو الذين يشتمونـني، وإلا قضيت معظم وقتي في شقشقـة اللسـان، ولم يتوفـر لي الوقت لأكتب كل هذا الكم من الروايات والمقالات وأحاديث الناس في هذه البيئة أو تلك؟

لقد أراد بعضهم امتحاني فقال أحدهم أين برهانك علـى ماتقول إن صعوبة إثبات القـول أصعب من القـول نفسه، لكنني كما هي عادتـي، لا أكتب بغير إثبـات أو يقين، فأجبت هـذا النفر من المتسائلين، الطالبين إثبـات صحـة أنَّ الروح تبقـى شابة، لكن الجسـد هو الذي يخـون فتذكرت قصيدة أحمد شوقي أمير الشعراء في زمانه:

سَلو قَلبي غَـداةَ سَلا وَتابا
لَعَلَّ عَلى الجَمالِ لَـهُ عِتابا
وَيُسـأَلُ في الحَـوادِثِ ذو صَوابٍ
فَهَل تَـرَكَ الجَمـالُ لَـهُ صَوابا
وَكُنـتُ إِذا سَـأَلتُ القَلبَ يَـومًا
تَـوَلّى الـدَمعُ عَـن قَلبي الجَوابا

وتوقفت عند البيت التالي:

وَلي بَـيـنَ الضُـلوعِ دَمٌ وَلَحـمٌ
هُما الواهي الَّـذي ثَكِلَ الشَبابا

أي إنَّ جسـده خان شهوته، وهذا مصير كل حي في هذه الدنيـا من الإنسان إلى كل من له روح وشهوة ورغبة في اللذة من الجمل إلى النملة.

وأعتذر مـن قرائي الكـرام، إذ تريثت قليـلاً، فبسبـب نظـري الضعيـف، في الشيخوخة المرذولة التي صرت إليها لاقدرة لي على الكتابـة، فأنا أملي، وسائق سيارتي يكتـب وأعتذر عنه وعنـي، إذا ما كان ثمة أخطاء، وهـي موجودة لاشـك وخاصة في الشعر، الذي يفهم سائقي، الكاتب، أكثره أو بعضـه، وسيأتي أستاذ في اللغة ليغسل هذه الأخطاء.

إنني في أرذل العمـر هذا لا أقوى على السـير لأنَّ رجليّ الاثنتـين مكسورتان، وقد ذكرت سابقاً هذا، والتكرار بعيد عن شيمتي في الكتابة، إلا أن العاجـز معذور، والعجز يؤلم جسدي كله.

إنَّ تجاوز العجز، في هذا الزمن الرديء،

من المعجزات وزمن الأعاجيب والمعجزات ولّى، غير أنَّ معاضدة الهمة القعساء في الوثوب على الأذى، تعد من بعض الشيم في اعتصار ما تبقى من قوة في أناملي التي من دونها لاكتابة ولا فن على الإطلاق.

يا لائمي في هَواهُ وَالهَوى قَدَرٌ
لَو شَفَّكَ الوَجدُ لَم تَعذِل وَلَم تَلُمِ

يا ناعِسَ الطَرفِ لا ذُقتَ الهَوى أَبَدًا
أَسهَرتَ مُضناكَ في حِفظِ الهَوى فَنَمِ

وكيف السبيل إلى النوم، ما دمت غير نوّام إلا بالتخدير وقد خدرتني أمي -رحمها الله- وأنا طفل رضيع بالخشخاش، فأنا، إذا جاز التعبير، مخشخش منذ ولدت..

آلياتُ التخييل في شاعرية المتنبّي

د. خليل الموسى

-١-

ذهب المعلِّم أرسطو أوّلاً إلى أنّ الشعر محاكاة لأفعالٍ نبيلة أو خسيسة، ((وأنّ مهمّة الشاعر الحقيقية ليست في رواية الأمور كما وقعتْ فعلاً، بل رواية ما يمكن أن يقع. والأشياء ممكنة: إمّا بحسب الاحتمال، أو بحسب الضرورة))(١)، ولذلك كان الشعر وليد المخيّلة، ولا شيء آخر سواها، وإن كانت هذه المخيّلة متصلة بالواقع بحبل سرّي، ولكنّها مختلفة عنه في جوهرها، كاختلاف الشاعر عن المؤرّخ والفيلسوف، وزاد على ذلك ثانياً أنّه ذهب إلى ((أنّ الشاعر يجب أن يكون صانع حكايات وخرافات أكثر منه صانع أشعار، لأنّه شاعر بفضل المحاكاة، وهو إنّما يحاكي أفعالاً))(٢)، ممّا يعني أنّ الشاعر مبدع، ويتجلّى إبداعه في صنع عمارات شعرية مختلفة، كالمهندس الذي يخلّد اسمه بأعمال غير مسبوقة، ومن هنا أيضاً لا تكون معرفة اللغة والبلاغة والأوزان غايات في ذاتها، وإنّما هي أدوات لبناء تلك العمارات الفارهة، وهي لا تكفي وحدها ليكون الخبير بها جديراً بلقب الشاعر، وقد نبّه أرسطو على ذلك بوضوح: ((والواقع أنّ من ينظمُ نظرية في الطبّ أو الطبيعة يُسمّى عادةً شاعراً. ورغم ذلك فلا وجه للمقارنة بين هوميروس وأنباذوقليس إلاّ في الوزن، ولذلك يَخلقُ بنا أنْ نُسمّيَ أحدهما (هوميروس) شاعراً والآخر طبيعيّاً أولى منه شاعراً))(٣)، ومن هنا وقف أرسطو عند

✿ أديب وناقد وأستاذ جامعي (قسم اللغة العربية- جامعة دمشق).

ملحمـة ((الإلياذة))، وتراجيديـا ((أوديب ملـكاً))، ليكـونَ الناقد الأكـثر حضوراً في تاريخ النقد العالمي.

سار معظم النقـاد العرب القدماء على خُطا أرسطو، وذهبوا إلى أنَّ الشعر صناعة قبل أيِّ شيءٍ آخر، وهـو صناعة مصدرُها المخيِّلة والمعرفة والممارسـة، فقد روى ابن سلاَّم الجمحي الخبر الآتـي: ((وقال قائل لخلف: إذا سمعـتُ أنا بالشعـر أستحسنُهُ فما أُبالي ما قلتَ أنتَ فيه وأصحابك. قال: إذا أخـذتَ درهماً فاستحسنتَـه، فقال لكَ الصرّاف: إنّه رديءٌ، فهل ينفعُكَ استحسانُكَ إيّاه؟))[٤].

وربمـا كان الجاحـظ من أبـرز النقاد العرب القدماء الذيـن ذهبوا إلى أنَّ الشعر صناعـة وتخييـل، أو هو صناعـة غايتها الجمال، ولا قيمة فيها تُذكر لموضوع القول شريفاً كان أم خسيساً، وإنَّما قيمتُه لطريقة القول وجودة السبـك: ((والمعاني مطروحة في الطريـق، يعرفُهـا العجمـيّ والعربيّ، والبدويّ والقـرويّ والمدنيّ، وإنَّما الشأنُ في إقامة الوزن وتخـيُّر اللفظ، وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحّة الطبع، وجودة السّبك، فإنَّمـا الشعر صناعة، وضـربٌ من النسج، وجنسٌ من التصوير))[٥].

وبنـاءً على هذه المعرفة العميقة لطبيعة الشعر وأسراره اللغوية وقف الجاحظ موقفاً متقدِّماً مـن عملية ترجمة الشعر، فهو أولاً وأخيراً صناعة وتخييل، وهذا يعني أنَّه لغة، ولكلِّ لغة سياق وخصوصية، ومن هنا تتعذَّر ترجمة الشعر من لغة إلى أخرى، لأنَّه يفقد بذلك حسناته وجمالياته، وليس كذلك النثر، ((والشعـر لا يُستطـاع أن يترجم ولا يجوز عليـه النقل، ومتى حُوِّل تقطَّع نظمُه، وبطل وزنُهُ، وذهبَ حسنُه، وسقط موضع التعجّب منه لا كالكلام المنثور))[٦].

وإذا كان الشعـر محاكاةً وتخييلاً، فهو - إذن - واقعٌ فنّيٌ قائم بذاته ومستقلٌ عن سواه، فـلا ينظر فيه إلى صحّة القـول أو عدمه، وليس المهمّ فيـه أن يتطابق مـع الحقيقة الخارجة عن حقيقتـه النفسية والتخييلية والجمالية إلاّ إذا أردنا من الشاعر أن يكون خادماً لغرض آخر غير الشعر، وقد روى أبو هلال العسكري هذه الرواية: ((وقيل لبعض الفلاسفة فلانٌ يكذب في شعره، فقال: يُراد من الشاعر حسنُ الكلام والصدقُ يُراد من الأنبياء))[٧].

وعلى الرغم مـن أنَّ الوزن ضروري في الصناعة الشعرية، وهو علامة من علاماتها غير أنَّه يأتي في الدرجة الثانية بعد التخييل، فإذا فُقـد التخييل فُقدت اللـذة الشعرية، فالمحـاكاة جوهـر الشعـر، وإذا خلا منها تحوَّل إلى نثر، وإن كان موزوناً مقفّى، وهذا ما ذهب إليه الفارابي، فقال[٨]: ((والجمهور

وكثيرٌ من الشعراء إنّما يرون أنّ القول شعر متى كان موزوناً(..) وليس يبالون أكان مؤلفاً ممّا يحاكي الشيء أم لا.. والقول إذا كان ممّا يحاكي الشيء، ولم يكن موزوناً بإيقاع فليس يُعدّ شعراً(..) وأعظم هذين في قوام الشعر هو المحاكاة وأصغرها الوزن، فالخطابة قد تستعمل أشياء من المحاكاة. وربما غلط كثيرٌ من الخطباء الذين لهم في طبائعهم قوّة على الأقاويل الشعرية، فيستعمل المحاكاة أزيد ممّا شأن الخطابة أن تستعمله، فيكون قوله ذلك عند كثير من الناس خطبة، وإنّما هو في الحقيقة قول شعري عدل به عن منهاج الخطابة. وكثيرٌ من الشعراء الذين لهم أيضاً قوّة على الأقاويل المقنعة ويوزنونها، فيكون ذلك عند كثير من الناس شعراً، وإنّما هو قول خطبيٌّ عدل به عن منهاج الخطابة. وكثيرٌ من الخطباء يجمع في خطبته الأمرين جميعاً، وكذلك كثيرٌ من الشعراء، وعلى هذا يوجد كثيرٌ من الشعر، والأقاويل الشعرية))، والقول الفصل في هذا المجال ما ذهب إليه ابن وهب في تعريف الشاعر: ((الشاعر من شعر يشعر فهو شاعر، والمصدر (الشعر)، ولا يستحقّ الشاعر هذا الاسم حتى يأتي بما لا يشعر به غيره، وإذا كان إنّما يستحقّ اسم الشاعر لما ذكرنا فكلُّ من كان خارجاً عن هذا الوصف فليس بشاعر، وإن أتى بكلام موزون مقفّى))[٩].

وصنع كولردج بعد ذلك مستفيداً إلى حدّ بعيد من الفلسفة المثالية الألمانية في أواخر القرن الثامن عشر نظريته الرائدة في التخييل، وربما كانت النظرية النقدية الأكثر تفصيلاً ودقّة في الآليات التي تشتغل عليها المخيّلة، ففرّق أولاً بين الخيال الأوليّ والخيال الثانوي، وإن كانا ينتميان إلى الخيال، ولكنّ الأوّل منهما معرفي، ويشترك فيه الناس جميعاً، ومنهم الشاعر والفيلسوف والعالم، وهو ضروريّ لتشغيل الخيال الثانوي، ولكنّ وظيفة الأوليّ الجمع والاختيار، ومجالُه العقل، في حين أنّ وظيفة الخيال الثانوي الصهر والتوحيد، فهو يستلم المواد الأولية من الخيال الأولي، ليصنع منها كائناً حيّاً مختلفاً وشكلاً عضويّاً جديداً، ((إنّه يحلّل وينشر ويجزّئ لكي يخلق من جديد أو، حيث تكون هذه العملية غير ممكنة يصارع مع ذلك وفي كلّ الحالات لأن يرفع إلى مستوى المثال وأن يوحّد))[١٠]، ومن هنا كان هذا القسم من الخيال من نصيب الشعراء وحدهم، فهم أصحاب البصيرة والخلق.

والآلية الثانية في نظرية النقد لدى كولردج أنّه فرّق بين الخيال والتوهم، ففي الأول قوّة تركيبية تتحقّق فيها ثنائية الروح والمادة وإبداع الشكل العضوي من دون أيّ تأثير خارجيّ. أمّا الشعر الصادر عن التوهم فهو صور وأفكار متفرقة مفككة، قد

يتحقّق فيما بينها تناسق فكري أو منطقي، ولكنّها تبقى جزئيات باردة لا عاطفة فيها ولا خصوصية واستقلال، وهذا يعني أنّ التوهم عند كولردج ينتمي إلى الشكل الآلي، وهو نقيض الخيال الذي ينتمي إلى الشكل العضوي، ((فإنّ قوّة الاستدعاء Fancy ليس لها مقابل تعمل معه اللهمّ إلاّ ما هو ثابت ومحدود، وقوّة الاستدعاء في الحقيقة ليست إلاّ طرازاً من الذاكرة متحرّراً من نظام الزمان والمكان مختلطاً بتلك الظاهرة التجريبية للإرادة التي نعبّر عنها بالكلمة (اختيار) ومعدلاً بها. ولكنّها، كالذاكرة العادية سواء بسواء، لا بدّ أن تتلقّى كلّ موادها معدّة من قانون الترابط))[11]، وهذا يعني أنّ التوهم يعيد إليك المادة والموضوع كما هما بعد ترتيبهما، ويمكنك تفكيك الجسم المكوَّن منهما وإعادته إلى ما كان عليه قبل عملية التلفيق والوصل والربط، فعمل التوهم عقلي صناعي آلي، فالفارق إذن بين الشكلين يعيدنا إلى الفارق بين الشاعر والناظم.

إنّ الخيال وحده كفيل بإنتاج عمارات شعرية خالدة، في حين أنّ التوهم يُنتج أشكالاً غير قابلة للحياة، وهذا ما شدّد عليه أرسطو في هذه الإشارة: ((وكما في سائر فنون المحاكاة تنشأ وحدة المحاكاة من وحدة الموضوع، كذلك في الخرافة، لأنّها محاكاة فعل، يجب أن يكون الفعل واحداً وتامّاً، وأن تؤلّف الأجزاء بحيث إذا نُقل أو بُتر جزء انفرط عقد الكلّ وتزعزع، لأن ما يمكن أن يضاف أو ألاّ يُضاف دون نتيجة ملموسة لا يكون جزءاً من الكلّ))[12]، وهذا ما شدّد عليه كولردج في الشكل العضوي الذي ينبغي أن يتوافر في الأعمال الشعرية الخالدة، فقال: ((استخراج حجر من الأهرام باليد المجرّدة لن يكون أكثر صعوبة من تغيير كلمة أو موقع كلمة عند ميلتون أو شكسبير (في مؤلفاتهم ذات الأهمية القصوى على الأقل) دون أن تجعل المؤلف يقول شيئاً آخر أو شيئاً أسوأ مما يقول))[13]، فهل استحقّ المتنبي فعلاً أن يُقال عنه ((مالئ الدنيا وشاغل الناس)) لو لم يكن صاحب عمارات شعرية عالية في تاريخ الشعر العربي؟ وهل استطاع فعلاً أن يكون نسيج وحده لو لم يتمتّع بمخيلة شعرية نادرة تُفصح عنها العمارات الخالدة التي تركها لنا!!!؟

-٢-

ذو العقلِ يشقى في النَّعيمِ بَعقْلِه
وَأخُو الجهالةِ في الشَّقَاوةِ يَنْعَمُ[14]

صحيحٌ أنّ المتنبي مجّد العقل، ولكنّه رأى فيه سبباً من أسباب التراجيديا التي يعيشها صاحبه في مجتمع متهاوٍ لا يحكمه العقل، ولا

قيمة لــه فيه، بل هو العدوّ المحارب والمبعد والمنفيّ، ومــع ذلك فإنّ تمجيــده للعقل لا يخرج عن دائرة التخييل، وصحيحٌ أيضاً أنّ المتنبي استفاد من الحكمة الإغريقية عامة، ومــن حكم أرسطو خاصــة في بناء عماراته الشعريــة، ولكنّــه ألبسهــا لباســاً روحيّاً، وصاغها صياغةً تنمّ عن تجربته الشعرية، ثمّ إنّ الخيال الأوليّ يجمع ويستقصي ويختار، ويأتــي بعد ذلــك الخيال الثانــوي- حسب كولــردج- ليحوّل ذلك كلّه من مــواد أولية إلى أشــكال عضوية وعمارات شعرية، حتى إنّ ذلــك ينطبق على الترجمات الشعرية إذا كانت إعادة كتابة، فقــد ادّعى أدونيس بأن ترجمته لأعمال بيرس إبداع على إبداع، فـ ((شعــر سان- جون بيرســ في العربية إنّما هو ذو وجه أدونيســي))[١٥]، وترجمة نقولا فياضــ لبحيرة لامارتين جديرة- مثلاً- بأن تُسمّى حقّاً ((بحيرة لامارتين الفياضي))[١٦]، فكيف الحــال إذن مع المتنبي وحكم أرسطو التــي نقلها من سياق إلى سياق مختلف، لغةً وشعراً؟ أفليس ذلك مدعاة لإعادة النظر في التّهم الكثيرة التي وُجّهت إلى مخيلة فارهة؟ وبناء علــى ذلك سنحــاول مقاربــة آليات التخييل في هذه الشاعرية الجامحة.

تتجلّــى أولاً علامات التخييــل وآلياته في شعــر المتنبي في قدرته علــى الاستفادة مــن ثقافة عصره وتحويلها مــن موادّ أولية إلى شعر، وتوظيفه ضمــن السياق النّصّيّ، فمن المتّفق عليه أنّــه كان ذا ثقافة صوفية وفلسفيــة يونانية عالية، وقد استخدمها في شعره استخداماً لافتاً للنظر، فمن قصائده التي تتجلّى فيهــا ثقافتُهُ الصوفية الرفيعة الهمزيــة التي مدح بها أبــا عليٍّ هرون بن عبــد العزيز الأوراجي الكاتب، وكان يذهب إلى التصوف، ومطلعُها:

أَمِنَ ازديــارَكِ في الدُّجى الرُّقَبَاءُ
إذْ حيثُ أنتِ من الظلامِ ضِيَاءُ[١٧]

وتزدحــم أحياناً الأبيــات الشعرية التي تعود مادتها الأولية إلى حكم أرسطو وأمثاله، ففي ميميّتــه التي هجا بها ابن كيغلغ ذهب العكبري الشارح إلى أنَّ قوله:

لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرفيعُ مِنَ الأذى
حتّى يُــرَاقَ على جَوانِبِــهِ الــدَّمُ

من قول الحكيــم أرسطو ((الصبر على مضض الرياسة ينال به شرف النفاسة))[١٨]، كما ذهب إلى أن قوله:

اَلظُّلمُ من شِيَمِ النُّفُوسِ فإنْ تَجِدْ
ذا عِــفَّــةٍ فَلِـعِـلَّـةٍ لا يَـظْلِـمُ

من قول أرسطو: ((الظلم من طبع النفس، وإنّمــا يصدُّها عن ذلك إحــدى علّتين. إما علّــة دينية، أو علّة سياسية، كخوف الانتقام منها))[١٩].

وربّمــا كان المتنبــي مــن أقــدر شعراء العربيــة على تحويل البطولات الواقعية إلى

بطولات أسطورية، خاصةً إذا ارتاح لممدوحه واطمأنَّت نفسُه إليه، وفي بعض قصائده في سيف الدولة صور كثيرةٌ من ذلك، فبطلُه لا ينتمي إلى العالم الواقعي، وإنَّما هو من عالم فوق بشـري، وبطولاتُهُ تؤكِّد ذلك بصراحة، وهو شبيه بجلجامش وأخيل وهكطور في إقدامه وشجاعته ومهابته، حتى إنَّه يفوق جيشاً كاملاً، فإذا رآه الأعداء أدركوا سلفاً أنهم منهزمون:

فلمَّا رَأوْهُ وَحْـدَهُ قَبْـلَ جَيْشِه
دَرَوْا أنَّ كُلَّ العالَمِينَ فُضُولُ[20]

وهذه صورته الأسطورية في وقعة الحدث الحمراء:

بَناها فَأعْلى والقَنا تَقرَعُ القَنَا
وَمَوْجُ المنايا حولها مُتَلاطِمُ(..)
وَقَفْتَ وما في الموتِ شكٌّ لِوَاقِفٍ
كأنَّكَ في جَفنِ الرَّدَى وَهْوَ نائِمُ
تمرُّ بكَ الأبطالُ كلمى هزيمةً
وَوَجْهُكَ وَضّاحٌ وَثَغْرُكَ باسمُ
تجاوزتَ مقدارَ الشَّجَاعَةِ والنُّهَى
إلى قولِ قومٍ أنتَ بالغيبِ عالمُ[21]

وفي شاعرية المتنبي قدرة عجيبة على صهر الذاتي والموضوعي، فهو يُمسكُ بيديه لعبة الصناعة الشعرية، فيتحدَّث عن الآخر بإعجاب شديد، ولكنَّه يستمدُّ صورته من أحلامه وطموحاته، فظاهرُ الأبيات من الآخر، وباطنُها من الذات، والصورة الخلفية أو الأساس والإطار صورة الفارس المتنبي الحاضر بقوة في شعره، وكأنَّه يقول:

وقفتُ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ
كأنِّي في جَفْنِ الرَّدى وهو نائمُ
تمرُّ بيَ الأبطالُ كلمى هزيمةً
ووجهيَ وضَّاحٌ وثغريَ باسم
تجاوزتُ.. إلخ[22]

ثمَّ إنه فصل بين الذات والآخر كان الفصلُ حاداً، فبطولات العالم كلُّها لا تساوي جزءاً يسيراً من بطولاته، وأخلاق العالم موبوءة، وشعر شعراء عصره صدًى لشعره المدوّي في الآفاق، ممَّا جعله نسيج وحده، في حين أنَّ الحياة بخلت عليه بما يستحقّ، فأعلن عليها وعلى مجتمعه الحرب:

أذُمُّ إلى هذا الزَّمانِ أُهَيْلَهُ
فأعْلَمُهُمْ فَدْمٌ وَأحْزَمُهُمْ وَغْدُ
وأكْرَمُهُمْ كَلْبٌ وأبْصَرُهُمْ عَمٍ
وأسْهَدُهُمْ فَهْدٌ وَأشْجَعُهُمْ قِرْدُ
ومِنْ نَكَدِ الدُّنْيا على الحُرِّ أن يَرَى
عَدُوّاً لَهُ ما مِنْ صَداقَتِهِ بُدُّ[23]

-٣-

لجأ المتنبي في ساعات الشدّة وتكاثر الخصوم وتكالبهم عليه إلى إحدى الآليتين في التخييل: التعبير المباشر أو غير المباشر، فمن الأولى بروز الذاتية الفارهة واعتزازه

الشديد بشعـره وفروسيتـه، وهو يخاطب سيف الدولة نفسـه، ففي نهاية داليته التي مدح بها سيف الدولة، وهنَّأه بعيد الأضحى قال:

وما أنـا إلاَّ سَمْهَـرِيٌّ حملتَـهُ
فـزيَّنَ مَعْـروضـاً وَرَاعَ مُسَـدَّدَا

وما الدَّهْرُ إلاَّ من رُوَاةِ قصائدي
إذا قُلْتُ شعراً أصبحَ الدَّهرُ مُنشِدا

فسارَ بـهِ مَـن لا يَسيرُ مُشَمِّراً
وغَنَّـى بـهِ مَـن لا يُغَنِّـي مُغَـرِّدا

أجِزْني إذا أُنْشِدْتَ شعراً فإنَّما
بِشِعري أتـاكَ المادحـونَ مردَّدا

وَدَعْ كلَّ صوت غيرَ صوتي فإنَّني
أنا الصَّائحُ المحكيُّ والآخرُ الصَّدى[٢٤]

ولذلك فإنَّـه يُصرِّح بأنَّ كرامته فوق كلِّ حساب، وموطنه على ظهور الإبل وصهوات الخيول، وهـو لا يُقيـم إلاَّ في المكان الذي يكون فيـه عزيـز النفس موفـور الكرامة معروف المكانة:

أَلِـفْـتُ تَـرَحُّـلـي وَجَـعَـلْـتُ أرضي
قُـتُـودي والـغُـرَيْـرِيَّ الْجُـلالا

فـمـا حـاوَلْـتُ في أرضٍ مُـقـامـاً
ولا أَزْمَـعْـتُ عَـن أرضٍ زَوَالا

عـلـى قَـلَـقٍ كـأنَّ الـرِّيـحَ تحتي
أُوَجِّـهُـهـا جَـنُـوبـاً أو شَـمـالا[٢٥]

وتتجلَّـى المباشـرة والذاتيـة الفارهـة المتعالية في أعلى درجاتها في السخرية المرَّة اللاذعة من الشعراء الذين تكالبوا عليه في بلاط سيف الدولة، وحاولوا النيل منه ومن شاعريته، فقال شاكياً ممَّا آلت إليه الأمور، وكأنَّه يُنذر بقرب رحيله:

أفي كلِّ يـوم تحتَ ضِبْني شُوَيْعِرٌ
ضعيفٌ يُقاويني قصيرٌ يُطَاوِلُ

لساني بِنُطقي صامتٌ عنهُ عادلٌ
وقلبي بصمتي ضاحكٌ منهُ هازلُ

وأتْعَبُ مَنْ نـادَاكَ مَنْ لا تُجيبُهُ
وأَغْيَظُ مَنْ عـادَاكَ مَنْ لا تُشَاكِلُ

ومـا التِّيـهُ طِبِّي فيهم غيرَ أنَّني
بغيضٌ إليَّ الجاهلُ المُتَعَاقِلُ[٢٦]

أمَّـا التعبير غيـرُ المباشـر فيتجلَّى في أمرين: توسيع بنيـة القصيدة بموضوعات غير موضوعها الرئيـس، وقد تكون مجانبة لـه ومتناقضة معه، وربمـا كان المتنبي أوَّل شاعر نهج هـذا النهج، والثاني أنَّه عمَّق في بنيـة القصيدة، فإذا هـو يهجو وهو يمدح، أو بطَّـن الهجاء في المديـح، وهكذا صارت القصيـدة طبقات بدلاً مـن أن تكون طبقة واحـدة، فصـارت القـراءة متعـثِّرة، وهي تتطلب جهداً لقراءة ما بين السطور وخلفها، فهو ترك- مثـلاً- في توسيع قصيدة المديح مكاناً واسعاً للحديث عن الذات المتكلمة من حيث الفروسية والأخلاق والقيم والعبقرية الشعريـة، فإذا الشاعر يحتـلّ قصيدته أو يستعيدها، بل هو يفتتُحها بصوره الخارقة

والأسطورية وحكمه القاطعة، فقد بدأ قصيدته التي مدح بها محمد بن سيّار بن مكرم التميميّ بهذه الأبيات:

أقلُّ فَعالي بَلْهَ أكثَرَهُ مَجْدُ
وذا الجِدُّ فيه نلْتُ أم لم أنَلْ جَدُّ
سأطْلُبُ حقّي بالقَنَا ومشايخ
كأنّهُمْ مِنْ طولِ ما الْتَثَمُوا مُرْدُ
ثِقالٍ إذا لاقَوْا خِفافٍ إذا دُعُوا
كثيرٍ إذا شَدُّوا قليلٍ إذا عُدُّوا
وطعنٍ كأنّ الطّعْنَ لا طعنَ عندهُ
وضربٍ كأنّ النّارَ من حَرِّهِ بَرْدُ
إذا شِئْتُ حَفّتْ بي على كلِّ سابحٍ
رجالٌ كأنّ الموتَ في فَمِها شَهْدُ..[٢٧]

وهو يفتتح قصيدة يمدح بها عليّ بن أحمد بن عامر الأنطاكي، فيقول:

أطاعنُ خيلاً من فوارسِها الدّهرُ
وحيداً وما قولي كذا ومعي الصّبْرُ
وأشْجَعُ منّي كلَّ يومٍ سلامتي
وما ثَبَتَتْ إلّا وفي نفسها أمرُ
تَمَرّسْتُ بالآفاتِ حتّى تركْتُها
تقولُ: أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ
وأقْدَمْتُ إقْدامَ الأتيِّ كأنّ لي
سوى مُهجتي أو كانَ لي عندها وِتْرُ
ذرِ النّفْسَ تأخُذْ وُسْعَها قَبْلَ بَيْنِها
فمُفْتَرِقٌ جاران دارُهما العُمْرُ
ولا تَحْسَبَنّ المجدَ زِقّاً وَقَيْنَةً
فما المجدُ إلّا السّيْفُ والفَتْكَةُ البِكْرُ[٢٨]

وقد اعتاد المتنبي أن يتغزّل بالممدوح على طريقة أهل الصوفية، وهذا كثير في قصائده في سيف الدولة، حتى إنّ الدارس ربّما وجد بقايا ذلك الغزل في بعض قصائده في كافور، فقد أنهى إحدى قصائده فيه بهذا البيت:

أنتَ الحبيبُ ولكنّي أعوذُ بهِ
مِنْ أن أكونَ مُحبّاً غيرَ محبوبِ[٢٩]

وافتتح قصيدة مدحية فيه بقوله:

أُغالِبُ فيكَ الشّوْقَ والشّوْقُ أغْلَبُ
وأعْجَبُ من ذا الهجرِ والوَصْلُ أعْجَبُ
أما تَغْلَطُ الأيّامُ فيَّ بأنْ أرى
بغيضاً تُنائي أو حبيباً تُقَرِّبُ[٣٠]

ولا يقتصر توسيع بنية القصيدة على المديح، وإنّما نجده أيضاً وبكثرة في قصيدة الرثاء، فهو في رثاء أمّ سيف الدولة أنهى قصيدته بمديح الأمير:

فأنتَ تُعَلِّمُ النّاسَ التّعَزّي
وخَوْضَ الموتِ في الحربِ السِّجالِ
وحالاتُ الزّمانِ عليكَ شتّى
وحالُكَ واحدٌ في كلِّ حالِ
فلا غيضتْ بحارُكَ يا جَمُوماً
على عَلَلِ الغرائبِ والدِّخالِ
رأيتُكَ في الذينَ أرى ملوكاً
كأنّكَ مُستقيمٌ في مُحالِ
فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنتَ منهُمْ
فإنّ المِسْكَ بعضُ دَمِ الغزالِ[٣١]

وهو في رثاء أبي الهيجاء ابن سيف الدولة مدح والده[٣٢]، وهو يمدحه أيضاً في القصيدة التي رثى بها أخته الصغرى[٣٣]، ولكنَّ الغريب العجيب أن ينصرف الشاعر في القصيدة التي رثى بها جدَّته إلى الافتخار بنفسه وتهديد خصومه الذين شتموا بموتها، فخصّص القسم الأخير منها ليردَّ عليهم، قائلاً:

ولو لم تكوني بنتَ أكرمِ والدٍ
لكانَ أباكِ الضَّخْمَ كونُكِ لي أُمَّا
لَئِنْ لَذَّ يومُ الشَّامتينَ بيَوْمِها
فَقَدْ وَلَدَتْ منّي لأنْفِهِمِ رَغْمَا
تغرَّبَ لا مُستَعْظِماً غيرَ نَفْسِه
ولا قابلاً إلاَّ لخالقِهِ حُكَمَا
ولا سالكاً إلاَّ فُؤادَ عَجَاجَةٍ
ولا واجِداً إلاَّ لمَكْرُمَةٍ طَعْمَا
يقولونَ لي: ما أنتَ في كلِّ بلْدَةٍ
وما تبتغي؟ ما أبْتَغي جَلَّ أنْ يُسْمَى
كأنَّ بنيهِمْ عالمونَ بأنَّني
جَلوبٌ إليهِمْ من معادنِهِ اليُتْمَا[٣٤]

أمَّا أن تتعدَّد طبقات القصيدة، وهي في الظاهر ذات موضوع واحد، فهذه سمة من سمات القصيدة المفتوحة على التأويل في شعر المتنبي، فإذا هو يهجو وهو يمدح، ولا يستطيع إلاَّ القارئ الخبير بالسياق من جهة، وبشعر المتنبي من جهة، أن يتوقف ليدركَ هذا المقصد البعيد، مع أنَّ المتنبي أشار إلى ذلك في إحدى قصائده التي هجا بها الأخشيدي:

وشِعْرٍ مدحْتُ بهِ الكَرْكَدَنَّ
بينَ القريضِ وبينَ الرُّقَى
فما كانَ ذلكَ مدحاً لَهُ
ولكنَّهُ كانَ هَجْوَ الوَرَى[٣٥]

إذا تأملنا في طبيعة هذين البيتين أدركنا التراجيديا النفسية التي عاشها المتنبي في بلاط كافور، فقد كان يرجو منه الكثير، ولكنّه أدرك بعد أن مدحه بروائع قصائده أنَّ الرجل يستخدم معه أسلوب المماطلة والتأجيل والخداع، فأيقن أنَّه وقع في الفخّ، ولننظر في مفردة (وشعر)، وقد جاءت نكرة مسبوقة بواو ربَّ، وهي تفيد التكثير، وهذا يعني أنَّ كثيراً من أماديحه في كافور كانت مبنية على المديح في الظاهر، ولكنَّ الشاعر دسَّ في طبقاتها السفلى ما هو أقرب إلى الهجاء، ثمَّ لننظر إلى صورة كافور في مفردة (الكركدنّ)، وهو حيوان عظيم الجثة، قليل الفائدة، ثمَّ يبيّن الشاعر في البيت الثاني أنَّ مديحه للكركدن/ كافور هجاء للمجتمع والناس والأقدار ولمن سمحوا لأمثاله أن يتربعوا على عروش البلدان، ثمَّ إن الشاعر يصرّح في مكان آخر بأنّه كان يهجوه ضمناً حين كان يُظنّ أنّه يمدحه:

ولولا فُضُولُ النَّاسِ جئْتُكَ مادحاً
بما كُنْتُ في سِرِّي بِهِ لَكَ هاجِيَا

فأصبحتُ مسروراً بما أنا مُنشدٌ
وإنْ كانَ بالإنشادِ هَجْوُكَ غاليا[36]

إذا كان الشاعر يهجو وهو يمدح، فهذا يعني أنّ ظاهر الأبيات يقول شيئاً، ويقولُ باطنُها شيئاً مختلفاً، وهذا يعني أيضاً أنّ الأبيات حمّالة معان، وهي ذات لسانين أو أكثر من ذلك، وتتألف بنية القصيدة - حينذاك- من طبقات، ولا يقتصر ذلك على بعض ما نظمه المتنبي في كافور، ولكنّه يمتدّ إلى بعض القصائد التي مدح بها سيف الدولة في نهاية العلاقة فيما بينهما، فعاتبه عتاباً شديداً حين انحاز الأميرُ إلى خصوم الشاعر، فزادت حدّة العتاب وارتفعت درجته، فوصل إلى حدود الهجاء، حتى إنّ صورة الأمير العادل الفاضل الصديق الوفيّ العالم أصابها الخلل في مثل قوله:

يا أعدلَ النّاسِ إلاّ في مُعاملتي
فيكَ الخِصامُ وأنتَ الخصمُ والحَكَمُ
أعيذُها نَظَراتٍ منكَ صادقةً
أن تحسبَ الشَّحمَ فيمَن شحمُهُ وَرَمُ
وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظرِهِ
إذا استَوَتْ عِندَهُ الأنوارُ والظُّلَمُ[37]

كان المتنبي شاعراً ماهراً وشجاعاً حين بطّن مديحه لكافور بالهجاء، وكان لاعباً على غاية من الذكاء والشاعرية حين استبدل قيماً بقيم، وهو لم يفعل شيئاً سوى أنّه عاد بشعره إلى الواقع، وكانت هذه العودة كفيلة بمقصوده، فقد ألحّ في مديحه على لون كافور الأسود مدّعياً بخبث وسوء طوية، بأنّ سواد جلده يقابله بياض النفس، وفي هذا خروج على المقولة المثالية الإغريقية: ((جمال الجسد يدلّ على جمال النفس))، أو ((المظهر يدلّ على المخبر))، وكان المتنبي يطعن في الصميم- وهو التمسّك بنبالة الأصل العربي وسماحة وجه الأبيض وقيمه الموروثة وسيادته- شخصيّة كافور، ويسخر منه، ويذكّره بخساسته ولؤمه وحقارة أصله، ويذكّر ممدوحه والمستمعين بسواد لونه، وهذه صفة كان ينبغي عليه أن يتحاشاها في المديح:

تَفضَحُ الشمسَ كُلَّما ذَرَّتِ الشمـ
ـسُ بشمسٍ مُنيرةٍ سوداءِ
إنَّ في ثوبِكَ الذي المجدُ فيهِ
لَضِياءً يُزري بكلِّ ضِياءِ
إنَّما الجِلدُ مَلْبَسٌ وابيِضاضُ الـ
ـنَّفسِ خيرٌ مِنَ ابيِضاضِ القَباءِ
مَنْ لِبِيضِ المُلوكِ أنْ تُبدِلَ اللَّو
نَ بِلَونِ الأُستاذِ والسَّحناءِ[38]

ثمّ إنّ المتنبي كعادته في إخفاء ما يُضمر، وقدرته في هذه اللعبة الشعرية، واستفادته من طرائق أهل الصوفية من المتشابهات

والتلميح البعيد ولج من مشكلة نسب كافور إلى استبطان الهجاء بوساطة المديح، فاستهزأ من هذا الزمان الرديء الذي نصَّب مَن لا نسب لهم ملوكاً على العرب، وهو يغمز من نسب كافور الوضيع مدّعياً بأنَّ هذا الممدوح لا يحتاج إلى نسب عريق، لأنَّ أفعاله أكبر من أيّ نسب كان، وهذا الادعاء تغطية رقيقة تفضح ما وراءها، خاصةً أنَّ المتنبي لا يتنازل في شعره عن أيِّ قيمة من قيم العرب، والنسب العربي الصريح في رأس القائمة، وكأنّه يذكّر كافوراً ومستمعيه هنا إلى وضاعة نسبه ووضاعة العصر الذي نصَّبه ملكاً على العرب، ثمَّ هو ينظر إليه، وكأنَّه ينظر إلى ملهاة يطرب لها، ولكنها أقرب إلى ما يُسّمى ب (التراجيديا السوداء) في السريالية، فيخلط الهزل بالجدِّ والهجاء بالمديح بمرارة قاسية مدعياً بأنَّه في مجال المديح، ولكنّه في حقيقة الأمر ساخر متهكّم من ممدوحه ومن زمنه، فكانت هذه الأبيات تتحرّك باتجاهين متناقضين، فالبنية السطحية تدعي المدح، وهي تخفي تحتها البنية العميقة المفعمة بالمرارة والسخرية والهجاء:

ويُغْنيكَ عمّا يَنْسُبُ النّاسُ أنَّهُ
إليكَ تَناهى المكرماتُ وتُنْسَبُ
وأيُّ قَبيلٍ يَسْتَحِقُّكَ قَدْرُهُ
مَعَدُّ بْنُ عَدْنانَ فِداكَ ويَعْرُبُ
وما طَرَبي لَمَّا رأيتُكَ بِدْعَةً
لقد كنتُ أرجو أن أراكَ فأطْرَبُ[39]

وقد صرَّح المتنبي في إحدى هجائياته لكافور فيما بعد بما يقصده من البيت الأخير، فأعاد تشكيله، ورمى بالقشرة الخارجية، فإذا ممدوحه قرد يتلهّى الناس بمنظره وحركاته، وليس ذلك وحسب، وإنَّما التقط له صورة غرائبية عجائبية لا يتقبّلها العقل والعادات والنفس الإنسانية، ومسخه مسخاً وصل به إلى الدرك الأسفل، فمكانه ليس على عرش الملوك، وإنَّما يُحمل أمثاله من بلاد بعيدة لتتلهّى به الحرائر الثواكل عن أحبائهنَّ الموتى قبل أن يُصار إلى دفنهم:

ومِثْلُكَ يُؤتى مِنْ بلادٍ بعيدةٍ
لِيُضْحِكَ ربّاتِ الحِدادِ البواكيا[40]

بناءً على ما تقدَّم فإنَّه يمكن أن ندّعي بأنَّ آليات التخييل في شعر المتنبي كانت طيّعة بين يديه ومتناسبة مع شعره وشخصيته، وهي تمدُّ جذورها في الثقافات الإنسانية من جهة، والثقافة العربية من جهة، وبما أنه لاعب ماهر في ميدان الشعر، فإنَّه برز بصفته الشاعر العربي الأكثر قدرة على استخدام هذه الآليات، ليعبّر بوساطتها عن عوالمه الداخلية التي ما استقرَّت على قرار.

الهوامش

١- أرسطو طاليس: فنّ الشعر، تر.عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٢م، ص٢٦.

٢- المرجع نفسه، ص٢٨.

٣- المرجع نفسه، ص٦.

٤- طبقات فحول الشعراء، تح. محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت، ص٧.

٥- الحيوان، تح.عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م، ١/١٣١- ١٣٢.

٦- م. ن، ١/٧٥.

٧- كتاب الصناعتين، تح.محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، مصر، ط٢، ١٩٧١م، ص٦٣.

٨- جوامع الشعر- ضمن تلخيص كتاب الشعر لأرسطو، تح. محمد سليم سالم، مصر، ١٩٧٦م، ص١٧٢- ١٧٣.

٩- البرهان في وجوه البيان، تح.د.حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٦٩م، ص١٣٠.

١٠- كولـردج: النظرية الرومانتيكيـة في الشعر- سيرة أدبية، تر.د.عبد الحكيم حسّـان، دار المعارف بمصر، ١٩٧١م، ص٢٤٠.

١١- م.ن، ص ٢٤٠.

١٢- فن الشعر، ص٢٦.

١٣- النظرية الرومانتيكية، ص١٧.

١٤- شرح ديوان المتنبي (البرقوقي)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠م، ٤/٢٥١.

١٥- أدونيس: سان- جون بيرس وأنا، مواقف، ع٢٩، ١٩٧٤م، ص١٦٤.

١٦- انظر: الموسى، د.خليـل: مبادلات شعرية- مفهوم التأثير أنموذجاً، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٩م، ص٤٣- ٦٦.

١٧- شرح ديوانه: ١/١٤٠.

١٨- المصدر نفسه: ٤/٢٥٢.

١٩- المصدر نفسه: ٤/٢٥٣.

٢٠- المصدر نفسه: ٣/٢٢٦.

٢١- المصدر نفسه: ٤/٩٦- ١٠٣.

٢٢- انظـر: الموسى، د.خليل: جماليات القصيدة في شعـر أبي الطيّب المتنبي (قراءة نصّية)، دار بعل، دمشق، ٢٠٠٦م، ص١٥ وما بعدها.

٢٣- شرح ديوانه: ٢/٩٢- ٩٣. وانظر في ذلك: جماليات القصيدة في شعر المتنبي، ص١٨ وما بعدها.

٢٤- المصدر نفسه: ٢/١٣- ١٥.

٢٥- المصدر نفسه: ٣/٣٤١.

٢٦- المصدر نفسه: ٣/٢٣٧.

٢٧- المصدر نفسه: ٢/٩١- ٩٢.

٢٨- المصدر نفسه: ٢/٢٥٢- ٢٥٣.

٢٩- المصدر نفسه: ١/٣٠٠.

٣٠- المصدر نفسه: ١/٣٠١ .

٣١- المصدر نفسه: ٣/١٥١.

٣٢- انظر: المصدر نفسه: ٣/١٧٣ ومابعدها.

٣٣- انظر: المصدر نفسه: ٣/٢٤٢ ومابعدها.

٣٤- المصدر نفسه: ٤/٢٣٣- ٢٣٤.

٣٥- المصدر نفسه: ١/١٦٧- ١٦٨.

٣٦- المصدر نفسه: ٤/٤٣٤.

٣٧- المصدر نفسه: ٤/٨٣.

٣٨- المصدر نفسه: ١/١٥٨- ١٥٩.

٣٩- المصدر نفسه: ١/٣١١.

٤٠- المصدر نفسه: ٤/٤٣٤.

سليمان العيسى في مسرحه الشعري للكبار

د. ملكة أبيض *

-١-

لم يقتصر سليمان العيسى في نتاجه الأدبي على جنس واحد. بل كتب نثراً إلى جانب الشعر، كما أنه في مجال الشعر لم يقتصر على القصائد والأناشيد، بل كتب القصة والمسرحية أيضاً بحسب الأغراض التي أراد تحقيقها. وفي هذه الأعمال، كان يسير بحسب قانون المحاولة والخطأ، فما رضي عنه ونجح في نظر القراء والمستمعين تابعه، وما لم يلق قبولاً كافياً توقف عنه.

لقد بدأ المقطوعة والقصيدة الشعرية باكراً متسلحاً بهما في نضاله ضد الأجنبي الذي كان يهيمن على مقدرات وطنه. وحين حصلت سورية وبعض الأقطار العربية الأخرى على الاستقلال، راح يحاول توكيد الثقافة العربية وتطويرها متسلحاً بتمكنه المتميز من التراث، من جهة، وباتصاله المتزايد بالثقافة الأجنبية الحديثة، من جهة أخرى. فكان من الطبيعي أن يفيد من موهبته الشعرية في تناول قضايا حساسة في المجتمع العربي المعاصر، ويعبر عنها بأساليب متجددة.

من هنا تأتي محاولاته لكتابة القصة والمسرح الشعريين في بداية النصف الثاني من القرن العشرين. وهذه التجربة، فيما يخص الكبار، تشتمل على خمسة عناوين:

ثائر من غفار (١٩٥٥)[١]، إنسان (١٩٦٥)[٢]، الفارس الضائع (١٩٦٥)[٣]، جبلة بن الأيهم (١٩٦٦)[٤]، ميسون (١٩٧٢)[٥].

* أديبة ومترجمة وأستاذة التربية في الجامعات العربية.

-٢-

أمّا «ثائر من غفار» فهي قصة أبي ذر الغفاري، الذي عاش في صدر الإسلام وشارك في معظم غزوات الرسول. إلا أنه، بعد خلافة عمر بن الخطاب، وقف ضد التمييز الاجتماعي الذي بدأ يأخذ أبعاداً غير مقبولة، وطالب بالعدل في توزيع الثروة. فعانى هو وأولاده من الحرمان والنفي. لقد عُرضت عليه إغراءات كثيرة ليتراجع عن دعوته، ولكنه رفضها، وبقي ثابتاً على موقفه ومات في عزلة موحشة، وكلمة الثورة المقدسة على شفتيه.

هذا الثائر الفذّ أوحى لشاعرنا ملحمة في سبعة عشر نشيداً، قال الأديب الناقد صدقي إسماعيل في مقدمتها: «يمتاز شعر سليمان العيسى بعفوية عربية جميلة، تتمثل في عذوبة اللفظة، وجمال الإيقاع. ولكن التجربة التي يحاول التعبير عنها الآن، لا تكتفي بالعفوية والعذوبة والإيقاع الجميل، فعندما يتناول الشعر ناحية بطولية من حياة الإنسان يطالب بالأثر الخالد.. والقارئ العربي يطمح إلى أن يعيش هذا الوجه البطولي في أعماق نفسه، ويمتلكه.. وشعر القصة بصورة خاصة، هو حياة وفعل قبل كل شيء، هو رسالة قبل أن يكون فناً..».

وأنا أرى أن هذا ما فعله الشاعر سليمان العيسى، فقد قدم صورة بالغة الأثر عن هذه الشخصية الفذّة التي تجسد الثورة على الظلم في جميع مراحل تاريخنا... صورة معبرة كأحسن ما يكون التعبير الفني عنها.

يقول على لسانها في ملحمته:

أيرضى الغفاريّ من دينه
بأن يستجيبَ، وأن يُسلما؟
ألا إن إسلامَهُ ثورةٌ
على الظلم تَحطِمُ، أو تُحطَما
بأعمالهم يكرمُ الشامخونَ،
فيا كانزَ الأرض لن تُكرَما
ويا من حُرِمتَ ظلالَ الكفافِ
قضى ربُّك الوعدُ، لَنْ تُحْرما
تمرَّدْ.. فما كان صدرُ الإله
ليلقاكَ خزيانَ، مستسلما

وأعتقد أن هذه الصورة لا تقل حيوية وتأثيراً عن صورة «تشيه جيفارا» في العصر الحديث.

-٣-

وفي مسرحية «إنسان» تناول الشاعر قضية أخرى من قضايانا المعاصرة، هي قضية المروءة والأمانة في مجتمع استشرى فيه الفساد والرشوة.

وقد أفاد في تناولها من حادثة قرأها في «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، حول

ملاحقة شرطة الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور للقائد معن بن زائدة الشيباني ليقتله كما فعل بغيره من قادة الأمويين، وتعرُّف شرطيٍّ أسود من شرطته على القائد، وتركِه يهرب لمعرفته بمقامه وشخصيته المحبوبة المشهورة بالكرم.

لقد رفض الشرطيّ الفقير عِقد الجوهر الذي قدّمه له القائد ثمناً لحياته، بالرغم من حاجة عائلته التي تضم زوجة وثمانية أولاد، وهو يقول: «والله لا آخذه، ولا آخذ بمعروف ثمناً أبداً».

هذه المسرحية، وهي تصلح فعلاً للتمثيل، تتكون من أربع حلقات، أسماها الشاعر لمحات، وأشخاصها:

معن بن زائدة الشيباني، من كبار القادة العرب في الدولتين الأموية والعباسية؛

أبو موسى، صديق معن الذي التجأ إليه في محنته؛

الأسوَد، من شرطة أبي جعفر المنصور؛

عبدة، زوجة الأسوَد؛

أولاد الأسوَد الثمانية؛

بعض أفراد الحرس.

تضم اللمحة الأولى الشرطيَّ الأسود وزوجته في غرفة متواضعة، وهو يقص عليها قصة المجزرة التي أطاحت بكبار القادة الأمويين باستثناء واحد منهم هو معن ابن زائدة الشيباني، الذي هرب، ومازالت الشرطة في إثره بأمر من الخليفة. وخلال ذلك يبدي الشرطي خوفه على القائد لأنه فارس كريم، فتنصحه زوجته بتجنب الخوض في الموضوع حرصاً على حياته ولقمة عيش أولاده.

وتدور اللمحة الثانية في بيت منعزل بعيد عن الأنظار. وفي حجرة معتمة منه يجلس شخصان: معن بن زائدة وصديقه أبو موسى صاحب الدار الذي يحدثه بصوت خفيض عن أن الشرطة تطوّق الحيّ بحثاً عنه، وينصحه بالخروج من بغداد متنكراً.

وفي اللمحة الثالثة يحاول الشاعر إضفاء المتعة على المسرحية، إلى جانب أغراضها المعرفية والأخلاقية، فيعود إلى غرفة الأسوَد المتواضعة ويظهره وهو يداعب صغيرته ياسمين ويغني لها:

ياسمينْ.. ياسمينْ
نسمةُ الفجرِ العليلةْ
همسةُ السَّحرِ الخضيلةْ
مهرجانُ البيتِ في كلِ صباحْ
لم تزلْ عصفورةً دون جَناحْ
ياسمين.. ياسمينْ.

فيجتمع الأولاد حولَه ويشاركونه الغناء.. ويعم الهرج والمرج في الغرفة.

وفي اللمحة الرابعة، يصل معن بن زائدة إلى أحد أبواب بغداد (وهو في زي أعرابي، رث الهيئة يمتطي جملاً نقّالاً) ويدنو من

الحرس المرابط عند باب المدينة.. فيرميه أفراد الحرس بنظرة غير مكترثة، ثم يدعونه يمضي في طريقه.

ما يكاد القائد المتنكر يغيب في منعطف الطريق حتى يعترضه عملاق أسود، متقلد سيفه، ويمسك بخطام الجمل حتى ينيخه.. يجاهد معن نفسه بشدة، لئلا يبدو عليه شيء من الاضطراب متظاهراً بعدم المبالاة.. ولكن الأسوَد يؤكد له أنه عرفه وأنه طِلْبة أمير المؤمنين.

يعطي معن الشرطيَّ الأسوَد عقداً ثميناً ليخليَ سبيله، فيمعن الشرطي النظر فيه، ويقول بعد شيء من التفكير:

الأسود: «معتدلاً في وقفته»

صَهَرَ المديحُ لك النجومَ قلائداً

فنشيد جودك فوق كلِّ لسانِ..

كرمٌ يسيلُ على الحناجرِ قِصَّةً

سحريةً، ويذوبُ عطرَ بيانِ

قُلْ لي.. أهزَّكَ مرَّةً عبقُ الندى

فوهبتَ مالَكَ كلَّهُ لِمَن اجتدى؟

معن: «مستغرباً السؤال»

لا.

الأسود: نِصْفَهُ؟

معن: لا.

الأسود: رُبْعَهُ

معن: لا؟

الأسود: خُمسَهُ؟

معن: لا.. ما أرى أني فعلتُ

«خَجِلاً»

وَوَدِدْتُ أنك ما سألتْ

الأسود: أبذلتَ يوماً عُشْرَهُ

قُلْ لي..

معن: «يستحي أن يقول لا..»

أرى أني فعلتْ..

لوَدِدْتُ أنّك ما سألتْ

الأسود: «بلهجة جازمة»

لا يا ابن زائدة، ولا

هذا بلغتَ، ولا فعلته..

وأخبر معن أن رزقَه من المنصور عشرون درهماً، وأن لديه ثمانية أولاد ولكنه يرفض أن يأخذ العقد الذي وهبه له.

الأسود: خُذْهُ وهبتُك للحياةْ!

«يرمي العقد في حجر ابن زائدة بغير اهتمام..»

بيديكَ عقْدُك والنجاةْ..

«بلهجة آمرة»

هيّا انطلقْ.. لمحَ البَصَرْ

هيّا، توارَ عن النظرْ

«يعود الأسوَد من حيث أتى.. تاركاً معن بن زائدة مشدوهاً فاغر الفم، لا يدري ماذا يقول..»

معن: «يفيق من ذهوله.. يصرخ بالأسود، محاولاً أن يستوقفه»

أناتك يا هذا!

سفكتَ دمي كِبراً!
وأذللتَ.. عَرَّيْتَ المروءةَ، والشِّعرا
أناتك!
أرخصتَ الحياةَ بناظري
قذفتَ بوجهي الصِّيتَ والجودَ والعُمرا
«محاولاً أن يلحق به»
خُذِ العِقدَ..
إني في غنى عنه.. رُبَّما
أزاح عن البيت الذي تَصِفُ الضُّرَّا
يُعينك في البأساء يوماً فَخَلِّهِ
لديك.. تطوِّقْ هامتي مِنَناً خُضْرا
الأسود: «يلتفت في شيء من الاستياء..»
أتظُنُّ أني مُدَّعٍ
فيما أتيتُ! إليكَ مالَكَ!
واذهب.. توارَ عن العيانِ
ولا تَعُدْ أبداً سؤالَكَ!
يأخذ معن بخطام جَمَلِه، يغادر كلاهما المكان بخطا بطيئة شاردة»

لقد توقفتُ عند هذه اللمحة لأمثِّل للحوار الذي استخدمه المؤلف في المسرحية. فلغته بسيطة بصورة عامة، وجمله قصيرة قريبة من الحديث العادي. وإذا بدا لأحدهم أن يتساءل: أفي هذا الموقف الحرج يمكن أن تثار مسألة المدى الذي بلغه كرم معن بن زائدة بالمقارنة مع ما تلقاه من الشرطي الأسود، فأقول: إن المسرح يتطلب بعض المبالغة و التضخيم في طرح القضايا لإلقاء مزيد من الضوء عليها، ولا أعدّ ذلك استطراداً مملاً لا ضرورة له لأنه بقي في حدود ضيقة.

يبقى أن المسرحية الشعرية المحددة المعالم، والموزّعة إلى حلقات ومشاهد واضحة، كالتي رأيناها هنا، تمثل خطوة في طريق الأوبرا الغربية على أن ترافقها فنون أخرى كالموسيقا والغناء، والرقص أحياناً.

-٤-

بعد ذلك يخوض الشاعر تجربتين طموحتين تتناولان شخصيتين من التاريخ هما: «أبو محجن الثقفي» و«جبلة بن الأيهم»، في حرصهما على الحرية الفردية وما تتيحه من متع أو من سلطة، مقابل الرضوخ لنظام الجماعة، وقوانينها، وقيمها.

سأتوقف عند التجربة الثانية «ابن الأيهم»، لأني أعطي قيم العدل الاجتماعي والمساواة أولوية على المتع الفردية، كشرب الخمر على سبيل المثال. على أن ملاحظات الشاعر واحدة بشأن النصين، وملاحظاتي بشأنهما واحدة كذلك.

وقصة جَبَلة بن الأيهم معروفة، ولكن الشاعر رجع فيها إلى «الأغاني» أيضاً. إنه آخر ملوك الغساسنة في الشام.. يعلن إسلامه ويذهب إلى الحجاز.. يرحب به

الخليفة عمر بن الخطاب في حرارة، ثم يصطحبه معه إلى الحج. وفي أثناء الطواف حول الكعبة يدوس رجل من بني فزارة إزار الملك الغساني فيغضب، ويرفع يده فيهشم له أنفه.

ويشكوه الفزاري إلى عمر، فيطلب منه أن يُرضي الرجل أو يقيدَه منه.

ويحتج جبلة مستكراً هذه المعاملة:

جبلة: وكيف ذاك يا أمير المؤمنين، وهو سوقة، وأنا مَلِك؟.

عمر: دع عنك هذا.. إن الإسلام قد جمعك وإياه. فليس تفضله في شيء إلا بالتقى والعافية.

وحين يرى جبلة الصدق والتصميم من عمر، يطلب منه مهلة إلى الغد، ينظر في أمره ليلته تلك.

وما إن ينام الناس ويهدؤون.. حتى يتحمل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام، ومنها إلى القسطنطينية، إلى هرقل ينشد له ولعرشه الثبات والبقاء.

إنها تجربة غنية فيها أكثر من فكرة:

فهناك قبل رحيل جبلة: عنفوان الجاهلية، ومفهوم الكرامة، وسورة الانفعال التي تحدد المواقف، ومنها الارتماء في أحضان الأجنبي حفاظاً على النعمة، والجاه، والتاج..

وبعد رحيله: الشعور بالغربة القاتلة، والندم والحنين إلى الجذور القومية.

وهناك الرسالة الجديدة -الإسلام- والعالم الذي تبنيه، وعلى رأسه الخليفة عمر ابن الخطاب الذي يريد البناء قوياً متيناً خالياً من الثغرات.

يقول الشاعر في مقدمة المسرحية:

«لم أُعْنَ كثيراً بالفن المسرحي.. بإمكانات الإخراج والتمثيل التي يجب أن تتوافر في مثل هذه الآثار.

كان همي الأوّل التعبيرُ عن التجربة، ومع ذلك فلابد لي من وقفة.. تركتُ الكلمات التقليدية التي تقسم المسرحية عادة إلى فصول، ومشاهد، ومناظر، إلى ما هنالك.. واخترتُ كلمة «لمحة» أضعها على رأس كل فصل.

أتراني أقصد بها مشهداً؟ ربما كان ما أعنيه شيئاً آخر..

لعله جوٌّ خاص، محدد، تتحرك فيه حادثة أو أشخاص.. جو نفسي داخلي، أكثر منه لوحة خارجية معينة..

وتتابعت اللمحات.. ولكني حرصتُ أن أربط فيما بينها بخيط دقيق.. نفسي.. يتطور وينمو مع الأحداث.

لم أُجَبِّهْ القارئ بمشكلة..

جعلتها تنمو بين السطور من مقطع.. إلى آخر.. حتى تحتل أبعادها الممكنة».

وأنا أعتقد أن هذا المنطلق -بالذات- أثار مشكلة جوهرية.

إنَّ القصة الحقيقية التي حوّلها الشاعر إلى مسرحية تتمثل في وطء الفزاري لإزار الملك الغساني خلال طوافه بالكعبة، وانتقام الملك بتهشيم أنف الرجل، وإصرار الخليفة عمر على تطبيق الشرع بحق الملك، غير عابئ بمقامه لأن الإسلام ساوى بين المؤمنين.

لذلك لم تكن هناك حاجة في رأيي لعدد من اللمحات (أو الحلقات)، مثل تاريخ الغساسنة، وعلاقتهم بالشعراء كالنابغة الذبياني وحسان بن ثابت، والتوسع في مشاهد الحب بين ابنة جبلة والقائد الغساني وتداخلها مع الموضوعات الأخرى، واستقبال جبلة ثلاث مرات في دمشق، ثم في المدينة، ثم في مكة، وموضوعات أخرى. هذه التفاصيل شوّشت القصة الأصلية ومدّدتها حتى كادت تغرق في سياقها. مع أن الشاعر نجح إلى حد بعيد في نقل الجو العام والمُثُل العليا التي أوجدها الإسلام في الجزيرة وما حولها، كما نجح في تصوير روح جبلة الهائمة بين جذوره الأولى في الصحراء العربية، وبين حرصه على العرش، والملك، والنعيم.. كما نجح في تجسيد شخصية عمر بن الخطاب التي تتمثل فيها كل استقامة النظام وصرامته.

إن المؤلف -كما قال- لم يردْ أن يَجْبَه القارئ بمشكلة ما (وهو يتصور نفسه إزاء قارئ، لا متفرج مشاهد): «بل جعلها تنمو بين السطور..امن مقطع.. إلى آخر.. حتى تحتل أبعادها الممكنة.. أشبه شيء بزورق دُفع إلى الماء.. فإذا هو يلامسه أولاً.. ثم ما يلبث أن ينساب في قلب التيار..».

لقد آثر أن يلمس الموضوع لمساً أوّل الأمر: الشام وجمالها، الغساسنة وعظمة ملكهم، الفتح الإسلامي للشام وتراجع الروم إلى ما وراء أنطاكية..

إنها وجهة نظر، ولكنها لا تجعل من القصة مسرحية خالدة تعرض أمام الجمهور جيلاً بعد جيل.. وهذا ما يؤلمني لأن الموضوع جدير بالمسرحة، ولأن ريشة الشاعر سليمان العيسى كانت قادرة على ذلك، كما رأينا في مسرحية إنسان.. ولكن رؤيته الخاصة وجهت العمل في اتجاه آخر.. اتجاه ملحمي كما يمكن أن نسميه.

هناك ملاحظة أخرى يضيفها الشاعر بشأن موسيقى الشعر الذي استخدمه في كتابة نصه. يقول:

«أنا من المؤمنين بأصالة موسيقانا العربية..

وإذا ما تجلت في شيء فإنما تتجلى في الشعر..

من أوّل معلقة.. إلى أحدث قصيدة غنّاها شاعر أصيل..

لقد كان الشعر العربي «يُنْشَدُ»..
أما نحن فقد اخترعنا «الإلقاء»..
والغناء همسٌ داخلي ترتاحُ له النفس، ويهز الشعور..
موسيقى صامتة، تنساب في الأعصاب
قبل أن يكون أصواتاً، وأنغاماً تسمع..
موسيقى الشعر إذاً شيء ثمين، شيء من صميم التراث».

ولكن الشعر العربي لا يمكن أن يبقى على عموده القديم، لذلك حاول المحدثون استخدام ألوان جديدة من النغم، تتمثل في «التفعيلة» التي أسماها البعض «الشعر الحر».

وسليمان العيسى يقر استخدام «التفعيلة» أساساً لوزن الشعر، ولكنه يرفض تسميتها بـ «الشعر الحر» لأنها تتضمن الكثير من القيود ويجب استخدامها بمنتهى الحذر. ويبين أنه لم يتردد في استخدامها حين يراها أقدر على التعبير عن موضوعه من العمود. ويمثل لذلك بقوله على لسان جبلة بن الأيهم وهو يخاطب فارسه الغساني قبل أن يوجِّهه برسالته إلى الخليفة عمر:

قد آن أن تلتقيَ اللُّحمةُ والسَّدى
يا عمرو، إنَّا -مثلما تعرفُ- كُنَّا أبدا
دنا الحِمى أو بَعُدا
في الدهر كنَّا أبدا
أرومةً واحدةً،
روحاً، وقلباً، ويدا

إنه -كما نرى- من بحر الرجز، هذا البحر المرن المعروف، ولكن الجملة أو المقطع تقوم هنا مقام البيت الواحد في الشكل وفي المضمون على السواء.

هناك نقطة أخرى يتوقف الشاعر عندها، وهي توزيع البيت على فقرات.. في بضعة أسطر.. ويقول: إن الأمر ليس عبثاً.. ذلك أن توزيع البيت على سطور لا يصح إلا في حالات معينة، حين يريد الشاعر أن يشحن العبارة، أو يزوّدها بانفعال خاص..

وهكذا يكون هذا التوزيع وقفات نفسية، يراد لها أن تركز على فقرة أو عبارة من البيت.

لنأخذ هذا المثال من «ابن الأيهم» أيضاً:

عمر: يا ابن أيهم!
جاءني هذا الصباحْ
مشهدٌ يبعثُ في النفسِ المرارةْ
بَدَويٌ من فَزارةْ
بدماءٍ تتظلَّمْ
بجراحْ
تتكلَّمْ
مقلةٌ غارتْ، وأنفٌ قد تهشَّمْ
وسألناهُ،
فألقى فادحَ الوِزْرِ عليكْ
بيديكْ،

قالَ، قد أشبعتَه ضرباً وقصفا
بيديك،
في فِناءِ البيتِ قد هشّمتَهُ وجهاً وأنفا
أصحيحٌ؟
يا بن أيهمْ!
أصحيحٌ؟
ما ادّعى هذا الفَزاريُّ الجريحْ!
جبلة: «بهدوء»
لستُ مَنْ يُنْكِرُ أو يكتُمُ شيّا
أنا أدّبتُ الفتى، أدركتُ حقي بيديّا
عمر: أيُّ حقٍّ، يا بن أيهمْ؟
نزواتُ الجاهليّةْ
ورياحُ العُنجهيّةْ
قد دَفنّاها، أقمنا فوقَها صرحاً جديدا
وتساوى الناسُ:
أحراراً لدينا وعبيدا
يأخذُ الحقَّ القضاءْ
وهو -لا أنتَ- الذي يُنْفِذُ عندي
مايشاءْ

وهناك القافية.. يقول الشاعر بصددها:

إنها الشاطئُ الذي تتكسر عليه أمواج الشعر القديم، فإذا هو صخورٌ وعرة مَرَّةً.. ورمالٌ في لين الحرير مَرَّةً أخرى.

ويخطئ من يظن أن الشعر الجديد «شعر التفعيلة» يتساهل بالقافية، أو يستهين بنبرتها الحلوة، وإيقاعها الجميل.

إنني حريصٌ على القافيةْ
على هذا الشاطئِ الجميلْ،
أيّاً كان لونُ الشِّعر الذي أحاوله...».

وأقول أخيراً بصدد نص «ابن الأيهم» إنه تجربة، لها مالها وعليها ما عليها: لها، الشِّعر الجميل، ومحاولات تجديده للتعبير عن موضوعات شديدة الاختلاف؛ وعليها، كتابته في عدد كبير من اللمحات أضاعت عليه -في رأيي- فرصة الإخراج المسرحي، أو على الأقل، جعلتها صعبة في وضعه الحالي.

-٥-

تبقى لدينا «ميسون»، وهي مسرحية شعرية، كتبها الشاعر في ٥ اكانون الأول ١٩٧٢م في ثماني لمحات، وكان قد قرأ قصة تاريخية من بداية القرن السابع الهجري تقول:

«كان الغزو الصليبي يفتك ببلاد الشام حتى كادت الديار تخلو من شبابها، ولا يبقى فيها إلا شيخ أو امرأة أو طفل، أو رجل نسي واجب الجهاد. جاء الصبية ميسون نعيُ إخوتها، فراحت تفكر بطريقة تجعل الرجال الباقين ينضمّون إلى المعركة.

وخطرت لها فكرة الاستعانة بشَعرها، فجمعت رفيقاتها وقصصن شعورهن

الطويلة المجدولة، وأرسلها إلى خطيب الجامع الأموي آنذاك «سبط بن الجوزي»، فحملها إلى الجامع يوم الجمعة، وألقى خطبة في المُصلّين حروفها من نار، وختمها بقوله:

هذه والله ضفائر المخدّرات، قطعنها في سبيل الله والوطن، فإذا لم تقدروا على الخيل تقيّدونها بها، فخذوها، فاجعلوها ذوائب لكم وضفائر. إنها من شعور النساء. ألم يبق في نفوسكم شعور؟

وألقاها من فوق المنبر على رؤوس المصلّين. فصاح الناسُ صيحة ما سُمِعَ مثلها، ووثبوا يطلبون الموت».

ويقول الشاعر: إنَّ دمشق ما تزال مهددة، والعدو يجتث الشعب من أرضه، ويحتل الدار. فلم لا أكتب دفاعاً عن مدينتي.. وأطفالي.. ووجودي؟

وكانت هذه المسرحية.

لقد أصرَّ على تسمية حلقاتها باللمحات، ولكن التسمية لا تهم ما دامت هناك إمكانية لإخراجها في مكان محدد، حتى لو اضطر المخرج إلى استخدام ستائر أو أبواب دوارة للانتقال من لمحة إلى أخرى من دون تغيير في الديكور.. وأشخاص المسرحية قلائل هم: ميسون، وأبوها، وأخوها أسامة، وصديقتها رباب، وسبط بن الجوزي خطيب الجامع الأموي في تلك الفترة. ويضيف المؤلف إليهم جوقة غير مرئية تعلّق على المشاهد، وتنقسم في بعضها إلى قسمين، يبدأ النصف الأول المقطوعة، ويكملها النصف الثاني، على هيئة تتمة أو جواب. كما أن فيها بعض المناجاة الشخصية. وهذا التنويع بين المناجاة الشخصية، والحوار، وصوت الجوقة، وتناوبه يدخل الحيوية والتشويق إلى المسرحية.

وأود أن أتوقف قليلاً عند الصور والرموز التي استخدمها الشاعر في المسرحية. إنه يظهر ميسون في اللمحة الأولى، واقفة أمام نخلة في حديقتها، وهي تتساءل عما إذا كانت النخلة ذاوية، جافة، بسبب الوضع الأليم الذي تعيشه المدينة.

ميسون: «وهي ترمي النخلة بنظرة خاطفة من حين لآخر..»

عطشى.. كأن جذورَها
في الرَّمْلِ ما زالتْ تُقيمُ
كبرتْ وطالتْ يا «أسامُ»
ولم يُغَيِّرْها النعيمُ.
وكأن في نظراتها
«تلتفت إلى أخيها متسائلة..»
أو تعرفُ الشجرُ الهمومُ؟..
إني تعبتُ.. سَقَيْتُها
حتى مَلِلْتُ...
أسامة: «في شيء من الدهشة»
سقيتِ ماذا؟

وملّت ماذا؟
الجوقة: «غير مرئية بوضوح»
تتحدّثُ عن نخلة
تتحدثُ عن نَخْلة
دَعْها تتحدّث عن شَجَرةْ
عطشى ضَجِرةْ
تسقيها.. تَسقيها أبدا
ويزيدُ كآبتَها بردى
النَخْلةُ أضْجَرَها المَثْوى
النَخْلةُ لا تُروى
لِمَ لا تُرْوَى؟
لِمَ لا تُروى؟
يا أرضُ انشقيّ عن سرِّكِ
قولي لَهُمُ ما في صدرِكِ..
وستيبسُ أرضٌ حَمَلَتْها
حملتْ أقدامَ الغرباءِ
شربتْ أقدامَ الغرباءِ...

وفي النهاية، بعد أن يحمل الجميع السلاح، ويواجهوا الغزاة، يختم المؤلف المشهد، مستخدماً الرمز نفسه:

رباب: «تنظر فجأة إلى النخلة فتراها خضراء زاهية»
ميسون.. نخلتُكِ اخضرّتْ
كأن دماً
من الربيع.. على الأوراق يندفقُ
ميسون: اليومَ يا دارُ ينثالُ الربيع بنا
اليومَ يا نخلتي
يَخْضَوْضِرُ الورقُ

قد يقول قائل: إن ظروف اليوم تختلف عن ظروف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، أيام كانت المرأة تعيش داخل جدران المنزل، وكان العدو جيشاً صليبياً غريباً كليّاً عن البلد وأهله.

والمرأة اليوم، تشكل جزءاً من الحياة العامة، بكل أبعادها وأحوالها.. كما أن العدو لم يَعُد واضحاً كما في السابق، فقد تغلغل إلى الداخل، جالباً معه أعوانه ومعدّاته. كما أن الحرب اتخذت أشكالاً عدّة، فيها الغزو العسكري وفيها الحرب النفسية والإعلامية.

لذلك كان على الفن أن يتخذ أهدافاً جديدة، فيها بث اليقظة والوعي، وفيها زيادة القدرة على ضبط النفس والاستعداد للتضحية. ولعلنا بحاجة إلى طرح أفكار جديدة إلى جانب هذه الموضوعات المستقاة من التراث، بالرغم مما فيها من أمثلة وعبر.

وهذا هو -في رأيي- السبب في أن الشاعر لم يتابعها، وأنه خصص القسم الأكبر من مسرحياته للأطفال لموضوعات معاصرة.

الهوامش

١- سليمان العيسى، الأعمال الشعرية، ط١، جـ١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٥م، ص٣٤١-٣٩٣.

٢- المرجع نفسه، ج٣، ص٢٢٩-٢٥٩.

٣- المرجع نفسه، ج٣، ص٢٦٤-٣٣٨.

٤- المرجع نفسه، ج٣، ص٣٤٢-٤٧١.

٥- المرجع نفسه، ج٣، ص٤٧٣-٥٢٣.

الإنسان وكنز الأدب

عبد الباقي يوسف ✿

الإنسان بطبيعة فطرته كائن يميل إلى الأدب والحياء والشفافية، حتى يتقدم في مراحل إنسانيته، فكل سنة إن لم تزد هذا الإنسان أدباً، فإنها لاتزيده شيئاً مهما بلغ من تقدم في مجالات الحياة الأخرى، ذلك أن تلقي الأدب يقوّم الذات الإنسانية ويهذبها ويجعلها أكثر تواضعاً، ولذلك فإنّ الإنسان كلما تأدب وتثقّف، كلما ازداد ألقاً وإشراقاً وتواضعاً إنسانياً مثل السنبلة التي تزداد انحناءً كلما نضجت واكتملت.

من هنا كانت حاجة الإنسان دائمة ومتجددة إلى الأدب كي ينهل من معينه، ويكتسب منه الألق الروحي والنضج الفكري. إلى جانب ذلك اغتنت العصور بنوابغ وعباقرة الفكر والأدب الذين أسهموا بوضع عناقيد ذهبية في مكتبة الأدب الإنسانية. حتى باتت هذه الخزينة الأدبية الغنية تحتوي على جواهر ونفائس ثمار العقول بحيث بات الإنسان من خلالها يفخر بمنجزه العقلي والثقافي والفكري من خلال هذه الدرر الثمينة.

ينظر الأدب إلى الأفكار والوقائع نظرات تحليلية، فيقدّم ما يمكن أن يقدّم خدمة للناس.

لقد استند سيغموند فرويد في مجمل مشروعه التحليلي على ما كان يخطر بباله من أفكار كانت تقوده أحياناً إلى متاهات لانهائية، وكان يلتقط وقائع ما يرى أو يسمع في عصره ويبني على ذلك مكتشفاته الجديدة، وكان لايتردد من العودة إلى

✿ أديب وقاص وروائي سوري.

صفحـات التاريخ بمختلـف تفرعاته لبناء دعائم مكتشفاته الجديدة.

كذلـك كان الأمـر بالنسبـة لسبينوزا، وشوبنهـور، وأدلر، ويونغ، وسارتر، وولسن، وروسو. وكذلك لهمنغواي، وديكنز، وويتمان، وبريفير، وغوغول، وبروست، وهسه.

إنجازات الأدب

إنَّ مجمل ما تركه الأدب والفكر والفلسفة هو وُجُهـات نظر وآراء ثمينة اغتنى بعضها ببعض ولذلك فإن كل الأبواب لبثت مشرعة بقوة أمام أفكار ووجهات نظر جديدة لأمور على تماس مباشر وساخـن مع وقائع حياة الإنسان في مختلف العصور.

سـوف يتأمـل المنهـج الأدبـي الشجر اليابـس.. يتأمل كيـف أنه عندمـا يُطوى غصـن منه، فإنه ينكسر مـن دون مقاومة، في حين أنه في يَفَعِه يرفض أن ينكسر مهما كانت اليد الممتدة إليـه جبّارة، إنه متمسِّك بالحياة، ويقـاوم أشد مقاومة حتى لا يجتزَّ من شجرته.

والثمـرة اليافعة تبدي مقاومة في وجه الريح حتى تبقـى متلألئة تزيِّـن غصنها، لكنهـا عندما تنضج تقع علـى الأرض من تلقـاء نفسهـا لأنها إن لبثـت على غصنها فسدت، وأفسدت ما أتى بعدها من ثمار.

كذلـك كل أمر يمكن له أن يُلوى، ويكون وفـق مشيئتك عندما يكـون في مهده، غير أنه عندما يتقدم في العمر، فإنك إن سعيت إلى ليِّـه، كسرتـه، وإلا سـوف تضطر على الانسجام مـع اعوجاجه كضريبـة تدفعها على خطيئتك أوّل الأمر.

كل شـيء يخضع لمرحلة طفولة، لا شيء لا يمهد من طفولة:

كل مراحل الطفولة الحياتية هذه تكون بيديك، تستطيـع أن تلويها وفق ما تأبى في طفولتها، فتلبـث على ما لُوِيَتْ عليه كنقش على حجر، لن تتقوّى نفسك عليك إلا بقدر استجابتك الواهنة لها، ولن تتقوّى عليها إلا بقدر قدرتك على إخضاعها.

الـذي يفشل أن يكون سيـدا على هوى نفسه، لا يحالفه نجاح ليكون سيدا حتى على شعرة من بدنه.

ليست ثمة سيـادة قبل الإمساك بزمام السيادة على هوى النفس.

يلتقـط الفكر الأدبي مواقف قد لاتلفت أنظار الآخرين مثل ديمومة العلاقة بين الماء والشجر، فيقول الماء للحطب:

يا حطب رأفة بي،
لقد سقيتُ بذرتك إلى أن غدت شجراً يافعاً،
لا تردَّ المعروف بمنكر.
يا حطب، لولاي لما زهرتْ عليك زهرة، لما رفرف على غصنك طير،
لما قبّلت جبينك فراشة، لما كنت عريساً في بهاء ربيع،

لما كنت الآن تنهي مهمتك، فتصنع طعاماً للجائعين.

ياحطب رأفة بي، أحرقتني، وأهلكت نفسك في خاتمة حياتك، أهذا هو جزاء المعروف؟!

وعندما يتم استخدام الماء لصنع الطعام بشكل طبيعي يقول الماء للحطب:

لقد أحسنتَ إليَّ في ختام حياتك وحياتي، كما أني أحسنتُ إليك في بدء حياتك وحياتي.

يعيش عالماً حافلاً من التصورات والرؤى، ينفرد مع ذاته، يتعرف إليها أكثر، يحاورها.

إن كنت تحمل إبرة، ليس بالضرورة أن تسعى لترى الحياة من خرمها، إنها بيدك من أجل أن تستخدمها لأمور أكثر نفعاً.

عليك هنا أن تميز بين المعرفة الجادة والنافعة، وبين الوسوسة.

ترى شخصاً أصيب بوسوسة إلقاء الأسئلة على الناس، إنه يتلقى الإجابات عن أسئلته، غير أن ذلك لاينفعه في شيء سواء علم أجوبة تلك الأسئلة أم لم يعلمها.

تراه عندما يلتقي بشخص لأول مرة، يسأله عن عمره، عن مهنته، عن عقيدته، عن عدد أولاده، عن أمواله.

إنه يضع هذا الشخص في حرج من أمره، لأنه يتدخل في أدق تفاصيل حياته، أو أن هذا الشخص يرفض بشكل مباشر الإجابة عن تلك الأسئلة المتطفلة التي لاتعنيه في شيء.

وإن تحدث مع نفسه، أمضى ساعات طويلة في أمور لا جدوى منها.

ترى شخصاً أصيب بحمّى الأسئلة
ترى شخصاً أصيب بحمّى النظر
ترى شخصاً أصيب بحمّى الشم
ترى شخصاً أصيب بحمّى الغريزة
ترى شخصاً أصيب بحمّى الدنيا
ترى شخصاً أصيب بحمّى الآخرة
ترى شخصاً أصيب بحمّى الشرود
ترى شخصاً أصيب بحمّى اللامبالاة.

إنك تأخذ جزءاً من عمارة ما يعنيك، وتدع مالا يعنيك لأنه يلزم شخصاً غيرك، كما أن شخصاً قد ترك جزءاً من تلك العمارة لك.

إن معرفة كل شيء، والإلمام بكل شاردة وواردة، لايعني الإنسان بشيء، وليس من المطلوب من هذا الإنسان أن يعلم ما لايلزمه، بل قد يشتت عليه صفاء فكره.

ثم إنك كائن محكوم عليه بالنسيان والوهن، فما تعرفه الساعة، قد لاتذكره بعد ساعة، ما تملكه الساعة، قد لاتملكه بعد ساعة.

يقدم الأدب أفكاراً نحو تقييم الآخرين التقييم القويم فيقول للشخص الذي يريد

أن يتعرف إلى ذاته على شكل أسئلة على سبيل المثال:

السؤال الأول الذي تطرحه على ذاتك هو: هل أنا محب؟ هل لدي مقدرة على المحبة؟ وهل المحبة تجاه العالم تغلب البغض لدي أم أن البغض تجاه العالم يغلب المحبة؟

ابدأ من ذاتك، **هل تحب ذاتك؟**

ثم انظر إلى تاريخ علاقتك مع ذاتك، هل أحسنت إليها في هذا التاريخ أم أسأت إليها، وهذا الاسم الذي تحمله هل استطعت أن تجعل الناس يذكرونه بسوء، أو يذكرونه بطيب.

انظر إلى مرآة ذاتك، هل أنت محب لذاتك أم مبغض لها، كم مرة أهنت ذاتك وجرحتها فيك وفي الناس، كم مرة وقفت ذليلا في الناس وفيك.

ثم انظر كم من مرة قدمت فيها أعمالاً صالحة فخرت بها فيك وفي الناس، كم من صلح لم يكن ليصلح لولاك، كم من عسر لم يكن لييسر لولا تدخلك، كم من خصمين أصلحت بينهما، كم من سائل أعطيته سؤله.

انظر بعد ذلك إلى علاقاتك بالناس من حولك، وابدأ بالمقرّبين، ثم إلى مَن هم أبعد إلى أن تنتهي بالعالم.

انظر إلى أهلك، إلى أقربائك، إلى جوارك، ثم إلى العالم الكوني من حولك، كم من أفراد العائلة على خصام معك، وأنت على خصام كم فرد منها، ثم إلى أقربائك وجوارك والعالم، هل العالم بنظرك هو عدو لك أم محب لك، ولاتبغض أحداً فيه، هل إذا نُصبت والياً على العالم ستعاملهم جميعا كأسنان المشط وستتجح في النظر إلى أعدائك وكأنهم أولياء، وتحسن أوّل ماتحسن إليهم، أم ستقتلع بعض الأسنان التي تراها غير صالحة لأن يُمَشّط بها.

يمكن لك أن تحصي هذا كله فترى إن كنت شخصاً يحب أكثر مما يبغض أم أنه يبغض أكثر مما يحب.

السؤال الثاني الذي تطرحه على ذاتك هو: هل أنا أمين؟

ثم انظر إلى مواقف الأمانة التي تركتها، كم مرة أديت الأمانة كاملة إلى أهلها، كم مرة خنت الأمانة وألحقت الأذى المادي والمعنوي بمن ائتمنك سواء على نفسه أو ماله أو عرضه.

السؤال الثالث الذي تطرحه على ذاتك هو: هل أنا صادق؟

انظر إلى ذاتك في مرآة ذاتك، هل أنت شخص صادق، أم شخص كاذب، عندما تتحدث هل يغلبك الصدق أم يغلبك الكذب، هل تجد في ذاتك ميلاً إلى الصدق أو ميلاً إلى الكذب، وهل كذبت في تاريخك أكثر مما صدقت، أم أنك صدقت أكثر مما كذبت.

السؤال الرابع الذي تطرحه على ذاتك هو: هل أنا عالم؟

انظر إلى مساحات العفو في عمرك، كم مرة عفوت عمن كانوا يستحقون عقاباً منك، بيد أنك عفوت عنهم، عفوت عن مالك وعرضك وبدنك وسمعتك.

هل كنت في ذاك التاريخ شخصاً يسامح أكثر مما يعاقب، أم يعاقب أكثر مما يسامح.

السؤال الخامس الذي تطرحه على ذاتك هو: **هل أنا منتج؟**

انظر إلى صنعتك في الحياة، هل تتقن صنعتك، هل تقدم شيئاً من خلال صنعتك لنفع الناس، هل أنت شخص نافع في صنعتك تغتنمها في سبيل عون الناس، أم أنك شخص ضار تغتنمها في سبيل الأذى.

يمكن لك أن تحصي هذه المواقف السلبية والإيجابية وتنظر في كفتي الميزان.

من هنا يمكن أن ننظر إلى شيء من التاريخ كي نرى ملامح المعرفة والتسامح في بعض مفاصل ذاك التاريخ، وقد استطاع الأدب أن يستند في أجزاء منه على مشاعل ذاك التاريخ، وهنا بودي أن أقول أن الأدب لايستطيع أن ينفصل زمنياً عن أي تاريخ بشري، حيث أنه يعمل ضمن المنظومة الزمنية المشرعة.

لقد تعدد الخطاب الأدبي واغتنى بما يمكن للإنسان أن يقدمه من تجارب وخبرات إنسانية.

يمكننا الوقوف أمام أشخاص نادوا بفكرة السلام، والتحاور بين الأفكار والمذاهب والديانات، والمعتقدات في التراث العربي، إنهم أناس أجلاء نحتاج إليهم في كل الأوقات.

وحقيقة الأمر فإن الوقوف مع أفكار أخوان الصفا وخلان الوفا يحتاج إليه الناس جميعاً وفي مختلف الأوقات وعلى خلاف معتقداتهم ولغاتهم.

ومجرد الاسم يشير إلى مساحة التلاقي والتسامح والأخوّة بين أهل الأرض.

نادى أخوان الصفا في مجمل كتاباتهم ودعواتهم إلى روح التسامح بين أهل العقائد والأفكار، وقد عرفت المكتبات في العالم هذه الرسائل النفيسة واحتفظت بها، وترجمتها إلى غالبية لغات العالم لأنها في حقيقة الأمر رسائل موجهة إلى أبناء العالم.

نقف بعض الشيء مع أفكار أخوان الصفا وخلان الوفا التي تعد من الدعوات المستيرة التي تشير إلى مدى الانفتاح على ثقافات وعلوم الدنيا، وتدعو إلى التحاور بين أبناء الحضارات على مر الزمن، وأن تغتني كل حضارة بالأخرى.

ليس بمقدورنا إلى الآن التعرف على جميع الأخوان بشكل صحيح، وليس بمقدورنا أن نحدد الزمان الذي كتبت

فيه رسائلهم التي تعد ثروة فكرية وثقافية ومعرفية، فهي لاتقل أهمية عن فلسفة ابن رشد.

أظن أن الخلاف حول معرفة هؤلاء نشب عندما كثر ذكرهم وحققوا نجاحا وشهرة، ولو تحدث مؤرخ واحد عن حقيقتهم بشكل واضح لما كان كل هذا الخلاف الذي سيحتدم حول انتمائهم المذهبي داخل الجماعة الإسلامية. وربما قصدوا أن تشتهر رسائلهم وعلومهم أكثر من شهرة أسمائهم وشخصياتهم، فنحن نقرأ هذه الرسائل من دون أن نتمكن من الاحتفاء بأسماء كانت خلف هذه الرسائل.

يقول أبو حيان التوحيدي إن الوزير أبو عبد الله السعدان (ت ٣٧٥هـ) استخدم بعض العلماء وجمع كل أقوالهم وأحكامهم لتشكل في مجملها هذه الرسائل، وهم حسب التوحيدي:

ابن حجاج الشارع، أبو الوفاء البوزجاني، ابن زراعة، أبي القاسم الأهوازي، شوخ شيعي، ابن عبيد الكاتب، أبو سعيد عبرام.

أما ابن القفطي فيذكرهم في كتابه «أخبار الحكماء» ويقول بأنهم: أبو أحمد المهرجاني، وأبو سليمان محمد بن معشر البسطي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني.

ثم تتعدد المصادر التي تدور حول شخصيات الأخوان ومحاولة التعرف إليهم ففي كتابه «نزهة الأرواح» يذكرهم الشهرزوري ويشير إلى مؤلفي الرسائل الذين ورد ذكرهم عند التوحيدي وابن القفطي: أبو سليمان محمد بن مسعود البسطي المشهور بالمقدسي، وأبو أحمد النهرجوري، وعوفي البصري، وأبو الحسن علي بن هارون الصابي، وزيد بن الرفاعي.

على العموم كثيرة هي التركات الثقافية والإبداعية العظمى التي خلدت من دون ذكر مَن أبدعها، فهي تنسب إلى أشخاص مجهولين، ما هو هام هنا هو بقاء هذه الرسائل لتشكل خزانة فكرية تعطي صورة طيبة عن منهج التفكير في مجتمعاتنا.

يقيّمون أنفسهم بشكل موجز على النحو التالي: «اعلم أيها الأخ البار الرحيم، إنا نحن جماعة أخوان الصفاء أصفياء وأصدقاء كرام كنا نياما في كهف أبينا آدم مدة من الزمان تتقلب بنا تصاريف الزمان ونوائب الحدثان، حتى جاء وقت الميعاد بعد تفرق في البلاد في مملكة الناموس الأكبر وشاهدنا مملكتنا الروحية المرتفعة في الهواء».

إنهم يدعون إلى إحلال نظام فلسفي يكون المسير للحياة كما يقول د.طه حسين في مقدمة الرسائل. وفي تعريفه يقول بابيز: «هي محاولة لردم الفجوة بين تيارين في التفكير فهي من جهة مشربة بالعقائد

الشيعية، وخاصة الإسماعيلية، ومن جهة أخرى تتبع عن كثب أو تنتحل بالأخرى نظرية الفارابي السياسية، إن أجمل ما في أخوان الصفاء عدم تشددهم وعدم التمييز وعدم العنصرية فروح الإنسان مقدسة سواء كانت في المسيحي أو المسلم، في الأبيض أو الأسود».

وليس هناك التعصب، فكل الأديان والمذاهب تحمل روح الله، ويعتمدون في مصادرهم على: «أن علومنا مأخوذة من أربعة كتب، أحدها الكتب المصنفة على ألسنة الحكماء والفلاسفة من الرياضيات والطبيعيات، والآخر من الكتب المنزلة التي جاء بها الأنبياء صلوات الله عليهم مثل التوراة والإنجيل والفرقان وغيرها من صحف الأنبياء المأخوذة معانيها بالوحي من الملائكة، وما فيها من الأسرار الخفية، والثالث الكتب الطبيعية وهي صورة أشكال الموجودات مما هي عليه الآن من تركيب الأفلاك وأقسام البروج وحركات الكواكب ومقادير أجرامها وتصاريف الزمان، واستحالة الأركان وفنون الكائنات من المعادن والحيوان والنبات وأصناف المصنوعات على أيدي البشر، والنوع الرابع الكتب الإلهية التي لا يمسها إلا المطهرون، الملائكة التي هي بأيدي سفرة كرام بررة وهي جواهر النفوس وأجناسها».

بطبيعة الحال فإن أخوان الصفا سعوا إلى نشر أفكارهم أكثر مما سعو إلى نشر أسمائهم، لأن أفكارهم تحمل أرواحهم أكثر مما تفعل الأسماء.

أما رسائلهم فقد بلغت نحو اثنين وخمسين رسالة تشبه دائرة معارف عصرهم وهي موسوعة علمية ثمينة وقراءتها تشكل متعة حقيقية كبيرة، كما تقدم شيئاً من الأفكار التي يمكن اعتبارها ناضجة، إضافة إلى أننا نتعرف على دعوات انفتاحية، أو لنقل /عولمية/ حقيقية تحافظ على تراث وتقاليد ومعتقدات وخصائص الناس بأطيافهم كافة.

إشادة عمارة المجتمع أدبياً

لقد توسع الأدب في الدعوة إلى روح التماسك الاجتماعي، وتعزيز قيم المحبة والتآلف بين الناس، وبيّن بأن لامستقبل للإنسان أفضل وأجدى من مستقبل المحبة والتسامح، ولاشيء يمكنه أن يعزز الفضائل في الناس قدر الأدب الذي يتمكن بشكل بالغ الفعالية في ترك آثاره الإيجابية على تهذيب النفوس.

عُني الأدب بأهمية تماسك العائلة في المجتمع، ونظر بكثير من الشرح والتفسير إلى سيكولوجية العلاقة الزوجية التي يتأسس عليها البيت الإنساني الجديد.

ينبه الأدب إلى أهمية دور المرأة، كم

أن للمـرأة دوراً عظيمـاً في حيـاة الرجل، وفي عمارة الحيـاة، كم أنَّ المرأة كائن عذب ومعطاء من دون حدود.

كـم أنَّ الرجل ليس بوسعه أن يفي المرأة حقها مهما قـدّم لها إنَّها المـرأة الصالحة التـي هي من النعم الكـبرى، وماذا سيفعل أمام كل تلك العطاءات السخية

غير أن تزداد تسامحا مع الناس،

غير أن تزداد صدقا،

غير أن تزداد محبة،

غير أن تزداد عطاء.

مؤسسـة الشراكة في بناء بيت اجتماعي جديد بين الرجل والمرأة هي تنظيم للعلاقات الإنسانيـة والاجتماعيـة، وتنظيم لجمالية وإنسانية العلاقة بين الرجل والمرأة، فالرجل عندمـا يتقدم خاطبا امـرأة، فإنه يكرمها، والمرأة عندمـا توافق على الزواج من رجل، فإنها تكرمه.

تقف المـرأة دعامة أساسيـة في ترسيخ أواصـر العلاقات الاجتماعيـة والإنسانية، وهـي التـي تشـارك في ولادة الأسـرة، والعائلة.

يستمد البيت الزوجي القويم قوامه من قوة المصارحة بـين الأبوين، هذه المصارحة التي تزيد ثقة أحدهما بالآخر، وتزيد ثقة كل واحـد بنفسه، فيكون كل واحد قوة للشريك الآخر. إنَّ السعـادة تكمن هنا في مقدار ما يتمتع به الزوجان من الثقة والمصارحة وقوة الحقيقة.

فالرجل لايكـون كائنا اجتماعيا معترفا به بشكل اجتماعي رسمي من دون أن يكون مقترنا بزوجة، هذا البيت الذي يرسخ أقدام سكانه في عمق الأسـرة والمجتمع من خلال الإنجاب وولادة صلات القربى الجديدة.

وهـذا لايعني أنَّ الرجـل يحظى بالمرأة الصالحـة فور زواجه منهـا، فهي قد تكون صالحـة إلا أنَّ الظـروف التي نمت فيها لم تمكنهـا من إظهار ماهـي عليه من صلاح، أو أنَّهـا لاتجد الشخص الـذي يقدر فيها صلاحها، فتسعى كي تعيش حالة من تناقض في موضع غير سوي، أو بيت غير سوي.

السعادة الزوجية هي المرتكز الأول نحو فتـح آفاق حياتية جديدة بالنسبة للزوجين، فعندمـا يكون المـرء مستقراً وسعيـداً، أو على الأقل عندما لايكـون تعيساً في حياته الزوجيـة، فإنه ينظر إلى التقـدم والتطور والازدهار.

إنَّ عدم الاستقـرار الزوجي يكون على الأغلب خلف الفشل الذريع الذي يصيب أي بيـت زوجي في العـالم، والاستقرار الزوجي يكون الدافع شطر تحقيق المزيد من التفوق والنجاح على الصعد كافة.

لذلـك فإن النجاح الزوجي على الأغلب ينطلق من قاعدة الشعـور بالمسؤولية الذي

يحفظ للناس حقوقهم، ويمنعهم من التجاوز على حقوق بعضهم البعض، وأخطر هذه الحقوق والحدود، هي الحقوق والحدود الزوجية، فالمرأة تحقق سعادة لنفسها ولزوجها وتكون قدوة للزوجة الصالحة الناجحة السعيدة.

وكذلك فإنَّ الرجل يحقق نجاحاً لنفسه ولزوجته ولأسرته، ويكون قدوة للزوج الناجح المستقر في عشه الزوجي.

إنَّ العش الزوجي الآمن والهادئ والمستقر دوماً يكون دافعاً نحو التألق والطموح والعمل والعطاء، والزوج المستقر يخرج من عشه الزوجي صباحاً وعليه إشراقة الهناء الزوجي، يقبل على عمله بجد وإخلاص وعطاء.

الاستقرار العائلي هو حالة متقدمة من الرضى بين الأبوين، فعندما لاتكون الأم راضية عن زوجها، فإنها لاتستطيع أن تكون سعيدة بأي حال، وكذلك الأمر بالنسبة للرجل.

السعادة الزوجية هي سعادة مشتركة ليس بوسعها أن تنفصل عن بعضها، أي ليس بوسع طرف أن يكون سعيداً، ويكون الطرف الآخر تعيساً.

إنَّ الرجل يبدو سيداً، ورجلاً حقيقياً في نظر المرأة كلما أحست هذه المرأة بسعة أفقه، وأنها تتعلم من هدوئه، وتسامحه، وعفته، ونضجه، ومنحها الفرصة تلو الأخرى حتى تتدرج على إيقاعات الحياة الزوجية، إنَّه هنا يصبح عالماً كاملاً بالنسبة إليها.

أمام هذه العلاقات الزوجية المتوترة التي أراها، وأسمع بها، وخاصة في بداية الحياة الزوجية، أريد أن أقول بأنَّ الزوج قبل أن يمد يده ليد أي امرأة لتصبح شريكة حياته، عليه أن يكتسب ثقافة جيدة في التعامل مع هذه المرأة التي سوف تصبح زوجته، وهو أيضا عليه أن يتغلب على حالة العزوبية التي كان يعيشها طوال الفترة السابقة من عمره، كما أنه يطالبها بهذا التغيير حتى يكون الانتقال البطيء متوازيا، وليس بالضرورة أن تعلم كل شاردة وواردة عن زوجتك، أن ترى كل عيوبها ونواقصها، ثم تطالبها بما لاتستطيع أنت ذاتك عليه، تطالبها بأن تكون من دون نقص، وكأنها ملاك مددت يدك إليها كي تعيش معك على الأرض، إنها ابنة الأرض وبها كمال، كما بها نقص، بها ذكاء، كما أن بها غباء، بها علم، كما أن بها جهل، ثم هي تكون مَدينة لك على قدر شعورها بأنها تتعلم منك، ولاتكون مَدينة لك قدر شعورها أنها لاتتعلم شيئا منك، عندما تعجز أن تكون معلماً جيداً لها، تعجز أن تقنعها بأنك زوج جيد لها.

ليس أمامك، إن أردت أن تعبر بالأفعال عن شكرك، غير أن تكون نافعاً للناس،

وبمقدار ما تقدم من نفع للناس، فإنك تعبر عن مساحة شكرك لهم.

كيف لشخص أن يقبل العيش في الحياة متطفلاً على الآخرين، ليس من شخص لا يكون بوسعه أن يقدّم نفعاً في يوم، إنّه يحاول أن يعبر عن امتنانه ولو ببسمة، بإماطة أذى عن طريق، بسقاية نبات، بمداعبة حيوان أليف، بقول كلمة حق، وإن عجز فيكفيه أن يتخيل تقديم خير، ينظر إلى أنه سوف يقدم خيراً لدى أوّل مقدرة.

أمّا ذاك الذي لا يقدم على فعل الخير، ولا يتخيلـه، ولا ينظر أنه سوف يفعله، فهو الذي يحرم نفسه فضيلة الخير، وذاك أشد عقاب يقدّمه امرؤ لنفسه.

ليس بوسع الإنسان أن يفعل شيئاً من دون أن ينير الحب دروب أقدامه ودروب فؤاده، لن يكون الإنسان قوياً إلا إذا أشرق بنور المحبة، ونور الأخوة الإنسانية، ليس بوسعه أن يسترد قوته التي خسرها إلا عندما تكون طاقة التسامح في نفسه أعلى من طاقة العقاب، عندما يحب بعضه البعض ويحب الآخرين كحبه لبعضه البعض لن يكون بوسع الإنسان أن يكون قوة عظمى في الأرض إلا إذا كان قبل ذلك محبة عظمى في الأرض.

الإنسان يحقق شعائر إنسانيته قدر تفاعله مع أفراح وأحزان الناس من حوله، ويكون مقصّراً في تحقيق شعائر إنسانيته كلما جعل نفسه وأهله في قطيعة وعزلة عن إخوانه هؤلاء، لايفرح لفرحهم ولايحزن لحزنهم، أو يفرح لحزنهم ويحزن لفرحهم، ويسعى إلى قطع كل صلة بهم، فلا سلام، ولا حديث، ولا صداقة، ولاشراكة عمل، ولازيارات، ولاشراء متاع منهم، أو بيع متاع إليهم.

جاءت الإنسانية لتفتح كل أبواب المحبة التي كانت مغلقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وتغلق كل أبواب البغضاء التي كانت مشرعة بين الإنسان وأخيه الإنسان، ولتقول للناس أجمعين بأن الأرض هي بيت الإنسانية كلها في عائلة بشرية متحابة، وليست العبادات وحدها هي التي تحبب الناس إلى الله، بل المحبة والتسامح والسخاء.

ليس للإنسان غير نزع الحقد من داخله حتى يستطيع أن يعيش حالة توازن وازدهار في مجتمعه، إنّ راية المحبة فيما بين الناس تعلو كل الرايات، هذه الراية التي تجعل كلّ فرد من أبناء هذا المجتمع مهما كان لونه أو لسانه أو معتقده يشعر بحالة عائلية كبرى نحو المجتمع الكبير الذي ينتمي إليه.

لقد تعرض الأدب لبنية المجتمع وسلط مشكلاته على سيكولوجية المجتمع بحيث

تمكّن من تقديم الخبرة والتجارب الإنسانية حتى تبقى كنزاً للمجتمع الإنساني. من هنا كان دور الأدب هاماً، وكان الأديب يتحمّل مسؤولياته الجسيمة تجاه المجتمع الذي ينتمي إليه ويعيش فيه، هذه المسؤولية التي جعلته يقبل على إبداع هذه اللآلئ الثمينة ويقدمها هدية للناس.

كلمة الختام

مملكة الكلمات السحرية تحط في هذا البيت المغلق، دخان السجائر، فناجين القهوة، كاسات الشاي، والموسيقى تنبعث بخفوت تسبح في الأجواء على إيقاعات الكتابة.

هاهي السعادة تأتي مرة أخرى لتسبب شيئاً من الإنعاش للروح الحزينة تفتح أمام الجراح أبواباً سحرية، أبواقاً أكثر قوة، وهاهنا أعترف بجبروت الكتابة، وإنها الوحيدة التي تضمد جراح الإنسان الداخلية، إنها مملكة الخلاص التي تضمد جراح الإنسان الهارب من الانهيارات وأظن أنّ جرس الهاتف بدأ يرن، وأنا مدمن على الكلمات أغرق في هذا الانغلاق التام، مازال الهاتف يرن سيهتف صوت، وتتسرب نبرات خافتة من السماعة لتعلن رغبتها الفورانية للدخول في تفاصيل هذه الأجواء النابضة.

في هذا العالم المغلق، تتفتح شهيتي للحياة وأشعر بقوة الكائن البشري، أشعر بضعفه كذلك، وفي هذا الوقت يمكن لحيوان صغير بحجم الإصبع أن يسحقه!، أشعر بتناقضات تلتف حول الدخان الذي يختنق في الجو المحكم، الكتابة تحقق لي البهجة، أؤمن أن على الإنسان أن ينفتح على الحياة كما تتفتح الزهور في الحدائق الكبرى، لم يكن بوسعي أن أقف في مكان ما وأوجه أمراً لأحد حتى يمتثله سواء كان هذا شخصاً في الواقع أو في الفن.

إنها قوة الكتابة التي تؤرخ الإنسان، تؤرخ مجده وتؤرخ إخفاقه، وهي الدليل على هذا المجد وعلى هذا الإخفاق وهي محاولة من الإنسان لإطلاق صيحة مدوية خالدة لا تنطفئ في عالم مجهول أتى إليه ويريد أن يتفهمه ويعيه ويترك فيه شيئاً يدل عليه وعلى ما توصل إليه من أفكار عن هذا العالم وهي كذلك صيحة من ضمير الإنسان في وجه الشر العام، هذا الإنسان الذي يرتعب من المجهول ودوماً يخشى مما هو أكثر منه قوة على الرغم من جهله إمكانات مجهولة وخافية لديه، وثقته بهذه الإمكانات الخارقة في نفسه. حتى الآن لم يجد وسيلة أجدى من الكتابة تلخص وتقدم هلوساته وتصوراته وأفكاره عن العالم وكذلك تسجل نقاط ضعفه ونقاط قوته ومشاعره وموسيقاه الداخلية.

المراجع

١- فون دير لاين فريدرش - الحكاية الخرافية- ترجمة نبيلة إبراهيم دار القلم- بيروت ١٩٧٣م.
٢- نبيلة إبراهيم - أشكال التعبير في الأدب الشعبي- ط٣ دار المعارف-القاهرة.
٣- قصة الإنسان -كارلتون كوون- ترجمة محمد توفيق حسين، وعبد المطلب الأمين- بغداد ١٩٦٥م.
٤- عودة إلى خطاب الحكاية - جيرار جنيت- ترجمة محمد معتصم ط١- المركز الثقافي العربي- بيروت٢٠٠٠م.
٥- الخطاب الروائي- ميخائيل باختين- ترجمة محمد برادة ط٢- دار الأمان- الرباط ١٩٨٧م.

الثقافة العربية بين الروتين الحكومي وضعف الإسهام الأهلي!

د. خير الدين عبد الرحمن ●

بعد انكفاء ادعاءات بتحقيق نهضة حضارية كبرى في هذا القطر العربي أو ذاك، والتباهي الكاذب بإنجاز معجزات تنموية، ومزاعم الإعلام النفاقي حول تحقيق انتصارات مبهرة غير مسبوقة في شتى المجالات.. باتت الوقائع حقائق صارخة أمام الأمة، وأبرز عناوينها تفاقم مستوى الأمية، وتدهور مستوى التعليم، وهجرة مروعة للعقول في هروب جماعي من معظم أنحاء الوطن العربي، وتراجع إنتاج الكتب وندرة قراءتها، وقحط مهين في البحث العلمي الجاد والإبداع، وامتهان للغة العربية في مجالات علمية وتعليمية وإعلامية، وضمور هائل في الاهتمام بالشأن العام والمصير الجمعي، وانزواء مكانة العلم والثقافة في سلم القيم السائد لصالح سيادة المال الذي كاد يصبح معبوداً، وانتشار متزايد للفقر والبطالة والقمع في ظل طغيان رأسمالية متوحشة شرهة قصيرة النظر، وبؤس التخطيط واضطراب الأهداف، وفوضى الأولويات.

وتكريس وباء الأنانية القطرية والمناطقية الضيقة والعصبيات الطائفية والعرقية والمذهبية والقبلية والفردية المتخلفة بديلاً للالتزام القومي ووحدة العرب بشراً ووطناً وقيماً ومصيراً، وانتشار طاغ للإحباط نتيجة صراعات بينية عربية- عربية عبثية بموازاة استسلام أكثر أطراف النظام العربي الرسمي المهين علناً أو سراً لكيان الغزو الصهيوني مغتصب فلسطين، ونحر الأمن القومي العربي الموحد ومعاهدة الدفاع العربي المشترك واستبدالهما باستجداء

● أديب ومترجم وسفير سابق.

وقع لغزو واحتلال جيوش أجنبية وتجديد إقامة قواعد عسكرية ومخابراتية أمريكية وبريطانية وفرنسية في أكثر دول العرب! أي فرصة لادعاء انتماء إلى العصر وتفاعل مع الثورة المعرفية العالمية في ظل أوضاع مريضة كهذه، أجهضت فيها عمليات التغيير المأمول باستسهال تغيير فوضوي أو انقلابي أو مزاجي أو شعاراتي ينتهي إلى خدمة فرد أو حفنة من أفراد لا خدمة الأمة والمجتمع؟

مرت ثلاثون سنة تقريباً منذ لخص عادل حمودة أزمة الثقافة والمثقفين في مصر، وفي أقطار عربية أخرى، قائلاً في ختام كتابه أزمة المثقفين وثورة يوليو (مكتبة مدبولي، ١٩٨٥م ص٢٦٦):

«..بعد أن كانت أزمة المثقف في الخمسينات والستينات هي الديمقراطية، أصبحت في الثمانينات أزمة الديمقراطية والخبز أيضاً.. بعد أن كان الخبز بدلاً من الحرية، لم يعد هناك لا خبز ولا حرية، أي أن أزمة المثقف مع السلطة اتسعت لتصبح مع السلطة ومع المجتمع كله..».

تفاقمت أزمة الثقافة العربية سنة بعد أخرى في أغلب عناصر الواقع المعرفي العربي آنذاك ومظاهره، واضطربت شروط التواصل المعرفي المنتج العابر للعالم العربي من ناحية، والتواصل المعرفي العربي مع الخارج من ناحية أخرى.

فبدلاً من تفاعل نشط متوازن يعزز الأداء المعرفي العربي ويطوره، بحيث يتم توظيف المعرفة في خدمة عملية التنمية العربية الشاملة: الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ومن أجل تعزيز الوسائل التمكينية للبناء المعرفي.

وجدنا الإيغال في الاستلاب والتبعية وتدني موقع الثقافة والعلم في سلم التقييم المجتمعي، واستمرار الأساليب الإعلامية الغوغائية التي يخاطب أصحابها أنفسهم عبرها من دون سواهم.

بينما يدرك كل من يحترم نفسه أنه لم يعد في الأمة من يصدق مزاعم الإنجازات الوهمية أو المظهرية والخطاب الدعائي النفاقي الممجوج الذي اعتاد أن يقلب الهزائم انتصارات، والانهيار تقدماً، والخنوع حكمة، والاستسلام سلاماً، والتفريط بالوطن وبحقوق الأمة واقعية سياسية، واستعباد المواطنين ومصادرة إرادتهم ديمقراطية.

صور وردية قد يصدقها بعض راسميها لكثرة ما يرددون مزاعمها، فيخدعون أنفسهم، لكنها لم تعد تخدع الناس. لم يعد ثمة سبيل لإخفاء واقع الأمية والفقر والبطالة وضغوط الاحتلال والعدوان الخارجي والأزمات الداخلية وامتهان الحريات وسلب كرامة المواطن وحقوقه والتخلف النوعي في العملية التعليمية العربية وتخلفها كمياً عن مجاراة النمو السكاني، مما يعرقل

عملية التنمية الشاملة، وضآلة رأس المال المعرفي والاستهتار بحقوق الملكية الفكرية والإبداعية، وندرة البحث العلمي الجاد وشح الإنفاق عليه، وتفاقم النزوح الجمعي للعقول والخبرات العربية، مما يفسر واقع جدب الإنتاج الإبداعي العربي وتدني مستواه.

إن معدل نصيب الفرد العربي سنوياً من الإنفاق على البحث العلمي مثلاً هو عشرة دولارات، ونصيب الفرد العربي من الكتب يقل عن أربعة في المئة من نصيب الفرد البريطاني، مع الفارق في مستوى الكتب ومضمونها هنا وهناك.

في المقابل نأخذ مثلاً أسعار مقابلات تلفزيونية لممثلين وممثلات ومغنين مدعين ومغنيات كما نشرتها عدة وسائط إعلامية قبل سنوات: مبلغ مئة وخمسين ألف جنيه مصري مثلاً هو تسعيرة ظهور عادل إمام في برنامج لا تتجاوز مدته ساعة ونصف يبث لمرة واحدة، يضاف إليه ٥٪ من قيمة الإعلانات التي تظهر في البرنامج.. ومبلغ ثمانين ألف جنيه مصري هو تسعيرة ظهور مصطفى قمر أو إيهاب توفيق في حلقة واحدة من برنامج تلفزيوني..

نتحاشى هنا الاقتراب من أجور المقابلات التلفزيونية لممثلات ومغنيات تعلو أسهمهن موسمياً مقابل إيغال في التعري أو زيادة غنج وضحكات وإجابات بليدة سخيفة على أسئلة سطحية مكررة أكثرها تافه.

في المقابل، يجوع كثير من المفكرين والباحثين والعلماء جوعاً حقيقياً لا مجازياً في كثير من الأقطار العربية، فيضطر القادرون منهم للهرب إلى الخارج، ما لم يغتلهم رصاص الموساد، أو تخطفهم مافيا أمريكية أو أوروبية رسمية أو مخصخصة!

إن مسائل حماية الأمة وقيمها واحترام الانتماء إليها، واحترام كرامة المواطن وكرامة الأمة في آن معاً، وتربية المجتمع على أساس أن حرية الفرد وحرية الوطن متكاملتان، وهما حق لا منحة أو عطاء من سلطة خارجية أو محلية، وبالتالي فإن حرية التفكير والتعبير والرأي والبحث شرط لا تقوم معرفة من دونه، والمعرفة بدورها حق إنساني طبيعي للمواطن وليست تفضلاً عليه، ناهيك عن إلحاح إعادة الاعتبار للغة العربية وإصلاح المؤسسات والمناهج التعليمية بكل مستوياتها وفق فلسفة تعليم عربية، لا وفق شتات متنافر من فلسفة تعليم أوروبية أو أمريكية.

أي بعبارة أخرى ربط البناء المعرفي ببيئته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والاقتصادية وبجوهر الذات الحضارية للأمة شروط لا غنى عنها لبناء وتعزيز وحماية وتصويب القاعدة المعرفية العربية.

العلاقة وثيقة لا تنفصم بين المعرفة والحرية والتنمية، فلا قيام لضلع من أضلاع هذا المثلث من دون الضلعين الآخرين.

ولئن تضمنت المعرفة مجمل المخزون الثقافي والعلمي والحضاري للأمة فإن دورها في التنمية الشاملة والتقدم رهن بقدرتها على تحقيق غايتها الطبيعية، أي توسيع خيارات المواطن والمجتمع وتعزيز تقدمهما، وهذا بدوره لا يتم من دون إطلاق حركة الإبداع العربية الشاملة المتكاملة من ناحية والتفاعل الإيجابي المتوازن مع الحركة المعرفية العالمية من ناحية ثانية. وهذه ليست مسؤولية السياسة والحكومات فقط، بل هي مسؤولية المجتمع أيضاً، مسؤولية الأمة بأسرها.

لقد كثر الحديث في السنوات الأخيرة عن العلاقة والمسؤولية المتبادلة بين أطراف ثالوث الثقافة والمجتمع والسلطة، ورأى بعضنا أن من أبرز أسباب الفشل العربي في التحرير والنهوض والتحديث، وتفاقم الردة والنكوص، وطغيان الأمني على السياسي، بعدما طغى السياسي على الثقافي والتهمه أو طوّعه، فتوالت تشوهات بنيوية وفكرية أدت إلى انشطارات مذهبية وطائفية وعرقية وفئوية ومصالحية في أقطار عربية عديدة، حتى كاد كل فرد ينعزل بذاته.

واستشرى التنكر للوعي المجتمعي والارتداد عن المشروع القومي والوطني، والتنكر للانتماء، والنكوص عن قضية التحرير والتصدي استسلاماً للغزوة الصهيونية، بل واعتبار العدو الغازي صديقاً وحليفاً، واعتبار الشقيق عدواً، واعتبار الشعب قطيع عبيد في مزرعة هي الوطن.

من هنا تتضح أهمية استعادة هيئات المجتمع الأهلي والنقابات والتنظيمات الشعبية زمام المبادرة من البوابة الثقافية أساساً، سعياً إلى التغيير المطلوب والنهوض المأمول.

ولعلّ في هامش المرونة الطبيعي واتساع مجال المبادرة لدى الهيئات الأهلية ما يزيد من فعالية جهودها وفرص نجاحها في تسهيل النهوض الثقافي وتحصينه.

تحضرنا هنا حالتان لكل منهما مغزاها العميق حول مرونة وفعالية الإسهام الأهلي في التنمية الثقافية.

الحالة الأولى: لدار نشر أمريكية أنشأها متمولون ذوو تفكير ثوري، تشترط لقبول النظر في نشر أي كتاب أن تكون مخطوطته مشفوعة بمستند يثبت أن دار نشر أخرى قد سبق لها أن رفضت تلك المخطوطة، أي إن دار النشر هذه لا تنشر سوى ما تعتمده من أعمال سبق لدور نشر أخرى رفضها.

لقد حققت عشرات الكتب التي أصدرتها تلك الدار انتشاراً باهراً. أمّا الحالة الثانية فهي لصالة عرض باريسية كبيرة للفنون التشكيلية خصصت ممراً جانبياً حصراً

لعرض ما سبق لها أن رفضت عرضه في قاعاتها الرئيسة من لوحات. أطلق على ذلك الممر الجانبي اسم صالون المرفوضين، أو صالون المستبعدين. وقد خرجت حركة فنية غزت العالم بأسره من ذلك الممر الجانبي، هي الحركة الانطباعية. مثلاً، كانت لوحة (جالسة على العشب) لإدوار مانيه، مؤسس الحركة الانطباعية تلك، التي نالت شهرة عالمية واسعة، من اللوحات التي رفضها ذلك الصالون الباريسي فعرضت في ممر المرفوضين الجانبي ذاك.

إن مثل هذا التعامل المرن والمنفتح متوقع من هيئات أهلية لا يقيدها الروتين، خلافاً للنشاط الحكومي المحكوم بالتعليمات البيروقراطية واللوائح المالية الجامدة. هذه من ميزات النشاط الأهلي الثقافي.

• • •

أي سبيل لنا للتعامل مع وطأة الواقع الذي يتزايد ثقله بما يضمن حقنا وتقدمنا؟

تظل الثقافة هي ما يبقى في كل مجتمع، بعد زوال كل شيء: الدول والحكام والمؤسسات والقمع والقسر والغطرسة وأوهام التفوق الفطري والتمايز الأبدي.

وإذ يزداد الواقع الذي نعيشه تعقيداً في عالم يدفع إلى دمج الإنسان سريعا بالكمبيوتر ويكرس تحول العلم إلى ثقافة، وتحول الثقافة إلى علم،ويستخدم العلم للتلاعب بمصائر الأمم والمجتمعات.

تتجلى أهمية صلابة تمسكنا الجاد بإنسانيتنا من خلال رفض الاستسلام لعبادة التكنولوجيا التي تستشري وتنتشر سريعا على امتداد عالمنا، متواكبة مع عبادة الشهوات والقوة ونماذج مستنسخة للعجل الذهبي. يزيد من خطورة ما نواجه من تحديات ولوغ سدنة عبادة التكنولوجيا في شطط يلوث العلم، على نحو جعل عالم الذكاء المصنع ميرفين مينسكي مثلاً يقول: «ستنمو عقول السيليكون، نتاج الذكاء المصنع، إلى درجة نصبح معها نحن البشر محظوظين لو قبل أصحاب العقول السليكونية أن يحتفظوا بنا كحيوانات أليفة»!

(Postman,Neil:Technology-TheSurrender of Culture to Technology, Vintage Books,USA,1992,P111).

تشابكت تأثيرات عاصفة لجائحة العولمة التي باتت -إلى حد بعيد- قناعاً لمشروع إمبراطوري استهدف أمركة العالم، وفرض البعد الواحد في القيم والثقافة والولاء والمآل، مع تأثيرات طاغية متعاظمة لتغييرات نمطية سلوكية وفكرية وإنتاجية واستهلاكية يفرضها تطور تقني هائل شامل، ولدت فيض دفق معلوماتي غير مسبوق ووسائط تواصل واتصال لم تقتصر على ربط محكم يلغي عقبة المسافات بين شتى أنحاء العالم، جاعلاً للزمن معنىً آخر مختلفاً، وإنما تجاوز هذا الربط كوكبنا إلى العديد من الكواكب

الأخرى، بحيث تتجه الحياة الإنسانية نحو انطلاقة غير مسبوقة للتعامل مع آفاق لا محدودة عبر الفضاء.

تشعر كل المجتمعات الحية، وخاصة أصحاب العقول النيرة والنفوس العالية والضمائر الواعية فيها، بخطورة التحدي المصيري الذي تواجهه الإنسانية اليوم. عندما كتب جان دو بيلو، مدير تحرير صحيفة لوفيجارو الفرنسية، ملخصاً آراء نشرتها صحيفته في سياق استشراف المستقبل بقوله: «فرنسا ٢٠٠٤م هي أمة في شك»، ملتقياً مع حسرة أستاذة الفلسفة شانتال دلسول في تساؤلها الذي نشرته صحيفة الفارديان البريطانية في آب ٢٠٠٤م: «كيف أصبحت هذه الأمة الرائعة قوة متواضعة بلا روح، مديونة، مغلقة في إجحافها؟ اليوم لكي تكون فرنسياً يعني أن تتندر على الماضي ساخراً منه»!

وهكذا فالتهديد ليس موجهاً للتاريخ والانتماء والقيم فحسب، وإنما لمعظم الأدوات المعرفية، وخاصة اللغة.

فلنتأمل قولاً لعالم اللسانيات الأستاذ في معهد فرنسا كلود حجاج: «إن انحدار اللغة الفرنسية لا ينفصل عن انحدار الدولة الفرنسية.». هذا هو حال دولة مثل فرنسا، باتت تخشى من انحدارها نتيجة انحدار لغتها وتراجعها، لا كلغة عالمية فحسب، وإنما في حدود فرنسا ذاتها التي تغزو اللغة الإنكليزية الإعلانات والبرامج الإعلامية والمعاملات التجارية فيها على نحو متزايد، بعدما كان استخدام الإنكليزية في فرنسا أقرب إلى المحرمات قبل نحو نصف قرن، حين كانت إمبراطورية تنافس بريطانيا وتتقاسم معها معظم كوكب الأرض، متباهية بأنها بلد النور والحضارة ومنارة العلم والثقافة في العالم.

إن حال عالمنا العربي المستباح من الخارج ومن الداخل أشد بؤساً وأكثر مدعاة للقلق بكثير. لقد تهاوت ادعاءات كاذبة ملأ ضجيجها آفاق قارتنا العربية عقوداً، زاعمة إنجاز الخوارق والمعجزات الحضارية والتنموية في المزق الكيانية التي افتعلها الغزاة البريطانيون والفرنسيون دولاً في وطننا العربي.

بدأ وعي العامة على امتداد القارة العربية المستباحة المثخنة بالجراح يستيقظ من خدر الأوهام الكاذبة والمزاعم الساقطة على شظف العيش واستشراء الوهن واستعصاء الأمراض المجتمعية وتعطيل الفرص بتقييد حرية التعبير ومحاصرة تداول المعلومات والمعارف وتعطيل حركة البحث والإبداع والابتكار وامتهان المواطنة والكرامة وتغليب الولاء الشخصي والمحسوبية والانتماءات الضيقة على الكفاءة والولاء للوطن.

وفوق كل ما سبق، الجرح العميق الرئيس في قلب أمتنا -فلسطين- التي

انقلبت الوعود والعهود والأيمان المغلظة بتحريرها من الغزاة الصهاينة عام ١٩٤٨م إلى تسليم بالاغتصاب واعتراف له بشرعية ساقطة تجعل الباطل حقاً، رضوخاً لشروطه وهيمنته، وتقديم تنازل مهين تلو الآخر باسم الأمة- رغماً عن إرادتها.

لحق العراق بفلسطين عندما سقط بدوره تحت احتلال أمريكي باغ، في ظل غيبوبة الأمة وتغييبها ما بين صمت أنظمة حاكمة، واكتفاء أخرى بأضعف الإيمان، وادعاء سواها العجز، وتواطؤ بعضها مع الغزاة أو تنكره للانتماء العربي أصلاً وانسحابه منه جهراً، وشماتة عدد منها!

بات هذا كله واقعاً يثقل صدر وضمير كل عربي، مع يقيننا بأن هذا السقوط في سياق صراع تاريخي مصيري مثل الذي تخوضه أمتنا يظل أمراً مؤقتاً -وربما عابراً مهما طال أمده- ما دامت إرادة الأمة حية، ومقاومتها متجددة.

ولكن هل نملك تجاهل فضيحة تعاظم عدد الأميين العرب الذي تجاوز الثمانين مليوناً من أبناء أمتنا التي عُيّرت طويلاً بسفه هدر أثريائها أموال النفط وعمولات صفقات الأسلحة على موائد الميسر ومواخير الغرب والشرق، وبتضخم الأرصدة المصرفية لأكثر حكامها وعائلاتهم وحواشيهم والمنافقين لهم واللصوص والسماسرة!

تتضح أبعاد الفضيحة أكثر إذا ما تمعنا في الأمية المقنعة الناجمة عن الإفلاس والانهيار المريع لنظم التعليم، وسوء أداء مؤسساته وعقم فلسفته وتخلف مناهجه وضحالة نتائجه. أليست فضيحة لنا جميعاً أن تخرج دراسات عديدة بنتائج مخجلة كفضيحة أن معدل الوقت الذي يمضيه الفرد العربي في القراءة هو نصف ساعة سنوياً! نصف ساعة للقراءة -من أصل ثمانية آلاف وتسعمئة وسبعين ساعة- تشمل قراءة الأبراج وأخبار فضائح عراة الراقصين والراقصات والمغنين والمغنيات ووصفات طبخ!

من أبرز عوامل أزمة التخلف التي نعاني منها غلبة العابر على الدائم، والدخيل على الأصيل، والرخيص على الثمين، والقشور على الجوهر. أليس هذا سر تدني موقع العلم وأهله، وقيمة الثقافة وسدنتها، في سلم التقييم المجتمعي الراهن الذي يتصدره على امتداد وطننا العربي الكبير جهلة ومفسدون وسماسرة أوطان ومهربون ومحتكرون وناهبو المال العام ومغتصبو سلطات وأميون ونخب مزعومة يتم تنصيبها بإرادات مافيوية!

• • •

كان الحوار قد تشعب وتنقلت ساحاته من قطر عربي إلى آخر، أمّا محاوره فكانت تردي الأوضاع المعيشية لغالبية الناس مع طغيان عبادة المال رديفاً لاستشراء الجشع ونمط الإسفاف الاستهلاكي، وسلحفائية

الحركة التنموية، وتدني الإنتاجية الفردية والجمعية، وتراجع موقع الثقافة والعلم في سلم التقييم الاجتماعي السائد، وتدهور مستوى التعليم وتخلف فلسفته المتحجرة، وضحالة النشاط العام للمجتمع الأهلي.

توقف الحوار عند سؤال حول مدى مسؤولية الدولة عن تردي موقع الثقافة وبؤس أحوال أهلها في أكثر الأقطار العربية.. ثمّ استحضار أمثلة لدول تباع فيها لوحة لرسّام بعشرات ملايين الدولارات، بينما يكاد الرسّام عندنا يعتبر بيع لوحة له بما يعادل مبلغ مئة دولار مدعاة احتفال. قال أحد الحضور إن المبالغ الهائلة التي تدفع في الولايات المتحدة ودول أوروبية في مقابل لوحات فنية لا تعكس تقديراً للمبدع بقدر ما تستجيب لحسابات ضريبية تضحي بمبلغ ضخم في مقابل لوحة أو تبرعاً لمؤسسة ثقافية في مقابل تخفيض الشريحة الضريبية المفروضة على دخل المشتري أو المتبرع، بحيث تكون النتيجة مكسباً له. وضرب آخر أمثلة لتشكيليين عضهم الجوع أو صرعهم الافتقار إلى ما يسدّون به نفقات علاج من مرض، بينما بيعت لوحاتهم بعد وفاتهم بمبالغ تمنوا لو حصلوا على واحد في المئة منها في حياتهم.

• • •

تطور الحوار إلى استحضار أمثلة من دول يكفي الكاتب المتفوق المبدع فيها أن يصدر كتابين أو ثلاثة كتب فقط في حياته ليضمن عيشاً كريماً رغيداً من دخل تلك الكتب، من دون أن يضطر للعمل في مهنتين إضافيتين أو أكثر لأربعة أخماس ساعات اليوم لتأمين احتياجات عيش الكفاف، أو أن يهاجر باحثاً عن لقمة الخبز في بلاد الله الواسعة ليتحاشى ذل التسول.

أليس عاراً أن يدفع كثير من الكتاب مثلاً تكاليف طباعة كتبهم ونشرها من دون أن يعوضهم البيع سوى عن جزء بسيط من التكلفة. وهذا هو حال معظم المبدعين في الحقول الأخرى عموماً، اللهم إلا من ارتبط عمله بفقاعة طارئة رائجة مثل أغاني التعرّي وإثارة الغرائز، أو بمديح النفاق الرخيص، أو بشبكة ما!

قال أحدنا: هذه مسؤولية الحكومات العربية التي لا تكترث بالمبدعين، ولا بالثقافة عموماً. فرد آخر: اعتادت أكثر المجتمعات العربية الاتكاء على حكوماتها، والاتكال على الأداء والإنفاق الحكومي في كل شيء، من دون أن يقوم أفراد المجتمع بالحد الأدنى من واجباتهم الطبيعية تجاه أنفسهم ومجتمعهم.

مع الاعتراف بأن حكومات بعض أقطارنا اعتادت ألا تنفق إلا النزر اليسير على احتياجات العامة المختلفة ما لم يرتد هذا الإنفاق منافع وعمولات لأصحاب السلطان وحاشيتهم التي لا حدود لشراهتها.

تذكرت حواراً تلا محاضرة لي، تذمر بعض الحضور خلاله من بؤس الخدمات الحكومية وقصورها في بعض المجالات، فدعوت الحضور إلى المبادرة في تشكيل لجان أهلية للأحياء التي يقطنونها تهتم بنظافة تلك الأحياء من خلال التوعية الدائمة والتشهير بالذين يلقون فضلاتهم على مداخل الأبنية أو أرصفة الشوارع.

فكان ردّ أكثر الحضور: هل تريد الهبوط باهتمامات المجتمع المدني إلى مستوى مؤازرة عمال التنظيفات! سألت يومها: من قال إن تنمية اجتماعية وبيئية وثقافية يمكن إنجازها ما لم تبدأ باحترام النظافة؟ الوضع السليم هو تكامل مسؤوليات والتزامات الفرد والمجتمع والسلطة تجاه احتياجات الوطن الثقافية والمجتمعية.

إن المبادرات الأهلية لتنشيط الاهتمامات الثقافية والعلمية تتجاوز أهدافها الحميدة المباشرة لتسهم في واجب التصدي للتخريب والتشويه الناجمين عن اجتياح نمط السفه الاستهلاكي المشوه الذي تفرضه مصالح قلة متسلطة تتحكم بالثروة على حساب أغلبية مسحوقة تكبر نسبة الجائعين في صفوفها يوماً بعد يوم.

يتطلب النهوض الثقافي مشروعاً ثقافياً تجديدياً ينطلق من حاجات الغالبية الساحقة من الناس، ومشاركة أكبر نسبة من هؤلاء هي الضمانة لالتزام هذا المنطلق، فلا مجال لثقافة محايدة أو مترفعة عن هموم الأمة ومآسي المجتمع. وحيث لا سبيل لتجاهل أولوية البعد الإنساني /الثقافي/ الاجتماعي للتنمية والتأسيس لنسق قيم إيجابي يلتزم مرجعية أخلاقية شعبية عقلانية تنطلق من الذات الحضارية للأمة وتلتزمها، فإن دور هيئات المجتمع المدني الثقافية والمجتمعية والنقابية والاقتصادية أقدر على مراعاة هذه الأولوية من الجهد الحكومي المحكوم بقيود الروتين وتقلبات الأوضاع السياسية وتأثيرات العلاقات الدولية.

تتضاعف الحاجة إلى تنشيط هذا الدور الأهلي لرعاية العقل النقدي والنشاط الإبداعي عندما تتسع مساحة المناطق التي يحرّم على المثقف التعاطي معها بعقله، ويفرض عليه حصر تفكيره ومعرفة الذات والآخر في حدود تعليمات إدارية بليدة ومقولات نفاقية وشعارات جوفاء وتضليل تمارسه حلقات ضيقة تغتصب مهام التفكير والتنظير متوهمة امتلاك الحقيقة والتفرد بالصواب واحتكار الوطنية.. بل والوطن!

إن تنشيط دور الهيئات الأهلية والنقابية في الساحة الثقافية يوسّع فرصة تحرير المثقفين والمبدعين من قلة فرص التواصل وندرة أدواته، ومن ضمور العائد المعنوي، وكذلك من غائلة الحاجة المادية.

كما أن هذا الدور الأهلي ضمانة لتسهيل ممارسة العقل النقدي دوره الحيوي

والطليعي الرئيس في تحقيق الانتصار على الذات أولاً -عبر جهاد النفس الفردية والجمعية- تصويباً للخطأ وعلاجاً للخلل ومحاصرة للقصور والتقصير، فالانتصار على الذات شرط مسبق للانتصار على العدو الخارجي، ولدحر غزوة تتجاوز أهدافها اغتصاب أرضنا ونهب ثرواتنا ومصادرة حريتنا وإرادتنا إلى اغتصاب عقولنا وإفساد قيمنا ومستقبلنا واجتثاث جذور انتمائنا الحضاري.

جادل أحد الحضور بأن الإسهام الأهلي بالتنمية الثقافية متوافر وبارز للعيان، وضرب أمثلة لحالات مشكورة لا ينكرها أحد، ولكنها تظل حالات فردية محدودة جداً لا تنجز تنمية ثقافية أو اجتماعية، ولا تبدل حالاً، فليس صحيحاً أن زهرة منفردة هنا وأخرى منفردة هناك تصنعان ربيعاً، أو أن جائزة هنا وأخرى هناك تنهي محنة الثقافة العربية الراهنة.

نحتاج بشدة إلى أن تصبح مساهمة المجتمع المدني والهيئات الأهلية النشطة في تنمية الحياة الثقافية وتطويرها ممارسة مؤسساتية عامة ودائمة، بحيث تكون جزءاً من التربية الفردية والجمعية، وعنصراً دائماً للحياة اليومية لا تخلو منه مدينة أو قرية أو هيئة نقابية أو جمعية ذات نفع عام، بتعميم قيام منتديات ثقافية وأدوات اتصال وتواصل بين المثقفين والعامة.

هنا تتسع دوائر التفاعل الإيجابي المتبادل بين المبدعين والمتلقين، وينزوي من يجري تلميعهم وتنصيبهم رموزاً ثقافية بقرارات فوقية وإدارية، ليتقدم المبدعون المؤهلون الذين يستندون إلى اقتناع قواعد شعبية بإبداعهم.

تشتد الحاجة إلى هذا الدور الأهلي في رفد ودعم جهود التنمية الثقافية، وخاصة في أوضاع موبوءة اشتد فيها تضخيم مثقف التبرير ذي الموقف الارتزاقي، الذي لا يكتفي بممارسة النفاق المكشوف والخداع، وإنما يسهم في التسطيح الهجين للثقافة والفكر بفصلهما عن الروح والإيمان، فينفر الناس بالتالي من الثقافة والفكر عموماً، في مقابل تهميش سلطوي لمثقف التغيير ذي الموقف الرسالي ومحاصرته وتغييبه وعزله.

هي أزمة أمة، لا أزمة ثقافة فحسب، إذ توالد الخلل وتراكم وتكاثر في بنى المؤسسات والعلاقات وأدائها، وحوصر دور قوى استنهاض وتوحيد الأمة وتحريرها، بينما انتعشت قوى الردة والاستسلام والفساد التي تنشر ثقافة الخوف والخضوع والتبعية والفهلوة الجوفاء الرخيصة والطاعة العمياء والتعاجز والسطحية والابتذال وتصنيع فتاوى حربائية جاهزة معلبة حسب الطلب، وافتعال ذرائع ساقطة تسويفاً للقصور والتقصير والنكوص عن الأهداف العامة والتفريط بحقوق الأمة ومستقبلها.

سيناريوهات جديدة لأصول الحياة

موسى ديب الخوري ✪

نعرف اليوم بفضل المستحاثات أنَّ الأرض كانت تأوي الحياة على الأقل منذ نحو ٣،٣ مليار سنة. ويشير ذلك إلى سرعة تشكل الحياة بعد تكوين الأرض قبل نحو ٤،٥ مليار سنة. كما يعني أيضاً أن فترة أقدم كانت سابقة لتشكل هذه المستحاثات وشكلت مرحلة انتقالية طويلة بين اللاحياة والحياة؛ فترة كان لا بد خلالها للأرض من أن تبترد، وأن تتقلص كثافة القصف النيزكي عليها.

بالمقابل، فإنَّ المستحاثات لا تخبرنا كامل القصة. فكيف تمَّ الانتقال من الجزيئات مثل الماء والآزوت وثاني أكسيد الكربون إلى متعضيات ذاتية الانتظام وقادرة على التطور؟ تأتينا الأجوبة الجديدة اليوم حول ذلك من خلال التحليل الحديث جداً لعينات قديمة كان قد أنتجها ستانلي ميلر منذ عدة عقود. وستانلي ميلر كما نعرف هو مؤسس نظرية «الحساء البدئي»، وكان قد أعاد في المختبر تشكيل بيئات مختلفة قابلة لانبثاق الحياة فيها، وهو ما يعيد العلماء اكتشافه اليوم.

إعادة تشكيل بدايات الحياة

استطاع الشاب ستانلي ميلر في عام ١٩٥٣م، وكان طالباً في جامعة شيكاغو، الحصول على حموض أمينية في المختبر ابتداء من خليط من الغازات كان يشبه كما اعتقد الغلاف الجوي للأرض في بداياتها. والحموض الأمينية هي كما نعلم مركبات البروتينات، التي تشكل بدورها جزءاً لا يتجزأ من الجزيئات المكونة للكائن الحي.

✪ باحث ومترجم ونائب رئيس الجمعية السورية الكونية.

كانت تلك أول تجربة في الكيمياء «ما قبل الحيوية»، كيمياء أصول الحياة.

كان ميلر قد ترك في الواقع أكثر من ٢٠٠ عينة توافق شروطاً تجريبية مختلفة موصوفة بعناية في دفاتر مختبره. وقد عُثر منذ سنوات قليلة على هذه العينات وقام جفري بادا Jeffrey Bada من جامعة كاليفورنيا بتحليلها منذ ثلاث سنوات، مع أنطونيو لازقانو Antonio Lazcano من جامعة المكسيك الوطنية.

والنتيجة أنَّ المناخ الأرضي كما نتصوره اليوم كان متوافقاً فعلياً مع ظهور الحموض الأمينية. كما أنَّ شروطاً بيئية، مثل تلك التي كانت قد وجدت في جوار البراكين، كانت هي أيضاً ملائمة لبداية الحياة، وهو ما أعاد إطلاق النقاش حول مكان وطريقة ظهور العناصر الأولية لنشوء الحياة.

تعود القصة إلى عام ١٩٥١م مع هارولد أوري وكان حائزاً على جائزة نوبل للكيمياء عام ١٩٣٤م، عندما قدم في إطار نقاشات كانت تعقد بانتظام محاضرة حول الغلاف الجوي البدئي للأرض الذي يرجع إلى نحو ٤ مليارات سنة. وكان يعتقد أنه يتكون من الماء والهيدروجين والميتان والأمونياك.

وقد اقترح أوري، مرتكزاً على أفكار الروسي ألكسندر أوبارين Alexandre Oparine من عشرينيات القرن العشرين أنه كان بإمكان الجزيئات اللاعضوية التي كانت ماثلة في هذا الغلاف الجوي أن تتفاعل فيما بينها تحت تأثير الصواعق لتشكيل أولى الحموض الأمينية.

وكان ميلر حاضراً بين المستمعين، ولم يتجاوز عمره ٢١ عاماً. كان يتحضر للبدء بتحضير أطروحته تحت إشراف إدوار تيلر Edward Teller (الأب المستقبلي للقنبلة الهيدروجينية). وقد سحر ميلر بما جاء به أوري.

وعندما غادر تيلر جامعة شيكاغو في عام ١٩٥٢م طلب ميلر من أوري أن يكون المشرف على أطروحته. ووافق هذا الأخير. وبدأ ميلر عمله وصمم جهازاً لمحاكاة منظومة المحيط - الجو الأرضي منذ نحو ٤ مليارات سنة. وهو عبارة عن زجاجة كروية مملوءة بالماء النقي والمسخن بحيث يؤدي إلى مرور تيار من البخار. إنه المحيط البدئي. والزجاجة موصولة بزجاجة أخرى أكبر منها تشتمل على خليط من الغازات التي وصفها هارولد أوري والتي تخضع لتفريغات كهربائية من أجل مماثلة أثر الصواعق. وتمثل الزجاجة الثانية الغلاف الجوي البدئي للأرض.

عناصر أولية بسيطة

بعد نحو أسبوع من التجارب لوحظ أن الحوجلة الكبيرة قد غطيت بمادة زيتية، وتلون الماء فيها بلون بني. كان هذا السائل

هو الذي سمي لاحقاً بالحساء البدئي، حيث اكتشف ميلر الطالب وجود ثلاثة أحماض أمينية فيها (هي الغليسين والألانين والحمض الأسبرطي). والحموض الأمينية هي اللبنات الأساسية لجميع البروتينات التي توجد على الأرض. لم يكتشف ميلر سوى ثلاثة منها، في حين يوجد ٢٢ حمضاً أمينياً في البروتينات. لكن التجربة برهنت أن بعض مكونات الحياة التي لا غنى عنها يمكن أن تتشكل خلال بضعة أيام ابتداء من عناصر كيميائية بسيطة، كانت موجودة على الأرجح على الأرض في بداياتها تلك. نشرت هذه التجربة في أيار عام ١٩٥٣م وكان دويها عظيماً ومثيراً بين العلماء والجمهور على حد سواء.[1]

لكن بعد بضع سنوات أهملت فكرة هارولد أوري حول الغلاف الجوي البدئي. وسادت بين الجيوكيميائيين في السبعينيات فكرة أن الغلاف الجوي البدئي لم يكن مكوناً من الحد الأدنى من العناصر التي تسمح بنشوء الحياة، بل كان حيادياً بل ومؤكسداً.

وهكذا فقد تشكل نوع من تفاهم جديد حول غلاف جوي مؤلف بشكل أساسي من الهيدروجين وثاني أكسيد الكربون والماء.[2] والمشكلة أنه مع مثل هذا المزيج لا يمكن بزوغ الحموض الأمينية. وقد حاول ميلر نفسه في هذا الاتجاه من دون أن ينجح في ذلك[3]. وهكذا وجد مناصرو فكرة أصل للحياة في الغلاف الجوي الأرض البدئي صعوبة في إثبات نظريتهم.

غير أن التجارب الحديثة التي قام بها جفري بادا وأنطونيو لازكانو أعادت القوة لهذه الفرضية.

فقد كرر هذان العالمان مع فريقهما في عام ٢٠٠٨م تجارب ميلر نفسها التي قام بها عام ١٩٨٣م، مع الغلاف الجوي الحيادي المكون من الهيدروجين وثاني أكسيد الكربون والماء. واكتشفا عندها أن هذا الحساء البدئي عندما يتعرض لصدمات كهربائية ينتج النتريت والنترات التي تؤكسد الماء[4]. غير أن «الأكسدة توقف أو تعيق صيرورة تشكل الأحماض الأمينية» كما يفسر جفري بادا. وهذا ما يفسر النتائج السلبية التي كان قد حصل عليها ميلر.

لكنَّ العالمين لم يتوقفا هنا. فنحن نعرف اليوم أن المحيط البدئي كان يجب أن يحتوي على الكثير من المركبات القادرة على تحييد الأحماض. ومنها على سبيل المثال كربونات الكالسيوم والحديد.

ولهذا يقول بادا «إننا أعدنا التجارب مع إضافة كربونات الكالسيوم». وكشفت التحليلات تَشكُّل ثمانية أحماض أمينية بكميات لا يستهان بها. «ويعد ذلك برهاناً أنه حتى في الأوساط قليلة التفاعل يمكن

أن تتشكل المادة العضوية بفضل التفريغات الكهربائية. ويضيف لازقانو إنه «برهان جميل على عالمية وسهولة تشكل الأحماض الأمينية».

وليس هذا كل شيء. فقد قام كل من بادا ولازقانو بتحليل عينات قديمة لميلر نفسه. فقد ورث بادا في عام ٢٠٠٠م محتويات مختبر ميلر في جامعة سان دييغو مع كامل أرشيفه بتوصية من ميلر. ووسط الفوضى الكبيرة لهذه الوثائق وجد بادا نحو ٢٠٠ زجاجة مخبرية كان العديد منها قد ظل من دون تحليل، حيث احتوت كل زجاجة على ٥ ميليلتر من المستخرجات المجففة الموافقة لتجارب ميلر كافة.

كان ميلر قد دوّن كل التفاصيل بالنسبة لكل زجاجة ومحتوياتها، وهكذا استطاع بادا ولازقانو وزملاؤهما تحليل العينات القديمة لستانلي ميلر لمعرفتهم بشروط التجارب السابقة.

وكانت البداية مع عينات أشار ميلر في كراسته إلى أنها احتوت على بيئات خاصة جداً. فقد ترافقت ولادة الأرض مع نشاط بركاني استثنائي. فهل أمكن لهذه البيئة المساهمة في نشوء الحياة؟

كان ميلر الذي أدرك هذه الإمكانية قد صمم منذ عام ١٩٥٣م منظومة يفترض أنها تشبه أو يمكن أن تنتج بيئة ثوران بركاني، غنية بالميتان والهيدروجين. وكان قد أضاف للمنظومة الكلاسيكية في المختبر شافطاً صغيراً يسمح بامتصاص البخار الناجم عن الحوجلة -المحيط وحقنه مباشرة في الحوجلة- الغلاف الجوي من أجل زيادة حركة البخار والغاز.

ووفقاً لتحليلاته فقد نتجت عن التجربة خمسة حموض أمينية أي بزيادة حمضين أمينيين عن التجربة الكلاسيكية. لكن ميلر في الخمسينيات لم يكن يستطيع عد الحموض الأمينية إلا على تقنية بسيطة تفصل بشكل غير دقيق بين الجزيئات ولا تكشفها إلا عندما تكون بأعداد كبيرة كافية. لكن طرائق التحليل تقدمت كثيراً منذ ذلك الحين.

والجهاز الذي يعتمد عليه العلماء اليوم عالي الدقة وهو أكثر حساسية بملايين المرات مما يسمح بتمييز الجزيئات بدقة متناهية. وعندما أعاد بادا ولازقانو تحليل عينات البيئة «البركانية» استطاع فريقهما تحديد ١٧ حمضاً أمينياً زيادة. أي إن مجمل الحموض الأمينية التي تولدت في التجربة كان ٢٢ حمضاً أمينياً.

يقول جفري بادا: «هذا يعني بوضوح أن البراكين لعبت دوراً أساسياً في إعداد أولى لبنات الكائن الحي»(٥). وتصبح الفرضية أكثر معقولية وجدارة عندما نعلم

أن الانقذافات البركانية تترافق مع الكثير من الصواعق التي تجلب الطاقة الضرورية لإطلاق التفاعلات الكيميائية.

وجاء تحليل زجاجة مخبرية أخرى في عام ٢٠١١م ليدعم هذه الفرضية(١). ففي عام ١٩٥٨م كان ميلر قد أنجز تجارب على نمط بيئي بركاني آخر، هو الغلاف الجوي الغني بكبريتيد الهيدروجين، وهو مركب كيميائي يصدر عند حدوث البراكين. لكنه لم يقم أبداً بتحليل المركبات التي تمَّ الحصول عليها. ويعلق لازقانو مازحاً على ذلك بقوله «إنه ربما كان يأنف من رائحة البيض الفاسد الشبيهة برائحة كبريتيد الهيدروجين»! والحقيقة أن ميلر كان ينتقل في تلك السنة من جامعة كولومبيا إلى جامعة سان دييغو في نيويورك حيث استمر حتى نهاية حياته، فلم يكن لديه الوقت لتحليل هذه الزجاجات المخبرية.

ولا شك أن ميلر لو أجرى تحليلات نتائج هذه التجربة لسر كثيراً بالنتائج! فقد كشف تحليل هذه النتائج عن وجود ٢٣ حمضاً أمينياً هو أعلى رقم تم الحصول عليه في هذا النوع من التجارب.

والأكثر أهمية في ذلك أيضاً هو أنه بين هذه الأحماض الأمينية توجد أحماض أمينية مكبرتة. ويسمح الكبريت بتشكيل مركبات مزودة بروابط ذات طاقة عالية جداً، الأمر الذي يسمح بدوره بربط الأحماض الأمينية فيما بينها لتشكل ببتيدات، المرحلة الوسطى قبل تشكيل البروتينات.

فهل تتعلق هذه التجارب بخطوة أولى على درب فهم تشكل البروتينات الأولى؟

إن الطريق لا يزال طويلاً أمام العلماء للوصول ربما إلى هذه المرحلة، مع أنهم يستطيعون التوصل في الشروط ما قبل الحيوية إلى تصنيع معظم الأحماض الأمينية التي تشكل أصل بروتينات الكائن الحي.

بل ويتوصل العلماء كما سوف نرى إلى تركيب الببتيدات المؤلفة من بضعة أحماض أمينية. لكن الطريقة التي ظهرت بها أولى البروتينات، المؤلفة من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية، يظل حتى اللحظة أمراً يحتاج إلى حل وأبحاث معمقة. لهذا سنحاول في القسم التالي مناقشة أهم الفرضيات المطروحة حالياً حول أصول الحياة...

سيناريوهات حول ظهور الحياة

لقد تمَّ الجدال لوقت طويل حول فرضيتين تفسران نشوء الحياة. الأولى تقول إن الجزيئات الضرورية للحياة هي الببتيدات والبروتينات، والأخرى ترى إن هذه الجزيئات هي الحموض النووية.

أمَّا اليوم فيعتقد العلماء إنَّ هذين النمطين كانا قد تطورا معاً. ويشير ظهور الخلايا الأولى وفق النظريات الحديثة إلى

وجود مبكر لجزيئات قادرة على تشكيل ما يشبه الحويصلات ساهمت في تشكيل أولى الأغشية.

ووفق منظور العلماء اليوم، فإن ما يشكل المتعضية الحية هو إنتاج الطاقة ونقل المعلومة، وكل ذلك ضمن إطار غشاء. لكن ما هو الترتيب الذي ظهرت فيه هذه الوظائف؟ وبعبارة أخرى، متى ظهرت الحياة؟

تجيب بوريفيكاسيون لوبيز غارسيا وهي مديرة أبحاث في مركز البحث الوطني العلمي في فرنسا في البيولوجيا المجهرية قائلة[٧]: «لايمكن للحياة أن تنشأ إلا عندما أصبحت الشروط الفيزيائية الكيميائية السائدة على الكرة الأرضية الوليدة متوافقة مع وجود جزيئات عضوية كبيرة. ولا شك أن وجود الماء كان شرطاً لا غنى عنه لأنه يسهل العديد من أنماط التفاعلات الكيميائية التي لا غنى عنها في تشكل مثل هذه الجزيئات.

وقد ظهر الماء السائل على الأرض منذ نحو ٤,٤ إلى ٤,٢ مليار سنة، ويعد هذا التاريخ متوافقاً مع أقدم تاريخ ممكن لظهور بوادر الحياة على الأرض». هذا على الأقل نظرياً. ذلك أن الأرض تعرضت لقصف نيزكي عنيف جداً قبل نحو ٣,٩ مليار سنة، وكان من الشدة والكثافة بحيث يعتقد العلماء أن المحيطات كلها تبخرت. فإذا كان هذا هو الحال، من الممكن أن تكون الحياة قد اختفت تماماً إذا كانت موجودة في تلك الآونة، لتعود فتظهر من جديد بعد مرحلة القصف النيزكي هذه. وهناك إمكانية أخرى هي أن تكون الحياة قد استطاعت الاستمرار داخل القشرة الأرضية، ثم عادت فانتشرت على كامل الكرة الأرضية.

وأخيراً يقول العلماء: إن الحياة يمكن ألا تكون قد ظهرت إلا بعد نهاية القصف النيزكي قبل نحو ٣,٨ مليار سنة أو بعد ذلك بقليل.

أما حول شكل أو تصور شكل هذه الحياة في مثل هذه العصور المبكرة من تاريخ الأرض، فيشير العلماء إلى أن مرجعية أي تصور تقوم على ثلاث سمات أساسية للكائن الحي الحالي. حيث يمكن تخيل «خلية دنيا» تملك نظاماً لحمل المعلومات ونظام «أيض» ينتج مادته العضوية الخاصة، وغشاء. وقد كان ثمة مرحلة سابقة لظهور مثل هذا الغشاء.

وكما أشرنا، فقد طرحت نظريتان متعارضتان حول بدايات الحياة. اعتبرت الأولى أن جوهر الحياة نفسها هو وجود الأيض، حيث يكون لدينا حياة عندما يكون ثمة نظام قادر على الاستمرار والحفاظ على نفسه من خلال إنتاج الطاقة ومادته

الخاصة ابتداء من عناصر من البيئة الخارجية المحيطة به.

إن هذا التصور الذي يسمى الاستقلابي أو الأيضي هو المفضل عموماً عند الفيزيائيين. أما التصور الثاني، الذي يسمى «المورثي»، فيعتبر أن الخاصية الأساسية للكائن الحي هو وجود منظومة معلوماتية، أي مادة وراثية تحمل المعلومة وقادرة على التضاعف. وهي النظرية المفضلة عند البيولوجيين لأنه من الأسهل تفسير مفهوم التطور من خلالها.

هل يعني ذلك أن الجزيئات التي ظهرت أولاً لم تكن من نوع واحد؟ تقول الفرضية الاستقلابية: إن الجزيئات الأساسية للكائن الحي هي البروتينات وخاصة الأنزيمات، التي تحفز التفاعلات الكيميائية. أما الفرضية المورثية فتعطي الأولوية للجزيئات التي تستخدم كحامل للمعلومات، وبعبارة أخرى للحموض النووية، ومنها DNA و RNA. ومن المستحيل الاعتماد على الكائن الحي الحالي لكي نحسم هذه المسألة. ففي الخلايا الحالية نواجه المسألة القديمة، من كان أولاً، البيضة أم الدجاجة؟ فالبروتينات تشكلت بالتأكيد انطلاقاً من حموض نووية تقوم بتشفيرها، لكن الحموض النووية تحتاج بالضرورة إلى إنزيمات، أي إلى بروتينات، لكي تتضاعف!

لم تستطع أية من الفرضيتين إثبات نفسها ضد الأخرى. فوفق النظرية المورثية التي وضعت خلال النصف الثاني من القرن العشرين، ظهرت الحياة على شكل جزيئات RNA قادرة على التضاعف بنفسها، أي جزيئات RNA ذاتية التضاعف. وترتكز هذه الفرضية على نمطين من النتائج. النمط الأول هو نتائج لزلي أورجل Leslie Orgel الذي بيَّن في السبعينيات والثمانينيات أنه كان من الممكن تحفيز جزيئات RNA صغيرة في أنبوب اختبار من دون اللجوء إلى أنزيمات بروتينية. وقد استوحي من ذلك أن الـ RNA يمكن أن يتميز بقدرات تحفيزية إضافة إلى تخزين المعلومات. وفي بداية الثمانينيات اكتشف كل من توماس شيش Thomas Cech من جامعة كولورادو وسيدني ألتمان Sidney Altman من جامعة يال فئة خاصة جداً من الـRNA. وهي عبارة عن جزيئات قادرة مثل الإنزيمات على تحفيز تفاعلات كيميائية. وقد سميت هذه الجزيئات بالـ«ريبوزيمات».

ومع هذا الاكتشاف أصبح بالإمكان تخيل جزيئات RNA أولية قادرة على حمل المعلومات وفي الوقت نفسه على تحفيز تضاعفها الخاص. الأمر الذي بدا أنه يحل مسألة مَنْ الأسبق، البيضة أم الدجاجة! لكن

هذه الفرضية التي تقول بأولوية الـRNA لم تعد كافية اليوم. وذلك لسببين اثنين.

السبب الأوّل أنه من الصعب تخيل كيف يمكن أن يظهر استقلاب طاقي، في إطار عالم من الـRNA فقط. وفي كل الأحوال لا نجد أي مؤشر على مثل هذا الأيض عند دراسة هذه الريبوزيمات الحالية. فليس لأي من التفاعلات الكيميائية التي تحفزها علاقة مع إنتاج الطاقة.

والأكثر غرابة هو أن الريبوزيمات هي العنصر المفتاح لإحدى البنى الأكثر انحفاظاً في تاريخ الخلايا، أي الريبوزومات التي تعتبر مثل مصانع لتشكيل البروتينات. وفي الواقع فإن الريبوزومات هي التي تحفز العلاقة بين الحموض الأمينية، وواقع أن هذا النشاط ظل قائماً ومحفوظاً في المتعضيات الحية كافة يثبت أهمية هذه الجزيئات. وإذا افترضنا أن الريبوزومات البدئية كانت تتمتع بوظيفة أساسية في الاستقلاب الطاقي في بدايات الحياة، فلماذا فقدت هذه الوظيفة خلال مجرى التطور؟

أمّا السبب الثاني الذي يجعلنا نعتقد بعدم إمكانية وجود عالم بدئي من الـRNA فقط فهو أننا حتى الآن لم ننجح، كما تقول بوريفيكاسيون لوبيز غارسيا، في تركيب أو إنشاء أبسط جزيء RNA في المختبر ضمن إطار الشروط الحيوية الأولية، أي ضمن الشروط التي كانت تسود على الكرة الأرضية منذ نحو ٤ مليارات سنة.

مع ذلك، فقد استطاع فريق جون سثرلاند John Sutherland من جامعة كامبريدج أن يركب في عام ٢٠٠٩م اثنين من العناصر الأولية للـRNA في المختبر وقام بتركيب العنصرين الآخرين في عام ٢٠١٠م. لكن هذا التركيب تمّ بوساطة كميات من المواد الأولية التي لا تتوافق مع المادة الأولية التي كانت موجودة في الظروف البدئية للأرض.

ولا يتوصل العلماء دائماً لربط هذه النيوكليوتيدات ببعضها لتشكل RNA. ولهذا فإن تركيب الـRNA ضمن الظروف البدئية للأرض أمر غاية في الصعوبة بحيث أن باحثين كثيرين يقترحون أن الجزيئات الأولى الحاملة للمعلومة كانت عبارة عن بوليمرات مختلطة مؤلفة من سلسلة من الببتيدات الكربونية التي تحمل أسساً مشابهة لأسس النيوكليوتيدات.

فإذا كان من الصعب قبول وجود بداية من الـRNA فقط، فما هي الفرضية البديلة لبدايات الحياة؟ يميل العلماء اليوم أكثر فأكثر إلى عالم وجدت فيه معاً وتطورت معاً جزيئات الـRNA والببتيدات. والببتيدات هي سلاسل قصيرة من الحموض الأمينية، أقصر بكثير من البروتينات. ونحن نعلم أن

الحموض الأمينية يمكن أن تتشكل بطريقة غير حيوية، أكان في الفضاء أو ضمن ظروف الأرض البدئية كما رأينا سابقاً.

أضف إلى ذلك أننا يمكن أن نتوصل إلى سلاسل قصيرة من الببتيدات ضمن ظروف ما قبل حيوية. وأخيراً، فقد تم البرهان أن بعض هذه الببتيدات كان لها نشاط تحفيزي. وبالتالي فإنه من الممكن جداً بل وشبه المؤكد أنها لعبت دوراً في كيمياء البدايات، بدايات الحياة. ومن هنا الفرضية الجديدة التي تقول إن البدايات كانت عبارة عن مزيج من الـRNA والببتيدات.[٨]

فكيف يمكن تخيل انبثاق الخلايا في مثل هذا العالم البدئي؟ تقول لويز غارسيا إننا لا يمكن عندما نفكر في بدايات الحياة، أن نقتصر في تفكيرنا أو فرضياتنا على المزيج من الـRNA والببتيدات. فيجب منذ البداية أن نضمن هذه البدايات أيضاً مركباً ثالثاً هاماً، هو عبارة عن غشاء يحتوي على هذه العناصر من الجزيئات.

وفي الواقع، عندما ننظر إلى الدور الذي يلعبه الغشاء الخلوي في الخلايا الحالية نجد أنه يؤمن عدة وظائف أساسية للخلية. فهو يحقق تكاملية الخلية ويبني التبادلات مع الوسط الخارجي كما أنه أساسي من أجل إنتاج الطاقة. وبشكل خاص، فإن وجوده يسمح بخلق عامل تركيز للأيونات (هي غالباً البروتونات H+): فتركيز هذه الشوارد ليس هو نفسه داخل وخارج الخلية.

والحال أن الخلايا كافة تستفيد بشكل أو بآخر من هذا العامل من أجل إنتاج الطاقة بفضل منظومة جزيئية معقدة وكبيرة، هي ما يعرف بالأتاباز الغشائي. ويشكل هذا الأتاباز مع الريبوزوم الأليتين الخلويتين الأكثر كونية وعالمية وانحفاظاً وقدماً. فهذه الوظيفة للغشاء هي بالتالي إحدى الخصائص الجوهرية للكائن الحي.

ووفقاً لبوريفيكاسيون لويز غارسيافإن تشكل الحويصلات التي تحتوي أولى الببتيدات وجزيئات الـRNA قد حصل منذ فترة مبكرة جداً. وهذا مقبول تماما لأنه تم البرهان على أن جزيئات قادرة على تشكيل حويصلات يمكن أن تكون قد وجدت في شروط ما قبل حيوية.

وقد بيّنت أعمال دافيد ديمر David Deamer من جامعة كاليفورنيا، أنه يمكن حتى تشكيل حويصلات بوساطة جزيئات عضوية موجودة في النيازك. وعلى هذا النحو، فإن العلماء مثل بيير لويجي ليوسي[٩] Pier Luigi Luisi أو جاك زوستاك Jack Szostak، الذين يحاولون خلق «خلايا أولية» أو «ما قبل خلوية» يضيفون إلى الببتيدات والـRNA الغشاء كعنصر أساسي وضروري لتشكيل أولى الخلايا الحية.

لكن، هل يعني ذلك أن هذه الخلية تطورت على مستوى مركباتها كافة؟ تجيب لوبيز غارسيا بنعم. فالتجميعات التي كانت تعمل داخل الإطار الفيزيائي الكيميائي للأرض الأولية تطورت عبر مراحل من التعقيد. حتى أدت في النهاية إلى انبثاق ما نسميه «السلف المشترك الكوني الأخير»: إنه نمط الخلية الذي هو أساس البكتريا والأرخيات (أولى الخلايا القديمة) والخلايا النووية، وهي الفروع الثلاثة الرئيسية للكائن الحي.

البحث عن آثار الحياة

ترتكز معرفتنا عن تاريخ الحياة بدرجة كبيرة على دراسة المتحجرات وتحليلها، وهو أمر يعاد النظر فيه باستمرار مع تقدم التقنيات والتحاليل. ما هو مؤكد بالنسبة للعلماء اليوم هو أن البكتريا كانت موجودة على الأرض منذ ٢.٧ مليار سنة. ويدعم آراء العلماء حول ذلك تحليل آثار الصخور الأسترالية التي تعود إلى هذه المرحلة. فقد بينت فرق عديدة من البحاثة مؤخراً أن هذه الصخور تبدي تشابهات مع بنىً تسمى ستروماتوليت، متشكلة بوساطة مجموعات جرثومية حديثة. ولكن ما الذي حدث في الماضي، مباشرة بعد القصف النيزكي منذ ٣.٩ مليار سنة؟ أي في بداية ما يعرف بالعصر الآرخي؟ هل ظهرت أولى الكائنات الحية منذ نحو ٣.٨ مليار سنة؟ أم قبل ذلك حتى؟ إن الجدال لم يتوقف منذ نحو عقد من الزمن حول هذه البدايات الأولى...

لا توجد على الأرض سوى بضعة مواقع يمكن البحث فيها عن آثار الحياة الأولى، وهي المواضع التي تتكشف فيها الصخور والطبقات التي تعود إلى أكثر من ثلاثة مليارات سنة. ذلك أن معظم الصخور التي تعود إلى ما بين ٣.٩ و ٢.٧ مليار سنة اختفت تماماً بسبب تكتونية الصفائح القارية وعمليات الحت.

أضف إلى ذلك أن معيار القدم لا يكفي. فطبيعة الصخور نفسها تؤخذ بعين الاعتبار. والصخور الوحيدة الموافقة لمثل هذه الأبحاث هي التي كانت في الأصل صخوراً رسوبية. وفي الواقع فإن هذه الصخور تتشكل على سطح الأرض، بوجود الماء السائل عموماً ودرجات حرارة متوافقة مع الحياة. وهذه الصخور وحدها يمكن أن تكون قد احتوت أو أسرت بقايا متعضيات دقيقة خلال تشكلها، أو جزيئات قامت هذه المتعضيات بتركيبها أو إفرازها.

ومن أقدم هذه الصخور المكتشفة والموافقة لهذه المعايير تلك التي تعود إلى ٣.٨ مليار سنة وتوجد على الساحل الجنوبي الغربي من غرينلنده في موضعين، في إيسوا وفي جزيرة أكيليا.

أعلن ستيف موجزيس Steve Mojzsis عام ١٩٩٦م، وكان يعد أطروحته في جامعة كاليفورنيا، عن اكتشافه لآثار الحياة في عينات مصدرها إيسوا. وكان قد شاهد بوساطة المجهر جزيئات من الغرافيت المعشقة في بلورات من الأباتيت. والغرافيت هو الشكل المستقر من الجزيئات الكربونية في الصخور التي شهدت، كما في إيسوا وأكيليا، حركات تكتونية خلال تاريخها بعد تعرضها لحرارة وضغط شديدين.

أما الأباتيت فيمكن تشكيله بوساطة متعضيات دقيقة خلال حياتها، أو مباشرة بعد موتها. وقد رأى العالم الشاب أن اقتران الغرافيت مع الأباتيت يسمح بالتالي بافتراض أن تعشيقات الغرافيت كانت عبارة عن بقايا الجزيئات الكربونية التي أنتجتها خلايا حية.

لكن هذا الاستنتاج لا يعد برهاناً ولهذا قام ستيف موجزيس باستخراج الجزيئات الغرافيتية عبر طرق كيميائية. ثم قام بتحليل محتواها من الكربون -١٢ و-١٣، وهما نظيران مستقران للكربون. وذلك لأنه على الأرض الحالية لا تحتوي الجزيئات الكربونية من أصل حيوي النسب نفسها من هذين النظيرين التي كانت تحويها الجزيئات القديمة الكربونية من أصل غير حيوي. فالجزيئات الجديدة أغنى من القديمة بالنظير -١٢.

هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أنه إذا وجد أن الجزيئات القديمة غنية أيضاً بالكربون -١٢ فهذا يعني أنه توجد فرص بأن تكون من منشأ حيوي. وهذا بالضبط ما استنتجه موجزيس فيما يتعلق بالكربون العضوي من عينات إيسوا، بعد أن استنتج أنها كانت غنية بالكربون -١٢. وهو يرى بالتالي أن متعضيات حية كانت موجودة منذ نحو ٣,٨ مليار سنة.

لكن مع ذلك ثمة إشكاليات كثيرة تُطرح أمام مثل هذا السيناريو.

المشكلة الأولى هي التأريخ. فعندما نتحدث عن عصور أو تاريخ بمثل هذا القدم، لا يمكن تأريخ جزيئات الغرافيت نفسها، بل فقط الطبقات الجيولوجية الموافقة له. ويتم استكمال هذه التحليلات من خلال ربط مختلف الطبقات التي تظهر وجود صلات زمنية فيما بينها. وفي عام ٢٠٠٩م تمّ التشكيك بجميع النتائج التي تمّ التوصل إليها بهذه الطريقة فيما يخص صخور أكيليا.

وكان ذلك نتيجة جهود كل من مارتن وايتهاوس Martin Whitehouse من المتحف السويدي للتاريخ الطبيعي، وجون ميرز John Myers من جامعة بيرث في

أستراليا، وكريستوفر فيدو Christopher Fedo من جامعة تينيسي في الولايات المتحدة الأمريكية. فقد راجع هؤلاء الأرصاد الميدانية والتحليلات التي تمت على الصخور والتأريخات في مختلف متواليات الطبقات الجيولوجية، وتوصلوا إلى أن عمر هذه الصخور أقل من ٣.٦٧ مليار سنة، وأن بلورات الأباتيت لم تتشكل إلا منذ نحو ١.٧٥ مليار سنة. بالنتيجة يكون من المستحيل أن نستخلص بأن الغرافيت المرتبط بالأباتيت يعود إلى بدايات العصر الآرخي، أكان أصله حيوياً أم غير حيوي.(١٠)

أمّا المشكلة الثانية فتكمن في الأصل الرسوبي لصخور أكيليا وأيسوا، حيث تم التشكيك في هذا الأصل أيضاً من قبل العلماء الثلاثة السابقين. فقد فسروا بعض الصفيحات التي وجدت في صخور أكيليا وكانت تعتبر كدليل على الأصل الرسوبي لهذه الصخور على أنها بنى ناشئة عن تشوهات في الصخور التي أصلها المغما الأرضية. وكانت قد نشأت من خلال تيارات سائلة في عمق القشرة الأرضية في درجات حرارة لا تتلاءم مع وجود الحياة.

أمّا المشكلة الثالثة، فهي أننا نعرف اليوم أنه حتى عندما تكون هذه الصخور ذات طبيعة رسوبية فإن ذلك لا يبرهن أصلاً حيوياً للغرافيت. وفي الواقع، جرت تجارب في المختبرات خلال السنوات القليلة الماضية بينت أنه توجد طرائق غير بيولوجية تسمح بتشكل الغرافيت الغني بالكربون ١٢ في بعض الصخور. ويكفي لذلك أن تحتوي كربونات الحديد، وأن تصل درجة حرارتها إلى أكثر من ٥٠٠ درجة مئوية في ضغط يصل عدة كيلو بار، وهو تماماً حال صخور إيسوا.

المشكلة الرابعة تكمن في أنه مع قبولنا بأن الصخور تعود إلى ٣.٨ مليار سنة، وأنها من أصل رسوبي، وأن الغرافيت الموجود فيها من أصل حيوي، لكن لا يمكن الاستبعاد أنه من الممكن أن يكون قد دخل إليها خلال فترات أحدث، وفق طرحه عام ٢٠٠٢م مارك فان زويلن Mark Van Zuilen من معهد فيزياء الأرض في باريس.(١١)

وهناك الكثير من الدراسات اليوم التي تميل إلى إثبات أن مثل هذه الرشوحات ممكنة جداً إلى قلب الصخور القديمة. ويعود أحدثها إلى ربيع عام ٢٠١١م، حيث تم فحص صخور أخرى ترجع إلى أكثر من ٣.٨ مليار سنة مصدرها كندا، وقادت الدراسة دومينيك بابينو Dominic Papineau وزملاءه في معهد كارنيجي في واشنطن إلى الاستنتاج أن الغرافيت الملاحظ فيها قد تشكل مع رشح سوائل دخلت متأخرة إلى باطن هذه الصخور عبر تاريخها.(١٢)

يقتنع اليوم معظم العلماء أن صخور

إيسوا وأكيليا لا تحتوي على آثار حياة بدئية. لكن هذا لا يعني أنه لم يوجد متعضيات حية على الأرض منذ ٣.٨ مليار سنة، بل يعني فقط أن الصخور التي تم تحليلها لم تكن تحوي هذه الآثار.

وهكذا يعود العلماء أيضاً إلى الصخور التي تعد أقل قدما بقليل! ففي عام ١٩٨٧م كان ويليام شوف William Schopf وبوني باركر من جامعة كاليفورنيا قد أعلنا عن اكتشاف آثار للحياة في صخور أستراليا ترجع إلى نحو ٣،٤٦ مليار سنة. وهي صخور سيليسية تسمى «الشرت الصواني»، وتعتبر أنها من أصل رسوبي في مقاطعة بلبارا غرب أستراليا. وكانت الآثار المكتشفة عبارة عن دقائق خيطية الشكل لا يتجاوز طولها بضعة ميكرو مترات، وتحتوي على الكربون العضوي وعلى تقسيمات عرضية تحدد ما يشبه الحجيرات.

بالنسبة لشوف، ثمة عنصران في هذا الاكتشاف لصالح طبيعة حيوية لهذه الأجزاء الخيطية. فمن جهة، تذكر شكلانيتها ببعض البكتريا الحالية القادرة على القيام بالتركيب الضوئي والمنتجة للأكسجين.

ومن جهة أخرى فإنه يعتقد أن الصخور التي تضم هذه الخيطيات كانت قد تشكلت في مياه قليلة العمق مما يسهل مثل هذه الوظيفة أي التركيب الضوئي.

وقد أثبت شوف بعد نحو ١٥ سنة، في عام ٢٠٠٢م هذه الاستنتاجات الأولية بعد أن أخضع عيناته القديمة لتحليل بوساطة جهاز التحليل الطيفي (رامان). وهي تقنية حساسة لطبيعة العلاقات الكيميائية في المادة، وتسمح بشكل خاص بوضع خارجة للفحم العضوي في المادة التي يتم تحليلها.

ويرى الأمريكيون الذين طبقوا هذه التقنية بداية على متحجرات مؤكدة التاريخ ثم على هذه الخيطيات المتحجرة أن الإشارات المسجلة لا لبس فيها وتثبت وجود جزيئات فحمية عضوية، هي الكيروجينات، الناشئة عن نشاط بكتيري.[١٣]

مع ذلك فقد تم التشكيك بهذه التأكيدات! فبعد تحليل عينات شوف وعينات جديدة مأخوذة من المنطقة نفسها في غربي أستراليا بوساطة المجهر البصري والإلكتروني.

وبوساطة تقنية التحليل الطيفي (رامان)، إضافة إلى مقاربات جيوكيميائية أخرى، توصل مارتان براسييه ومعاونوه من جامعة أوكسفورد إلى نتيجة مختلفة تماماً.

فهذه الخيطيات بالنسبة لهم تحتوي فعلاً على جزيئات فحمية إنما من أصل غير حيوي[١٤]. ذلك أنهم اكتشفوا أن الصخور التي تحتوي على هذه «المتحجرات» ليست من «الشرت الصواني» من أصل رسوبي،

بل هي تشكلت في وسط بحري عميق في درجة حرارة عالية نسبياً. وهو وسط غير ملائم لحاجة البكتريا التي تقوم بالتركيب الضوئي.

هذا إضافة إلى أننا نعرف أن هذا الوسط يسمح بتشكيل جزيئات فحمية بوساطة تفاعلات كيميائية غير بيولوجية، مع غنى نسبي بالكربون ١٢.

وبعد هذه الجدالات العلمية بين فريقي شوف وبراسييه، قامت فرق بحث علمي أخرى بإثبات أو نفي الفرضية البيولوجية لهذه الأشياء الملاحظة في الصخور الأسترالية.

إن تقنيات التحليل تتقدم لكن مع ذلك لا تزال مسألة الأصل البيولوجي غير محسومة في دراسات كثيرة تأتي وفق هذه التقنيات إما لصالح إثبات أصل حيوي أو أصل غير حيوي لهذه المتحجرات.

فعلى سبيل المثال استطاع خوان غارسيا رويز Juan Manuel Garcia-Ruiz من جامعة غرناطة في إسبانيا مع مساعديه الأستراليين التوصل في عام ٢٠٠٣م إلى تشكيل خيطيات ميكرومترية في المختبر ذات تشكيلات معقدة تشبه تلك الملاحظة في «الشرت الصواني» للصخور الأسترالية. وذلك من دون الاستعانة بالكائنات الحية وضمن شروط فيزيائية كيميائية متوافقة مع تلك التي كانت سائدة في الشمال الغربي الأسترالي منذ نحو ٣،٥ مليار سنة.[١٥]

وبالعكس، استطاع فريق سيلفيا ديرين Sylvie Derenne، من جامعة بيير وماري كوري في باريس إعادة إحياء التفسير البيولوجي لشوف بالنسبة للمتحجرات واراوونا Warrawoona في غربي أستراليا. فقد درست هذه العالمة طبيعة الجزيئات العضوية الموجودة بالاعتماد على تقنية في التحليل الطيفي لم تستخدم سابقاً أبداً في دراسة مثل هذه العينات.

إن حجم هذه الجزيئات وعدد ذرات الكربون التي تشكلها قادتها إلى استنتاج أنها كانت قد تشكلت فعلاً بوساطة متعضيات حية.[١٦]

وأخيراً، وبشكل مستقل عن هذا النمط من التعارضات، تنبثق مسألة أخرى لا تقل أهمية وإشكالاً: إذ يبدو أن ثمة متعضيات مجهرية حديثة تحيا في أعماق القشرة الأرضية، بما في ذلك الطبقات الصخرية المؤرخة من العصر الآرخي. الأمر الذي يجعلنا نتوقع أن بعض الآثار البيولوجية التي وجدت في الصخور ليست بالفعل آثار أولى لكائنات حية، بل متعضيات مجهرية تسربت أو رشحت خلال عصور أحدث بكثير.[١٧]

لهذا يجد العلماء أنفسهم يبحثون عن طريقة للتقدم في هذه المجاهل الوعرة

جداً. هل سيكون بالإمكان إيجاد آثار أكيدة للحياة في الصخور القديمة؟ إن اكتشافات حديثة تمت خلال سنة (٢٠١١م) تدعو للتفاؤل، خاصة وأن العلماء لا يكلون من البحث وتطوير أساليب عملهم ومناهجهم في سبيل الوصول إلى نتائج أكثر يقينية. وهذه الاكتشافات تبدو للوهلة الأولى وكأنها قد ابتعدت بنا عن الموضوع الرئيسي: فهي عبارة عن متحجرات لأنسجة نباتية مختلفة، حُفظت بشكل كامل شكلياً حتى على مستوى الخلية. وقد وجدت في طبقات صخرية من الكتلة الجبلية الفانوازية Vanoise في جبال الألب، كما في صخور ماريبانك Marybank في نيوزيلندة، وعمر الصخور في الموقع الأول ٢٢٥ مليون سنة في حين عمرها في الموقع الثاني ١٠ مليون سنة فقط.

لهذا قد نتساءل ما علاقتها بمواقع العصر الآرخي؟ في الواقع، كانت هذه الصخور هي أيضاً قد تعرضت لدرجات حرارة وضغط عالية جداً. والمعادن المرتبطة بالمتحجرات التي وجدت فيها، كما ودرجة انتظام الكربون العضوي يؤكدان ذلك. فقد أدى ذلك إلى غوص هذه الصخور لنحو ٤٠ كيلومتراً في الأعماق بالنسبة لفانواز Vanoise، ما يوافق درجة حرارة تصل إلى ٣٦٠ درجة مئوية وضغط ١٢ إلى ١٤ كيلوبار، ولأكثر من ١٥ كيلومتر بالنسبة لصخور نيوزيلندة.[18]

بعبارة أخرى، يمكننا أن نأمل أو نتخيل بأننا سنعثر في المستقبل على آثار حياة محفوظة بشكل جيد، على شكل متحجرات، في صخور قديمة رغم تحولها. إن هذه الآثار، إن وجدت، هي آثار نادرة. إن خيار المواقع المنقبة وكمية العينات المستخرجة والمحللة سيكون حاسماً في العثور على آثار الحياة الأولى..

الحواشي

1- S. L. Miller, Science, 117, 528, 1953.

2- L. Barnéoud, Recréer les débuts de la vie sur terre, La Recherche, oct., no 456, p. 41, 2001.

3- G. Schlesinger, J. Mol. Evol., 19, 376, 1983.

4- H. J. Cleaves et al., Orig. Life Evol. Biosph., 38, 105, 2008.

5- A. P. Johnson et al.,Science, 322, 404, 2008.

6- E. T. Parker et al.,PNAS, 18, 5526, 2011.

7- Purification Lopez-Garcia, Trois elements clés pour la cellule primitive, La Recherche, no 456, oct. 2011, p. 46.

8- Purification Lopez-Garcia, Trois elements clés pour la cellule primitive, La Recherche, no 456, oct. 2011, p. 48.

9- PasqualeStanc et Pier Luigi Luisi, «Construire un cellule de toutes pieces», La Recherche, octobre 2010, p. 48.

10- M.J. Whitehouse et al., Journal of the Geological Society, 166, 335, 2009.

11- M.A. Van Zuilenet al., Nature, 418, 627, 2002.

12- D. Papineau et al., Nat. Geosci., 4, 376, 2011.

13- J.W. Schopfet al., Nature, 416, 73, 2002.

14- M.D. Brasier et al., Nature, 416, 76, 2002.

15- J.M. Garcia-Ruiz et al., Science, 302, 1194, 2003.

16- S. Derenneet al., Earth and Planetary Science Letters, 272, 476, 2008.

17- E. Gérard et al.,PLoS One, 4, e5298, 2009.

18- S. Bernard et al.,Geochimica et Cosmochimica Acta, 74, 5054, 2010 ; M. Galvez et al., Geobiology, sous presse.

مشروع فتح روضات لتعليم الأجنَّة

د. ناصر ملوحي ✿

تؤكد التجارب البشرية التاريخية بأنَّ القوة العسكرية تستطيع أن تنتصر بعض الوقت ولكنها تفشل في معظمه، لأنَّ السيرورات الحضارية الإنسانية لاتخلد إلا قوة الكلمة والفكر والثقافة التي تشع نوراً وتنشر خيراً على جميع الناس من مختلف الأعراق وفي مختلف الأمكنة والأزمنة، وتهمل كلمة القوة وبطش العسكر وغطرسة المستكبرين، فالقانون القرآني الخالد يصرح بأنَّ ما ينفع الناس يمكث في الأرض بينما الزبد يذهب جفاء.

وانطلاقاً من (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) علينا توضيح بأنَّ كلمة (قوة) هنا غير معرَّفة لأنَّها عامة تشمل كل المكونات الحضارية والعناصر الثقافية التي تعطي التقدم الشامل وتمنح المجد والتفوق للأمة والمجتمع، بينما يكون إعداد القوة العسكرية بكل عزم وجهد وتخطيط ضمن إستراتيجية رادعة للأعداء بحيث تحمي وتصون المنجزات والمؤسسات والمشاريع الحضارية من الجو والبر والبحر من عبث وإجرام ووحشية الدول الرأسمالية الجشعة المتقدمة تكنولوجياً والمتخلفة ثقافياً وإنسانياً كالولايات المتحدة الأمريكية في عصر عولمة الحضارة الغربية (الرجل المريض).

وهذا يحتم علينا بكل فعَّالية البدء بنشر التعليم من المهد إلى اللحد وتوسيع مجال الثقافة العلمية وإخراجها من نطاق المختصين والباحثين وبثها للجمهور العريض من الفئات العمرية والدرجات التعليمية

✿ باحث علمي وطبيب أخصائي بأمراض الأنف والأذن والحنجرة وجراحتها.

كافة بحيث تصل أمتنا العربية إلى مرحلة تاريخية متطورة نشطة ليس فيها إلا عالم أو متعلم حسب الحديث النبوي الشريف وبالتالي نجعل المعرفة العلمية المبسطة تتعشق النسيج الاجتماعي الشعبي بحيث تلج العقل الجمعي العام لتصل إلى مستوى أهمية الهواء الذي نتنفسه والماء الذي نشربه فالمعرفة قوةٌ حضارية وسِعَةٌ في عمر المجتمعات البشرية.

حواس الجنين

نحن نعرف أنَّ آلية التعليم العام هي تقديم معلومات عامة من البيئة الخارجية المحيطة بالإنسان إلى الأنظمة الحسية المتعددة التي تنقل المعلومات إلى الجملة العصبية المركزية حيث تتم معالجتها وتخزينها وإصدار الأوامر والتعليمات الحركية والحسية والداخلية المناسبة.

ونحن نعلم من دراسة الجنين البشري في علم الجنين الطبي العام والخاص أنَّ حواس الجنين تبدأ في التكون بشكل تدريجي في الأسابيع الأولى من الحمل وتصبح كاملة التشكل وجاهزة لتلقي المعلومات في نهاية الشهر السادس من الحمل.

١- حاسة السمع:

- تبدأ بالتكون في الأسبوع الثالث وتنتهي في منتصف الحمل، والجنين يسمع اعتباراً من الشهر السادس.

- حساسية الأذن البشرية للأصوات هي ٣٢- ١٨٠٠٠ هرتز بينما الجنين حساسيته أقوى بحوالي عشر مرات (١٦- ١٨٠٠٠٠) هرتز لكونه مغموراً في السائل الأمنيوسي حيث يستفيد من سرعة الصوت في السوائل، أو ربما لأن الجنين يسمع بوساطة الجلد لأنَّه أوَّل ما يتنبه من أعضاء الحس، وهكذا تكون للجنين قدرات سمعية مثل القدرات التي تملكها بعض الثدييات البحرية كالدلافين والحيتان.

- الأجنَّة تملك ذاكرة أولية سمعية لصوت الأم وصوت نبضات قلوب الأمهات، إحصائياً:

أ- الهدوء والنوم يحصلان عندما نسمع الأجنَّة أشرطة تسجيل لأصوات نبضات قلوب الأمهات.

ب- ٨٠٪ من الأمهات يضعن الرضيع على اليد اليسرى بجوار القلب.

- موسيقى هادئة (تربية الجنين موسيقياً اعتباراً من الشهر السادس من الحمل) ← هدوء ونوم الجنين.

- موسيقى صاخبة ← زيادة حركات الجنين ← إجهاض أو ولادة مبكرة.



تأثير الضجيج على الجنين

الضجيج أحد ملوثات البيئة يؤثر سلباً وسوءاً على الجنين بآلية غير مباشرة بوساطة الأم التي يزداد إفراز هرمون الأدرينالين عندها، لانزعاجها من الضجيج، وآلية مباشرة لأنَّ الجنين يسمع في بطن أمه اعتباراً من الشهر السادس حيث إنَّ حساسيته للأصوات أقوى بحوالى عشر مرات من الكبار لكون الجنين يسمع وهو مغمور في السائل الأمنيوسي فيستفيد من سرعة الصوت في السوائل.

٢- حاسة البصر:

- الرؤية أبطأ من السمع في النمو، يتأثر الجنين بالضوء اعتباراً من الأسبوع السادس، توجيه ضوء مباشر على بطن الأم← يستجيب الجنين ويحول رأسه غالباً ويتحرك.

- حركات العينين تأخذ شكلاً سريعاً (REM) عند الجنين كما عند البالغ← الجنين يحلم ولكن بماذا يحلم؟

٣- حاسة الذوق والشم واللمس:

بدايات النظام الذوقي للجنين← استجابة للمواد الحلوة والتوابل التي تتناولها الأم والتي تمر عبر السائل الأمنيوسي.

- حاسة الشم تعمل عند الجنين، فالجزيئات الروائحية المتطايرة تذوب في المخاط المائي في الأنف عند الأم مما ينبه مستقبلات البصلات الشمية، وإنَّ الجنين يتمكن من شم العطر الذي تتعطر به أمه إذ يبدو أنَّ العضو الميكمي الذي يختفي لاحقاً يشارك في التشمم الجنيني.

- إنَّ الحاسة اللمسية الجلدية هي أوَّل حاسة تتنبه عند الجنين.



الجنين بعمر ٧ أشهر وشخصيته تكونت وتميزت منذ شهر.

الجنين تلميذ داخلي في المدرسة الرحمية

(مشروع فتح روضات لتعليم الأجنة)

- الجنين ينمو وفقاً لبرنامج وراثي منظم لتطوره البيولوجي في بيئته الداخلية الذي يكتمل في نهاية الشهر السادس من الحمل.

- يبدأ التكوين النفسي الثقافي للجنين- بعد الشهر السادس من الحمل- وفقاً لبرنامج حضاري في البيئة الخارجية بما يحويه من منظومة ثقافية وفكرية واجتماعية وعوامل نفسية وعائلية..

١- الجنين يمتلك طاقات عقلية وقدرات كامنة يجب البدء في تنشيطها تربوياً وثقافياً خلال فترة الثلث الأخير من الحمل في أماكن مجهزة علميّاً وفنيّاً (روضات لتعليم الأجنة) بوساطة تنشيط حاسة السمع لدى الجنين بشكل مبرمج ومدروس من قبل الأطباء الأخصائيين والباحثين في علم النفس وقضايا التعليم، فمن المهم توسيع نطاق اهتمامنا من تطوير العلاج والوقاية للأمراض التخصصية التي تهم فئة قليلة من المجتمع إلى التركيز على الوظيفة الإستباقية الإنمائية التي تحص كل المجتمع بتشجيع صناعة العقول بتفعيل حاسة السمع بالتعليم عند الجنين وفق برنامجنا الحضاري وهذا أهم من تجميل أنف مشوه أو استئصال ورم في هذه الظروف الدولية.

٢- جذور الاضطرابات النفسية (العصاب، الهيستريا، الاكتئاب..) والشخصية (جنوح، عنف، جريمة..) تنمو في الحياة الرحمية غير المستقرة نتيجة الحياة العائلية والاجتماعية السلبية..



جذور الاضطرابات النفسية والعاطفية والشخصية تنمو في الحياة الجنينية غير المستقرة نتيجة الحياة العائلية والاجتماعية السلبية والفاقدة للسكينة والمودة

أ- تقنية التعليم العام:

معلومات أساسية ← أنظمة حسية ← الجملة العصبية.

ب - ماذا يمكن أن نعلم الجنين؟

١- للاكتساب اللغوي ← يحكى له مجموعة من القصص الصغيرة المعبرة

بصوت واضح لتدريبه على اللغة لأنّ النظام العصبي لمعالجة الإشارة الصوتية (اللغة) ينشط عند الجنين في الثلث الأخير من الحمل.

٢- للتواصل الصوتي معه← موسيقا هادئة وأنغام خفيفة (صوت الأم أو الأب..).

٣- للتعليم الثقافي واللغوي←

أ- أناشيد خفيفة للأحرف العربية الأبجدية بأسلوب واضح.

ب- أناشيد تربوية بلغة بسيطة واضحة.

جـ- البدء بتعليم القرآن الكريم للجنين بوساطة الكمبيوتر أو أشرطة التسجيل

الرضيع بعمر ساعات يستطيع أن يميز لغته الأصلية عن عدة لغات



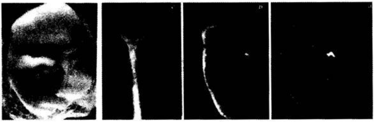
فالرضيع مبرمج بيولوجياً لتمييز المؤشر الصوتي الذي يصل إليه حيث أنه يستطيع أن يفرق بين لفظ B - P.

ومن أجل اختبار استعداد الرضع في معرفة اللغة التي يتكلمها الأفراد في محيطهم، وتمييز الفونيمات، والمقاطع اللفظية أو الوحدات النظمية، يلجأ الباحثون إلى رضاعة موصولة إلى جهاز يسجل شدة المص. يجري إسماع الرُضع أصواتاً منطوقة بل ملفوظات. حينئذ ترتفع شدة المص التي تنخفض حينما يكون هناك (تعود) لترتفع فجأة حينما ينتبه الطفل إلى إشارة تبدو له مختلفة عن الإشارات الأخرى.





تظهر المقاطع العرضية للصورة ثلاثية الأبعاد (3D) تفاصيل شديدة الدقة لباطن المضغة البشرية بعمر ٤٤ يوماً بعد الإخصاب (المضغة بحجم حبة الفاصولياء البيضاء تقريباً).



فحص بطريقة MRM لتطور الأنبوب العصبي عند مضغة بشرية عمرها ٤٧ يوماً.

استبصار الأجنة البشرية بتقنية الإستجهار بالرنين المغناطيسي لكشف نمو الجنين بطريقة ثلاثية الأبعاد
Magnetic resonance microscopy (MRM)

ما الهدف من تعليم الجنين؟

هدف ثلاثي الأبعاد:

١- فردي:

- زيادة المعلومات ←زيادة الفعالية والحيوية (رياضة عقلية).

- نقص المعلومات← سكونية وخمول (بلادة فكرية).

معلومات← تفعيل الأنظمة الحسية← تنشيط تفاعلات الكيمياء الحيوية وإطلاق السيالات العصبية الكهربائية← زيادة إفراز الهرمونات العصبية الموضعية (النواقل العصبية)← زيادة تشابك الخلايا العصبية بالإستطالات والدارات الكهربائية الحيوية← تفعيل العمليات الإستقلابية في مجمل الخلايا البشرية وتنشيط الدورة الدموية في كل الأجهزة← زيادة قوة التطور الفكري والعصبي والجسدي.

٢- اجتماعي:

- تشجيع وتوسيع التعليم ليشمل مختلف الأعمار من المهد إلى اللحد.

- تنشيط البيئة الاجتماعية الساكنة والاستهلاكية.

٣- حضاري:

- مقياس التمييز واختلاف المستوى الحضاري بين المجتمعات هو مقياس عقلي وفكري وعلمي وإنساني لأنَّ إمكانيات الأمم تتساوى في الأصل برصيد الطبيعة ولكنها تختلف ثقافياً واجتماعياً وعلمياً.

لا وجود حضاري لنا إلا بالاعتماد على أنفسنا بالدرجة الأولى وليس بالتباكي عند الأمم المتحدة مثلاً: معركتنا مع إسرائيل وجود حضاري وليس حدوداً جغرافية.

- الإنتاج العلمي في الوطن العربي

(٣٠٠مليون) يعادل ٧٢٪ من إنتاج إسرائيل (٤- ٥مليون).

- ١٨٠٠ شركة أبحاث وتطوير علمي في إسرائيل بينما يوجد في الوطن العربي أكثر من ١٠٠٠ مركز علمي إضافة إلى أكثر من ١٥٠ جامعة.



الجنين بعمر٩ أشهر بعد التلقيح

الأطفال الموهوبون[1]

داميان ماسكره[2]
ترجمة: د.ماري شهرستان ✿

التعبير «surdoué» في اللغة الفرنسية لفظة جديدة استخدمت لأوّل مرة في جنيف عـام ١٩٤٦م من قبل طبيـب[3] لتعيين زمر من الأطفال صنفهم كالتالي: «يدعى الطفل فائق الـذكاء الـذي يمتلك كفـاءات عليا تتجاوز بشـكل واضح وسطي معدل قدرات الأطفال في مثل سنه».

وبعد أن ظلّ مستوى الذكاء لفترة طويلة رهـن التقديـرات الشخصية (مـن آباء أو معلمـين) أصبح لـه اليوم أنـواع كثيرة من الاختبارات وهي تجـرى بغية التقصي عن الموهوبـين وتسمى اختبـارات الذكاء وهي عديـدة منها: اختبـارات دافيـد فيكسلر David Wechsler المختص بعلم النفس واختباره يجـرى للأطفال الصغار قبل سن المدرسة ويسمى اختباره WPPSI، واختبار للأطفال بـين سن السادسة والسادسة عشر ويدعى بالرمـز WISC واختبار WAIS وهو للبالغين.

لا يوجـد إجمـاع حـول الحـد الأدنى الواجـب على الفـرد طفـلاً كان أم بالغاً، تحقيقه كي يعتبر موهوباً: فمجمل الدراسات العلمية الصادرة حول هـذا الموضوع تشير إلى حـد أدنى من معدل الذكاء quotient intellectuel QI يـتراوح بـين ١٣٠ إلى ١٧٠، غـير أن هناك بعض الجمعيات تتبنى الرقم ١٣٢ وبعضـ المختصين بعلم النفس يقترحون المعدل ١٢٠ وما فوق لاعتبار الفرد فائق الذكاء.

هنـاك في الأوسـاط الشعبية اختلاط

✿ مترجمة وباحثة.

في مفهوم التعابير المتشابهة لتعيين مستوى الذكاء:

- طفل مبكر النضج أو ناضج قبل الأوان précoce.
- طفل موهوب doué.
- طفل فائق الذكاء surdoué.
- طفل ذو طاقة كمونية عالية haut potentiel.
- طفل خارق أو عبقري prodige.
- طفل ماهر virtuose.
- وطفل نابغة génie.

الطفل الناضج قبل الأوان précoce هو الذي يكون نموه متقدماً على الأطفال من السن نفسه، والذي يستوعب أسرع من غيره والقادر على حمل أفكار قبل السن الاعتيادي. لكن ذلك لا يضمن أبداً أن يصبح هذا الطفل فائق الذكاء حتى لو احتفظ بطاقته مستقبلاً وكان معدل ذكائه فوق ١٣٠.

أمّا الطفل الموهوب doué فهو ذو ذكاء أعلى من المعدل الوسطي: يضعه الاحصائيون بين ١١٠ و١٣٠ حيث إن المعدل الوسطي للذكاء وفق اختبارات فيكسلر Wechsler هو بين ٩٠ - ١١٠.

والطفل فائق الذكاء surdoué يمتلك ذكاءً استثنائياً يتجلى بإنجازات استثنائية. ويكون معدل الذكاء عنده دوماً أعلى من ١٣٠. وتجدر الإشارة إلى أنّ معدل الذكاء الذي يرمز إليه: بـ«quotient intellectuelQI» ليس مرجعاً كافياً لتصنيف الأطفال والأفراد ضمن زمرة معينة إن لم يكن مرفقاً ببيان نفسي كامل قد تمّ إجراؤه من قبل مهنيين كفوئين. فبالنسبة إلى بعض الباحثين الطفل فائق الذكاء هو الذي يمتلك إمكانات نادرة وخاصة في مجالات عديدة، وبالنسبة إلى بعضهم الآخر الطفل فائق الذكاء هو الذي يمتلك معدل ذكاء أعلى من ١٣٠. ويعتقد الباحثون أن مثل هذا الطفل يمتلك إيقاعاً عالياً في التطور الفكري أعلى من الاعتيادي في مثل سنه بينما يكون نموه العاطفي والنفسي - الحركي مناسباً لسنه.

والطفل «الخارق أو العبقري» prodige هو الذي يُظهر كفاءات معادلة لكفاءات البالغين في عصره، فعلى سبيل المثال، ألّف موزار Mozart أعمالاً موسيقية معقدة وهو في سن مبكرة جداً.

أمّا الطفل «الماهر» virtuose فيتميز عن الآخرين بتحقيق أعماله بمهارة وغالباً في الميدان الفني (موسيقى ورسم) كما في ميادين أخرى.

إن ذكاء الأطفال الموهوبين ليس متفوقاً فقط بل هو مختلف ويعمل بطرق مختلفة

ومتميزة جداً. لكن كيف نعرف أن طفلنا هو طفل موهوب؟

كل طفل من أصل أربعين طفلاً يكون موهوباً، لكن ثلثهم من الفاشلين في المدرسة.

«هل ترى، إن الله هو الذي خلق الأرض والجبال والماء.. وهذا خير وإلا لكنا في الفراغ!» هذه الملاحظة التي صدرت عن صوفي Sophie، طفلة بعمر السبع سنوات إلى شقيقتها الصغيرة، تبين تماماً أصالة فكر الأطفال المتفوقين بالذكاء. لصوفي معدل ذكاء[4] QI ١٥٢. ويعتبر متفوق الذكاء انطلاقاً من ١٣٠. وهم أطفال ذوو ذكاء ليس مختلفاً فقط من جهة المعدل، بل من ناحية البناء والانفعالات.[5]

البناء الهندسي الدماغي

Architecture cérébrale

المتفوقون- والأفضل هو التعبير: «أطفال ذوو طاقة كامنة عالية»- يبدون وكأنهم مجهزون بحاسوب من الجيل الأخير وبمنسوب عالي المستوى حيث يحظى الآخرون باتصالات أكثر تقليدية وبتجهيز أكثر تواضعاً. «يمتلكون بناء دماغياً مختلفاً لكن على الأخص آلية عمله هي المختلفة بسبب فرط الاتصالات بين الشبكات العصبونية. الفكر أكثر إبداعاً وأكثر تعقيداً وترابطاً مع العواطف والانفعالات، لكنه أكثر صعوبة بالتنظيم والبناء».[6]

لا ينتبه الأبوان بسرعة لهذا الأمر لدرجة يمكن فيها أن يهمل التشخيص خصوصاً عندما يفشل الطفل (الموهوب المجهول) في المدرسة، وهذا ما يحصل لكل متفوق بالذكاء من أصل ثلاثة. وتؤكد الدكتورة سيلفي توردجمان Dr Sylvie Tordjman (٧) أن «الفكرة الشائعة التي تواجهنا في أغلب الأحيان وتضللنا إن في التربية الوطنية أم من جهة ممتهني الصحة، هي الاعتقاد أن الطفل الموهوب ذا الطاقة الكامنة العالية هو حتماً متفوق مدرسياً». فالأطفال ذوو الذكاء المرتفع يمكن أن يواجهوا صعوبات في الدراسة، وليس كل الأطفال الذين يواجهون صعوبات هم موهوبون.

شيوع فكرة معرفة الغير

وتشرح الأستاذة الممارسة في علم النفس العصبي لورنس فيفر - دوري[8]: le Pr Laurence Vaivre-Douret «للتمكن من مساعدة وإرشاد الأطفال بطاقاتهم الكامنة»، ينبغي فهم أسلوبهم الخاص بالتفكير والعمل. «فعلى سبيل المثال، هؤلاء الأطفال يفهمون الأمور بسرعة لذلك فهم سوف يكوّنون رأيهم على الفور، برجاحة في المنطق وبحسّ نقدي نام جداً.. لكن ذلك يمكن أن يزعج، وحتى أنْ يؤرق المحيط».

وتنبّه الدكتورة توردجمان Dr Tordjman من مغبة التركيز على وضعية الأطفال كمتفوقين كي نجنبهم الاعتقاد بأنهم سيُعرفون وفق هذا المعيار. «لا ينبغي أن تصبح طاقتهم الكامنة العالية إعاقة تساهم في تهميشهم». أمّا جان سيو-فاكشان Jeanne Siaud-Facchin فتقول: «إن فرادة الآلية الذهنية والمعرفية عند هؤلاء الأطفال تسمح لنا بفهم لماذا يمكن لهم أن يواجهوا صعوبات في المدرسة على وجه الخصوص».

لأنهم بالإضافة إلى كفاءاتهم الذهنية العالية والتي هي أعلى من الوسطي، هناك خصوصية عند هؤلاء الأطفال تظل في أغلب الأحيان مجهولة: وهي فرط حساسيتهم وردود فعلهم الانفعالي. «وهو أمر معروف تماماً لدى الاختصاصيين، وقد أيدته العلوم العصبية»[٩]. «ترهة أو حادثة بسيطة قد تسبب لدى هؤلاء الأطفال صدمة نفسانية. فهم يلتقطون أدنى تغيير في العالم المحيط بهم ويتمتعون بمعرفة للغير قد تصل إلى حد مزعج»[١٠]. وهم حساسون جداً تجاه الظلم، وذوو فضول ملحٍّ لا يُروى، ويرغبون بالقيام بأمور عديدة في آن معاً، ويتمتعون بذاكرة استثنائية، وطاقة مفرطة وفي أغلب الأحيان لا يحتاجون إلى نوم مديد، وهو في الحقيقة حال مزعجة للغاية. «ويتساءل هؤلاء الأطفال حول كل النظم والقوانين[١١] لأنهم ينشدون الفهم من جهة كما يستمتعون بالتبادل الفكري بالمقدار نفسه».

ظهور البوادر عند الأطفال الرضع

والمدهش في الموضوع أن للأطفال الرضع الموهوبين سلوكاً متميزاً، وتشير الأستاذة لورنس فيفر- دوري Pr Laurence Vaivre-Douret المتمتعة بخبرة كبيرة في علم الكائن وفي الأمومة، إلى أن: «للرضع نظرة مقارعة ومستقصية. فإلى هذا النضج الحركي- البصري المبكر يضاف نوع من الانضباط على صعيد الحس الوضعي. فهم يجلسون مبكراً ويمشون قبل غيرهم من الأطفال، ويتدبرون أمرهم بإيجاد الوسائل اللازمة للقيام بذلك بمفردهم. يبدو أن التواصل في الشبكة الدماغية يحصل عندهم بشكل مبكر. لكن هناك محذور من التمتع بشبكة اتصالات أكثر سرعة وأكثر تنوعاً: إذ عندما يكون لديكم محرك فيرّاري وينبغي عليكم ان تقودوا السيارة في المدينة بسرعة الآخرين نفسها قد يصبح الأمر محبطاً في كثير من الأحيان!»

معدل الذكاء

إن المعدل الوسطي الإحصائي للذكاء المقاس بالمعدل الذهني (QI) هو ١٠٠. يملك الموهوب من حيث المبدأ معدلاً ذهنياً ١٣٠ على أقل تقدير. ويقدَّر أن ذلك هو

حال ٢،٢ من الناس، لكن الاختصاصيين يفضلون في الوقت الراهن التحدث عن مؤشر يوجّه التشخيص.

إن تحديد هذا المعدل هو مرحلة حتمية وضرورية لكنها غير كافية، حتى لو أن السلالم التي تسمح بتحديد معدل ذكاء الأطفال تتطور بانتظام وتكشف مختلف مكونات الذكاء. هناك بعض النماذج التي تقدّم تفاصيل تصل إلى سبعة أنماط من الذكاء (اللغوي، في المنطق- والرياضيات، المحيط، الموسيقي، الحس الجسدي، عبر- الفردي، الاستبطاني) وكل طفل يبدي في آن معاً مناطق كفاءات ومناطق ضعف. إنه من المستحيل أن نحوِّل الطفل إلى رقم حتى إلى رقم معدل الذكاء.

وتزداد طلبات المعاينة لدى الأطباء النفسيين بقصد السؤال: «هل ابني عبقري؟» وتصرِّح المحللة النفسية ماريكا بيرجس – بون في كتابها أن الأهالي الذين يراجعونها مضللين جراء سلوكية ولدهم المتوترة معتقدين أنها دلائل عبقرية مبكرة: «إنه يثور ويضجر، وهو صعب المراس في الصف ولا يستمع للمعلمة.. فهو فائق الذكاء إذن!» تكون هذه الطلبات مبررة أحياناً لكن في أغلب الأحيان يعتقد الأهل أن ابنهم معجزة إلا أنهم يخطئون.

ففي دراسة أقيمت في قسم الأمراض النفسية عند الطفل والمراهق[١٢]، لم يظهر عدد كبير من الأطفال الذين تمّ فحصهم متفوقين بالذكاء، بل كانوا أطفالاً لامعين، بالمختصر كانوا طبيعيين، و٢٪ منهم كانوا مصابين بالذهان psychotiques!

ويتهافت الأهالي على المختصين النفسيين المكلفين بإجراء اختبار الذكاء[١٣] وينتظرون بقلق ظهور الرقم السحري الذي يدل على معدل الذكاء الاستثنائي الذي يفوق ١٣٠ أو ١٤٠. أمّا المحللون النفسيون فيرون الأهالي «أسرى لأيديولوجية» تتعلق بنتيجة الاختبار في تقدير الخصائص الفكرية والنجاح المدرسي، فيحوِّلون طفلهم من دون أن يدروا إلى حصان سبق في تجربة ضد الزمن. فهو بالنسبة إليهم، منذ وضعه في مركز حضانة الطفولة ينبغي أن يكون في المقدمة كي لا يتأخر![١٤]

تظهِرُ الملاحظات التجريبية للمؤلفين[١٥] الذين أصدروا كتباً حول هذا الموضوع خصائص مشتركة عامة عند الأطفال ذوي الذكاء المرتفع:

– فضول وتعطش للتعلم، يطرحون الكثير من الأسئلة، وقادرون على اكتساب معارف بوسائلهم الخاصة.

– يستطيعون التمييز وإعادة استخدام المفاهيم والإستراتيجيات لحل المسائل.

- اهتمام لبعض المواضيع قد يصل مؤقتاً إلى مستوى استحواذي.

- تعلم القراءة مبكراً جداً وأحياناً من دون مساعدة أحد.

- حساسية مفرطة (وغالباً لا يتم ملاحظتها خارجياً).

- إيثارية، أي حاجة حميمية لمساعدة الآخرين (وهو الأمر الذي يدفعهم باتجاه المهن في الميدان الصحي).

- مزاج يدفعهم نحو الوحدة.

- حس مرتفع فيما يخصّ العدالة.

- قدرة كبيرة على الانتباه.

- نضج فكري عالي المستوى مقارنة مع غيرهم من الأطفال في مثل سنهم.

- انفعالية أو نمو نفسي- حركي يكون أحياناً في تفاوت مع النضج الفكري (تظهر الصعوبة في الكتابة والإلقاء).

- حس الفكاهة، وعلى الأخص السخرية والتهكم.

- حس الإيقاع والتآلف في الأنغام وحس الجمال.

- يمتلكون ذاكرة قوية جداً، ومقدرة على متابعة حديث مع القيام بعمل آخر.

- سهولة كبيرة في تبرير سلوكياتهم استدلالياً.

- يقرؤون كثيراً وسريعاً بما فيها الكتب المعقدة، كما عندهم شغف بالألعاب المعقدة.

- يهتمون بأصول الإنسان والكون، وعصور ما قبل التاريخ، والتاريخ وخصوصاً القديم منه، كما يهتمون بالمجتمع والعلوم.

- يبدون اهتماماً كبيراً ومبكراً بالموت، وبالمواضيع الأخلاقية والفلسفية والماورائية والسياسية. غير أنهم قد يهتمون بموضوع خاص لدرجة الهوس ثم يغيرون رأيهم فجأة.

- قد يهتمون اهتماماً تفصيلياً ودقيقاً بمجال وعدة مجالات فنية مثل الرسم والموسيقى.

- الحياة العلائقية: يواجهون صعوبات في التكيّف والاندماج ضمن المجموعات وهم قد يثيرون اهتمام بعض الناس ونفور البعض الآخر. يبحثون عن أطفال أكبر منهم سناً بغية مرافقتهم ويحبون محادثة البالغين.

- يجد هؤلاء الأطفال صعوبة باتخاذ قرارات تواجه مسألة لا يمكن حلها إلا بالمنطق وحده: كالمسألة العاطفية أو النفسية على سبيل المثال.

من وجهة نظر التحليل النفسي، يعتبر هذا التفوق ظاهرة تعزى إلى أطفال يتجاوز نضجهم الفكري مستوى بقية الأطفال الذين في مثل سنهم ويتم اعتبار هذه الظاهرة بالمستوى نفسه الذي تعتبر فيه كل التغيرات المؤلمة التي تطفح عن الحد الطبيعي لأن ذلك يشكل غالباً إعاقة للتكيّف المدرسي،

لهذا السبب فالتفوّق عرَض.. ولهذا السبب أيضاً هم بحاجة لخدمات ونشاطات غير متوافرة في المدارس العادية.

لقد تمّ إنشاء مدارس خاصة بالتلاميذ ذوي الذكاء الاستثنائي. ومن تعليقات أحد تلامذة هذه المدرسة يقول: «قبل الدخول إلى هذه المدرسة، لم يكن باستطاعتي متابعة الدروس لأنها كانت مملة في الصف، وكان زملائي ينعتوني بال«ذكي»، أما هنا فالأساتذة أكثر اهتماماً ولا يتوانون عن تقديم شروح معمقة في كل المجالات. فمنذ الصف السادس الابتدائي وبناء على طلب العباقرة الصغار يقدمون دروساً وشروحاً حول العبادات اليونانية القديمة ومعادلات في الرياضيات بمجهولين أو حول الصفائح التكتونية.. ويحاول المعلمون إيجاد توازن في التفاوت الشائع عند الأطفال الأذكياء وهو تفاوت بين مقدرة ذهنية تقارب ذهنية البالغين وسلوكية لا تزال طفولية ومضطربة أحياناً».

ويعتبر بعض الاختصاصيين وبعض المدرسين أن النظام المدرسي لا يسمح بالنمو الأفضل والمثالي لمعظم الأطفال. حيث إن تعليم معظم الأطفال يستند إلى التكرار حتى استيعاب المعارف التي ينبغي اكتسابها. فقدرات الذاكرة والقدرات المعرفية الخاصة بالأطفال الموهوبين تتيح لهم اكتساب معلومات جديدة في وقت قصير وغالباً من دون الحاجة للتكرار القاسي والمستمر. فبينما يكون التلامذة قيد مراجعة وتكرار الدرس الذي لم يستوعبوا معناه بالكامل بعد يكون الطفل الموهوب قد فهم المعنى الكامل واستوعبه وحفظه.

قد تصبح هذه الحالة سبباً لمسائل مستقبلية لأن الموهوب لا يتعلم طرق العمل وعندما لن تسمح له قدراته المعرفية باستيعاب سريع، سوف يشعر بالضياع.

وعلى الرغم من الاختلاف قد اعترف به منذ بداية القرن العشرين لكن لم ينظر إليه على أنه يستوجب تدابير خاصة. وفي دراسة لكارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung قام بها في بال Bâle عام ١٩٤٢م ونشرت عام ١٩٦٢م يقول فيها: «في صف خاص بالموهوبين، يتعرض الطفل لخطر النمو من طرف واحد من دون مبادلة. بينما على العكس من ذلك، في صف طبيعي، سوف يضجر هذا مؤكد عندما يتم طرح المادة المتفوّق بها، لكن دراسة الآخرين تذكره بتأخره وهذا الأمر مفيد جداً بالنسبة إليه وضروري من وجهة النظر النفسية.

ولبعض المربين رأي في هذا الموضوع فقد صرح أحدهم: «لا أعلم إن كان هناك أطفال عباقرة، أعرف فقط أن هناك آباء وأمهات لأطفال فائقي الذكاء»، وهو يريد

بذلك القول متهكماً أنَّ هؤلاء العباقرة ليسوا سوى تلامذة بالَغَ أبواهم بتقييمهم!.».

المظاهر المرضية ليست مظاهر عبقرية

قد نجد في محيطنا أحياناً أو في المطاعم أو في الأماكن العامة أطفالاً يركضون بسرعة بين الطاولات وكأنهم طائرة هيليكوبتر وهم يصرخون أو يقاطعون أحاديث أبويهم الذين يبدوان منهكين لكنهما معجبين بهذا المقدار من الطاقة.

هؤلاء الأطفال هم أطفال «مضطربون» أو «مهتاجون» أو «شكسون». ومنذ بضع سنوات، ووفقاً لقائمة المعاينة السريرية DSM IV للطب العقلي والنفسي الأمريكي، يتم وصف بعض منهم بالـ«فـرط الحسّي- الحركي». ويسمون بالـ«THADA» » وهذا يعني أن يكـون هؤلاء الأطفـال مصابين باضطراب فرط نشـاط مع تراجـع في الانتباه ويقدَّر عددهم بين ٣٪ إلى ١١٪ من الأطفال.

أمـا المسألـة المطروحة لـدى المحللين النفسيـين وعلماء النفـس الذين يستقبلون الأطفـال المهتاجين المزعجـين هي معرفة أين ينتهي الحـد الأقصى من حاجة صرف الطاقة، الجانـب «اليقـظ والنامي» الذي يعبـده آباء اليوم!.. وأيـن يبدأ الاضطراب عند الصبية الصغـار (وهل فرط النشاط هو حالة نـادرة عند البنـات الصغيرات؟)

وكيف يتم تقييـم هذه السلوكيـات عندما نلاحظ أن الطفل نفسه لا يتذمر أبداً منها، ولا يطلـب المعالجة، لكن المدرسة فقط هي التي تطلب، وهذا الأمر نسبي ومتغير حسب المدرسين أو الأبوين؟

كل هذه الأسئلة تطرحها المحللة النفسية ماريكا بيرجس- بون Marika Bergès-Bounes التـي قامت بإدارة عمل جماعي مثير (مؤلَّـف) حول موضوع الطفل الذي لا يطاق أو ما يسمى الطفل المتشيطن.

«لا تنسوني»

« إنهـم مرضى يأتون للمعاينة لكنهم قد أجروا التشخيص! ومن دون أن يحسّوا، ومع مر السنـين، انتقلوا مـن اضطراب حركي بسيط إلى «حالة مرضية» ويعانون اليوم من «اضطـراب سلوكي»! بالنسبـة إلينا، هناك ضرورة قصوى لفهم ما هو عرَض على وجه الخصوص، أي ظاهرة مرض». وتؤيدها في هـذا الرأي مازي فارّو Mazy Varraud اختصاصيـة النطق والتلفـظ الصحيح في مركـز نفسي – تربوي في إيفرو Evreux. وتؤكـد أيضاً أنه لا يوجد أطفال لا يطاقون وغير محتملـين، لا يوجد سوى أطفال لم يتم تحملهـم، وعلى الأخـص الأطفال في حالة ارتكـاس لا إرادي. والدليـل أنهم غالباً ما يكونـون هادئين معنا. لكـن يكفي أن يقول لهم أحـد الأبوين «قل للسيـدة إلى اللقاء»

حتى يضطرب ويركض في جميع الأنحاء أو حتى يرتمي تحت الطاولات.

وتذكر الدكتورة قصة الطفل «كيران Kyran» وهو في العاشرة من عمره. فهو عند أبسط ملاحظة من مدرس يحتج ويقوم بالرفس. تناول فريقنا سيرته، وفريقنا هو فريق متعدد الاختصاصات، ولاحظ أن كيران قد تمّ إيداعه في مركز رعاية لأن أبويه قد أساؤوا معاملته نفسياً. لكنه كان يتمنى رؤيتهم دوماً على الرغم من غضبه منهم. هذا الغضب هو الأساس والخلفية التي كانت تظهر عند أدنى مناسبة.

إن فرط التوتر الحركي L'hypertonicité motrice هو إذاً الحالة التي ينبغي أن ينظر إليها كمؤشر. «فهي حالة تريد أن تقول شيئاً ما عن اقتصاد العائلة أو عن الصف». إنها مسألة مكانة بشكل خاص؛ قد يكون لهم أخ صغير وُلِدَ منذ فترة قصيرة، أو أن الخلاف قد احتد بين الأبوين.. على أي حال لهؤلاء الأطفال المزعجين هوس وهو أن يتحدث الجميع عنهم، وأن يلفتوا انتباه أبويهم لوجودهم بطريقة كأنها تريد أن تقول: «لا تنسوني! أنا هنا». فهؤلاء الأطفال لم يتوصلوا بعد إلى إيجاد مكان يستطيعون التحدث انطلاقاً منه. ولأنهم عاجزون عن صياغة ذلك بكلمات يثورون ويتمردون.

هناك عند بعضهم إرادة لا واعية لإثبات أنهم أحياء، وتتابع المحللة النفسية بقولها: «إن كانت الأم مصابة بانهيار عصبي، أو إن مات أخ لهم.. فهم يستمرون بالصراع ضد هذا الخوف من الموت باحتلالهم ساحة اهتمام الآخرين».

يقوم بعض الأهالي الراغبين بالتخلص السريع من هذه الأعراض بإعطاء أطفالهم الدواء الشهير وهو محرك عقاقيري نفسي يجعل الأطفال هادئين. لكن أغلب المحللين النفسيين يعارضون ذلك ويعملون بعقلية مختلفة تماماً عن زملائهم في طب الأمراض العقلية والنفسية. وتؤكد ماريكا بورجس-بون: «لو أن الهياج الحركي كان مرضاً، فإنه سيُعرَف. والطبيب العصبي- النفسي الشهير هنري فاللون Henri Wallon نفسه لم يكن يعتبره مرضاً طالما أنه يزول عند المراهقة».

وتتذمر اليوم هذه المحللة النفسية مع فريقها في سانت- آن Saint-Anne جراء التصنيف السريع لأطفال رسبوا في المدرسة أو محبطين نفسياً، ضمن «أطفال مصابين بالفرط الحسي- الحركي THADA». «لقد أصبح هذا التعبير شائع الاستعمال بطريقة عشوائية بحيث يشمل أطفالاً من دون التأكد ما إذا كان الاضطراب الحركي قد حصل قبل فقدان التركيز أم بعده».

وقد لاحظت هذه المحللة أيضاً أن العديد من الآباء والأمهات يراجعونها وفي ذهنهم أفكار مفارقة وهي أن يكون طفلهم «مفرط النشاط» أو «موهوب، أي مصاب بفرط الذكاء!» وبرأيها أنه: «في الحالتين، هؤلاء الأطفال هم في حالة تعتبر زائدة عن الحد الطبيعي. وهذا الإفراط قد يكون نتاجاً غير متوقع لمجتمع مفرط في الاستهلاك ومنغمس بتلقيم الأطفال على جميع الأصعدة».

وأشارت المعالجة النفسية دومينيك مازان Dominique Mazin إلى ذهنية الأهالي الذين كانوا يراجعونها قبل عشرين عاماً لاستشارتها بخصوص «طفل شكس»، أنهم كانوا يعتقدون أن طفلهم «عنيد» أو «سريع الغضب». أمّا اليوم فيفضلون استخدام التعبير «فرط نشاط hyperactive» لأن له وقعاً طبيّاً أكثر ويؤدي إلى الاعتقاد بأنّ لا أحد مسؤولٌ عن ذلك. وكانوا يخشون إن هم لم يسارعوا إلى معالجته قد يصبح جانحاً فيشعرون بالذنب والمسؤولية إن هم لم ينجحوا بشيء حياله.

عند الأبوين سلطة لكنها سلطة غير ملائمة ولا وافية بالغرض. فهم يطلبون من الطفل الشيء الكثير وحتى أكثر من اللزوم. فهم يوجهون له أحياناً عشرة أوامر في الدقيقة! على أي حال جزء من عملي هو تعليمهم أن يفرضوا هذه الأوامر بالتسلسل الزمني: فإن تعلم الطفل كيف يلبس وكيف يربط حذاءه أو أن يحترم الضوء الأحمر قبل أن يجتاز الشارع هي تعليمات ليست من المستوى نفسه ولا من القيمة نفسها، لأنّ التعليمات والأوامر التي توجّه لطفل بعمر ثلاث سنوات لا تصلح لطفل في العاشرة من عمره!

وفي أغلب الأحيان لا ينتبه الأبوان للإمكانات المرتبطة بسن طفلهم. من جهة أخرى، مفهومهم للسلطة وكأنها استلام حكم دولة، فيقولون للطفل: «سوف تطيعني لأنني أنا طلبتُ منك هذا» لكن ذلك ليس سبباً وجيهاً! على الطفل أن يدرك بأن الأب أو الأم يأمران كي يحمياه وليس لمجرد تعليمه الطاعة.

هل هذا يعني أن الأبوين هما المسؤولان وقد أساءا التصرف؟

ربما لأن المجتمع اعتاد لفترة طويلة على التسامح والتصالح بما يعني عدم التشدد فلذلك لا يعرف الأهالي كيف يطرحون قوانينهم طالما أن أحداً لم يرشدهم إليها. كما قد حصل أيضاً قراءة لفرانسواز دولتو لم يتم فهمها تماماً أصبح لديهم أولوية في طريقة تفكيرهم وهي: تنبيه الأطفال وتنشيطهم. والنتيجة أن هؤلاء الأطفال أصبحوا منهكين من فرط الانشغال وفرط التنشيط، حيث قد نجد لدى بعضهم أجندة تشبه أجندة

الـوزراء، وفوق ذلك تعود الأم مساءً وترغب في اللعب معهم.. وهؤلاء الأهالي لا يتوقفون عـن التحدث إلى أطفالهم وعـن شرح ما يفعلـون وعـن طـرح الأسئلـة.. فالأهالي مصابون فعلاً بفرط نشاط حركي!.. فلماذا نندهش بعـد ذلك ونتساءل لماذا الأطفال يبدون مضطربـين مزعجين والأصح القول إن الأطفال خضعوا لفرط تنبيه وتحريض!

والحلول؟

ينبغي عدم استثمار الزمن الذي تمضيه الأمهـات مع أطفالهن عنـد عودتهن مساء للتعويض عن زمن افتراضي ضائع في العمل طوال النهار. رغم أنه من الطبيعي الاهتمام بالأطفـال لكـن من غـير المفيـد البحث باستمرار عـن إشغالهم كل الوقت والتفكير عنهم من دون توقف.

أمّـا المعالجـة العائليـة لهـذه الأوضاع فينبغي أن تتم عبر دورات تثقيفية في التربية. فآباء وأمهات اليوم لا يعرفون ما هو الطفل.. فطفل بعمر ثـلاث سنوات ينبغي ألا يشارك في عشاء يقيمه الوالـدان لأصدقائهم! هذا الوقت هو للبالغين وليس للصغار..

المراجع

١- المصـدر: صحيفـة لوفيغـارو ٢٠١١/١١/٠٧م Le Figaro، الموسوعة الحـرة، موقع دوكتيسيمـو Doctissimo، موقع اليونيسكو.

٢- داميـان ماسكـره Damien Mascret، طبيب عام في باريس، وصحافي، حاصل على دبلوم من المعهد العالي للصحافة في ليل. لوفيغارو ٢٠١١/١١/٠٧م.

٣- الطبيب جوليان دي آجورياغيرا docteur Julian de Ajuriaguerra.

٤- QI: quotient intellectual.

٥- وفـق تفسير جان سيو- فاكشـان Jeanne Siaud-Facchin، اختصاصية علم النفس وممارسة سريرية، ومؤلفة «الطفل المتفوق. لنساعده كي ينمو وكي ينجح».

٦- وفق المصدر السابق.

٧- اختصاصية في علم نفس الأطفال في (المركز القومي في رين Rennes لمساعدة الأطفال والمراهقين ذوي الذكاء العالي).

٨- جامعة باريس- ديكارت Université Paris Descartes.

٩- وفق لورنس فيفر- دوري Laurence Vaivre-Douret.

١٠- وفق جان سيو- فاكشان Jeanne Siaud-Facchin.

١١- وفق الدكتورة توردجمان Dr Tordjman.

١٢- في سانت - آن Sainte-Anne في باريس عام ٢٠٠٢م.

١٣- كلفة الاختبار بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ يورو.

١٤- ماريكا بيرجيس- بون Marika Bergès-Bounes.

١٥- إيلـين فيـنر Ellen Winner، تيراسييه J-C. Terrassier، ج.بـيرت J. Bert، آ.آدا A. Adda، جان سيو- فاكشان J.Siaud-Facchin، ب.بلانش P.Planche، د.جاشه D.Jachet.

آخر اكتشاف توصل إليه علماء السلالات البشرية

⚙ إبراهيم سلوم

خـلال عمليـات التنقيـب والحفريات التي قامت بها بعثة علم السلالات المتعددة الجنسيات المؤلفة مـن الأمريكيين: دونالد جونسون وموريسـن تاييب وتوم جاري، ومن الفرنسيين: ايف كوبينـس ولوسي كوبينس، والياباني جن سـوا- عثر هـؤلاء في عام ١٩٧٤م في منطقة (عفـار) بالحبشة على هيكل عظمي مغلف ضمـن طبقة صخرية ذات خطـوط بركانية. وكانت حيرتهم كبيرة جداً في تحديد تاريخه ومعرفة جنسه أذكراً كان صاحبه أم أنثى. وعلى الفور قام عالم التشريح تـوم جاري بإجراء دراسات مطولة عليه ولكنّ مـن دون أن يفلح بكشف هويته أو بتقديـر عمره الزمني مـبرراً مسعاه بأن هذا الهيكل غير كامل ولا يمكن إعطاء حكم دقيق عليـه. وعلى ضوء ذلـك قام بوضعه على الـرّف بانتظار اليوم الـذي ستتم فيه إعادة النظر به من جديد.

لقد ظنّ أولاً بـأن هذا الهيكل يعود إلى الإنسان الاسترالي القديم (أوسترالوبيتيكوس) الـذي عاش منـذ ثمانية ملايـين سنة في أستراليا، والـذي عُثر على الكثير من بقاياه في أنحـاء متفرقة مـن أندونيسيا ومن ثم شرق أفريقيا.

في الواقـع، لقد كانـت أوّل محاولة في العثور على هذا النـوع من الجنس البشري البدائـي (أوسترالوبيتيكـوس) قد حصلت في بدايـة القرن العشريـن وبالتحديد أثناء الاستعمار الهولندي لأندونيسيا عندما عثر عالم سـلالات هولندي على جمجمة تحاكي إلى حد مـا جماجم بني البشر وذلك خلال

⚙ باحث ومترجم سوري.

قيامه بعمليات حفر في جزيرة (جاوا) الأندونيسية.

لقد كانت هذه الجمجمة تتمتع بقسمات إنسانية عديدة تتعلق ببنية المخ حيث تطوّر العظم الصدغي والجبهي على حساب العظم القذالي الواقع في مؤخرة الرأس، وأيضاً بعمود فقري يدل على أن هذا الإنسان كان يمشي على قدمين ولكنْ مع انحناء وتقوس في ظهره. كما وأنه كان يعيش ضمن جماعات متعاونة فيما بينها. وكان يسكن الكهوف، ويعرف استخدام الحجر كسلاح يستخدمه في الدفاع عن نفسه ضد الحيوانات المفترسة التي كانت تتربص به. لكنّ بنيته الجسدية لم تكن بشكل عام متكاملة حتى نستطيع أن نعتبره بأنه محاكٍ للإنسان الحالي وشديد الشبه به.

لكنّ ثمة ظاهرة يجب أخذها بالحسبان وهي أنه كان مميزاً عن فصيلة القرود من الغوريلا والشمبانزي التي كان يتقاسم وإياها طعم الحياة ويعيش معها حياة الضواري. فبفضل بنيته التشريحية وقوامه شبه المنتصب خلافاً للقرود التي كانت تمشي على أربع وهي مقوسة الظهر بشكلٍ تام وفّرت له هذه الميزة القدرة على الترحال والتنقل بسهولة وسرعة من مكان إلى آخر، في حين لم تعرف القرود إلا مكاناً وحيداً ودائماً لسكنها.

كانت تلك هي القناعة التي شكّلها العالم توم جاري لدى اكتشاف فريقه هذا الهيكل العظمي ظناً منه بأنه يعود إلى الإنسان الأسترالي القديم ليس إلا. ولاسيما أن هذا الاكتشاف تزامن مع عثور العالم الجيولوجي الإنكليزي (جون مارتن) على بقايا جمجمة في كينيا كانت مغلفة بالحمم البركانية وتعود أيضاً إلى الإنسان الأسترالي القديم نفسه الذي غادرت طلائع منه منذ ٤ ملايين سنة موطنها الأصلي أستراليا باتجاه الغرب مروراً بأندونيسيا وصولاً إلى أفريقيا لتحط رحالها هناك وتتمتع بطيب العيش في أجوائها المناسبة للحياة. إذن، فليس في الأمر من جديد بالنسبة له.

ومؤخراً، أخرج زميله عالم السلالات الفرنسي ايف كوبينس هذا الهيكل العظمي الذي عُثر عليه في الحبشة من الظل وقام بدراسته مستعيناً بغاز (الأرغون) المشعّ الذي لا يمكن تواجده إلا في الحمم البركانية، والذي يمكن بوساطته تحديد عمر المستحاثات أنّى كانت. وبعد إجراء عدة تجارب عليه استطاع كوبينس أن يحدد عمره ويرده إلى ٣٫٢ ملايين سنة مضت وذلك بفضل التقنية الجديدة في استخدام هذا الغاز الذي لم يكن معروفاً في زمن داروين ولا حتى في زمن توم جاري.

وبعد تفحصه جيداً تبين له بأنه يعود إلى أنثى عاشت منذ غابر الأزمنة وقد

أعطاها على الفور اسم (لوسي) تيمناً بإحدى الباحثات التي كانت تشارك في عمل الفريق. وكانت هذه الأنثى بطول ١،٢٠م، ووزن ٣٥كغ، وبحجم ٤٥٠سم٢. وفي تكوينها التشريحي تتطابق وظيفياً عظام الحوض والأطراف السفلية لها، مع نظيراتها في المرأة الحديثة وهي تماثل الإنسان الأسترالي القديم من حيث السير على قدمين ولكن مع انحناء في الظهر أقل بكثير مما هو عنده، ويرجع هذا لعرض عظام الحوض واتساع مدى الحركة عندها. كان لديها ساقان أكثر قصراً من ساقي الإنسان الحديث، ويدان طويلتان مما كان يساعدها على تسلق الأشجار بسهولة بحثاً عن الطعام. ومن يمعن النظر في هذا الهيكل العظمي كما هو مبين في الصورة المرفقة يرى بوضوح أنّ عظام الذراع الأيمن والأيسر وعظام الساعدين وبعض فقرات الأصابع والترقوة اليمين ما زالت موجودة. كما يرى أن عظام الأطراف السفلية تتكون من عظام العجز وعظمة الحوض اليسرى والفخذ اليسرى والساق اليمنى، إضافةً إلى إحدى عظام مفصل القدم اليمنى وإلى الجمجمة غير المكتملة وبعض الضلوع والفقرات. وبقياسه معدلات انقباض العضلات وطول الخطوات وسرعتها تأكد كوبينس أن لوسي كانت كائناً يتحرك على قدمين بشكل كامل. ولدى إجرائه مقارنةً بين القياسات المترية لبنيتها الجوية وبين تلك العائدة للإنسان الأسترالي القديم، وأيضاً لبنية الشمبانزي والغوريلا وجد كوبينس تطابقاً شبه تام في القياسات بين لوسي والإنسان الأسترالي القديم، في حين كانت القياسات غير متطابقة مع الشمبانزي والغوريلا التي تملك أذرعاً أطول منهما بكثير، وخلص إلى الملاحظة ومفادها: «أنّ اكتشاف لوسي التي عاشت في سهوب أفريقيا قبل حوالى ٤ ملايين سنة حيث كان الطقس دافئاً والحياة النباتية الصالحة للحيوانات وفيرة هو أمرٌ في غاية الأهمية لكونه يدحض نظرية العالم البريطاني داروين (١٨٠٩-١٨٨٢م) الذي نشر في العام ١٨٧٧م كتاباً بعنوان: (أصل الأنواع)، وفيه يتحدث عن (نظرية التطور في الأجناس الحية) وأنّ الإنسان منحدر من القرد بفضل عامل التطور، وأنّ القرود الأفريقية مثل الشمبانزي تتشابه مع الإنسان، مما أحدث زلزالاً في أوروبة ليس في الأوساط الدينية فحسب بل في الأوساط العلمية التي كانت آنذاك تفتقر إلى التكنولوجيا في كشف هوية المستحاثات. ولقد بنى داروين نظريته على أساس التشابه الموجود في الخلايا الوراثية بين الإنسان والشمبانزي والذي قدره بحدود ٩٩٪، لكنّ الاختلاف بقي من حيث الشكل الظاهري فقط، وأيضاً على أساس التشابه الموجود في الخلايا العصبية والتي تدوم أسبوعين لدى الشمبانزي،

لكنها تدوم ٨ أسابيع لدى الإنسان، وهذا يعني أننا نمتلك ضعفي الخلايا العصبية أكثر من الشمبانزي. والشمبانزي يصل إلى بلوغه الجنسي في عامه السابع، بينما يصل الإنسان إلى بلوغه الجنسي في عامه الرابع عشر. ويقدم داروين ملاحظة يجب أخذها بعين الاعتبار وهي أن ننظر ملياً إلى طفل الشمبانزي باستثناء الأذنين لنجده أنه شبيه بالإنسان، فهو عندما يكون صغيراً يكون ثنائي القدم، وما أن يبلغ الـ٣ سنوات حتى تتطاول جبهته نحو الخلف ويبدأ بالمشي على أربعة.

ما من شك أن اكتشاف هذا الهيكل العظيم للوسي قد أبطل نظرية داروين وجعلها مجرد فرضية لا تستند إلى أي ركن علمي لأنَّ لوسي كانت من فصيلة الجنس البشري الذي يحاكي الإنسان الحالي منذ ملايين السنين. لقد كان مفصل الركبة لديها متحركاً مما كان يؤهلها للسير واقفةً وليس مقوسة الظهر بشكل منحن كثيراً مثلما هو الحال عند الشمبانزي. لقد مشتْ على الأرض كما يمشي الإنسان المعاصر.

وكانت لديها كل الصفات البشرية. ربما لم يكن دماغها يحمل ذكاء الإنسان المعاصر لكنها كانت قادرة على نقل أقدامها وحركة يديها بمهارة، مما جعلها من صيادي الغذاء المهرة. لقد كانت آكلة لحوم أكثر مما كانت آكلة نبات. كما وكانت بنية عظام الساعد وبقية الذراع لا تدل على أنَّها كانت لمخلوق يقضي معظم أوقاته معلقاً على الأشجار كما هو الحال عند القرود بل لمخلوق يدبّ على الأرض. وباعتقادي أن لوسي تشهد على حقبة افتراق الإنسان عن القرود بشكل نهائي. ففي تلك الحقبة الزمنية أثبتت الحفريات بأن أفريقيا كانت منقسمة إلى جزأين: غربي وشرقي يفصلهما حفرة انهدام. ولقد ظلَّ القسم الغربي تكسوه الغابات فعاش فيها الغوريلا والشمبانزي أي العائلة الأقرب إلى الحيوان. أمَّا القسم الشرقي حيث السطح وحيث توجد السهوب فقد أبصرت فيه لوسي الأقرب إلى الإنسان النور، وكان البحث عن الطعام هدفها الأوَّل في السهوب المفتوحة، مما يتطلب منها أن تسير منتصبة القامة كضرورة حياتية للأسباب التالية: أولاً لقطف الثمار من الأشجار بدلاً من أن تلتقطها وهي ساقطة على الأرض. وثانياً لمراقبة الأخطار التي تحيق بها من كل جانب ولكنْ بعين تنظر من علٍ. وثالثاً لإعطائها إمكانية أفضل لكي تكون بعيدة عن انعكاسات الأشعة الشمسية بعد اصطدامها بالأرض. يُضاف إلى ذلك كله وجود ظروف بيئية محيطة بهذا المخلوق أدت به إلى اتخاذ مثل هذا الشكل التشريحي بعد أن حدثت تغييرات مناخية في مناطق جنوب وشرق أفريقيا مسحت قسماً كبيراً من الغابات وحلّت محلها نباتات قصيرة

جداً وأعشاب عُرفت (بالسافانا) فكان على هذا المخلوق أن يتنقل لمسافات طويلة عبر هذه السهول بحثاً عن الطعام وهو يحمل صغاره على ظهره. ولهذا السبب اضطر إلى أن ينتصب على قدميه كي ينتقل بشكل أسرع. وخلال عملية الترحال التي قام بها الإنسان الأسترالي القديم منذ ٤ ملايين عام باتجاه الغرب وصولاً إلى شرق أفريقيا التقى هذا الوافد الجديد بالفصيلة البشرية من نوع (لوسي) واقترن بها نظراً لكونها تتشابه معه في كثير من السمات والمواصفات فانحدر من هذا الزواج مخلوق جديد أطلق عليه علماء السلالات اسم الإنسان البارع (الهوموهابيليس) الذي وُلد ببنية أكبر حجماً من أسلافه بطول ١،٥٢م ووزن ٤٥ كغ وجمجمة أوسع حجماً. لقد نزل هذا الخَلَف من على الأغصان بشكل نهائي ليبدأ العيش الدائم بين السهوب وهو يمشي منتصب القامة كما أسلافه الذين انقرضوا تدريجياً من الوجود بسبب تغييرات مناخية لم يتمكنوا من التفاعل معها وبالطبع بعد انقضاء حقبة زمنية دامت طويلاً، والجدير بالذكر أن هذا النوع الجديد من الجنس البشري (الهوموهابيلينس) كان يظهر نشاطاً ملحوظاً في المادة السنجابية، كما أن منظومة أسنانه جاءت متلائمة لأن تأكل أي شيء نباتياً كان أم لحمياً، ذلك أن القواطع والأضراس بدت أكثر تطوراً، وخلقت تكوراً في الفك. وعلى العكس، فقد جاءت الطواحين والنواجذ أكثر صغراً. وكان يعرف صنع الأدوات من قرون الحيوانات وأنياب الفيلة والعظام لصيد النمل الأبيض. كما كان يستطيع أن يطرق الصخور بتأنٍ ليكسرها ويقطعها إلى أشكال تفيده لدى استخدامها دفاعاً عن نفسه لأنه كان يصعب عليه جداً مواجهة النمور والأسود المنتشرة في أرجاء أفريقيا لكنه كان يعرف اختيار الأماكن الأكثر أمناً وحماية له، وكان يقتات من النباتات واللحوم التي كان يعثر عليها. لقد عاش وبقي على قيد الحياة أكثر من نصف مليون سنة، وكان حجم دماغه أكبر من حجم دماغ طفل في الرابعة من عمره. ولاشك أن من يمتلك مثل هذا الدماغ سيدرك بأنه قادر على القيام بأعمال فكرية وإبداعات مثيرة، وكل ذلك كان يتم فوق الأرض الأفريقية.

وضمن هذا السياق يقول زميله عالم الآثار الياباني جن سوا: ومع حصول تبرّد في قشرة الأرض الأفريقية أدى ذلك إلى حدوث جفاف بالمناخ لم يستطع الهوموهابيليس تحمّله. مما ساهم في انقراضه رويداً رويداً ليحل محله بعد أن عمت موجة دفء شملت الكرة الأرضية، أحد أحفاده الأباعد وهو الإنسان المنتصب القامة (هوموايريكتوس) الذي عاش منذ قرابة مليوني سنة والذي عُثر على بقاياه في أفريقيا وفي أوروبة مثل: فرنسا وألمانيا وجيورجيا. يبدو أن

هذا النوع من الجنس البشري كان أقوى تأقلماً مع تقلبات المناخ السائد آنذاك، فكان هو أوّل من غادر أفريقيا مروراً بالشرق الأدنى وصولاً إلى الغرب الأوروبي. لقد عرف بجمجمة بحجم ٨٥٠سم٣ أي بزيادة قدرها ٥٠سم٣ بالمقارنة مع جمجمة سلفه هوموهابيليس، ولقد أعطته هذه الزيادة في الحجم القدرة الكافية على أن يقلّم الحجارة ويصقلها بملء معرفته وأن يصنع المكاشط والبلطات، وأن يصنع أيضاً أدوات أخرى من العظام وعاج الفيلة. كان يحب التنقل حيث وُجدت له آثار تبعد عن موطنه الأصلي الأفريقي. ولقد استطاع بفضل قدرته على التنقل والسير من دون أية انحناءة أو تقوس في ظهره أن ينتشر في كل العالم حتى وصل إلى ماوراء المحيط الأطلسي، وهناك ابتكر صناعة الخشب من الخيزران. وكان آكل لحوم من الطراز الأوّل، وهذا ما دفعه حتماً إلى البحث عن مراع ضخمة مليئة بالحيوانات كي يصطادها ويسدّ رمقه من لحومها.

وبعد أن عاش أكثر من مليون سنة بين أفريقيا والشرق الأدنى وأوروبة حصلت تبدلات مناخية قاسية جداً عمّت الكرة الأرضية. ولما لم يكن يقوى على الصمود في وجهها فقد تلاشى تدريجياً من الوجود ليحل محله الإنسان العاقل (هوموسابيينس) الذي انبعث أولاً من أفريقيا. ثم رحل بدوره على غرار سلفه إلى الشرق الأدنى ومن ثم إلى أوروبة حيث التقى بإنسان (النايندرتال) الذي انحدر بدوره من سلالة الهوموايريكتوس.

في الواقع، لقد تمَّ التعرف على إنسان النايندرتال في العام ١٨٥٦م حين كان عمال ألمان يحفرون في مغارة بالقرب من وادي النياندر قرب مدينة دوسلدورف، وأثناءها اصطدموا بعظام لكائن اعتقدوا أنّها لدب، لكنها في الحقيقة عظام إنسان كان قد اختفى منذ قرابة ٣٠ ألف سنة قبل عصرنا هذا، لقد عُرف عنه بأنه كان آكل لحوم البشر إمّا بسبب الجوع أو نتيجة نوع من الشعائر التي تمارس عنده أثناء الوفاة.

كانت جمجمته منخفضة إلى الوراء فوق دماغه، ولديه مهارة فائقة في صنع الأدوات، إذ صنع من حجر الصوان السكاكين وأدوات مستدقة الطرف، ونظّم مجموعات صيد، واهتم بالضعيف والمريض، مما يوحي بوجود منظمة اجتماعية لديه.

كما وضع إنسان النايندرتال قدراته الإبداعية في الرقص واللباس أو الخشب، لأنّه كان يمتلك المؤهلات الصوتية للتخاطب وذلك لوجود العظم اللامي في مؤخرة لسانه. ويؤكد العلماء أنّ إنسان النايندرتال طاف شمالاً حتى بريطانيا وجنوباً حتى إسبانيا ضمن مجموعات لا تتجاوز الـ٣٠ شخصاً.

وتثبت المكتشفات الأثرية أنّ طلائع

منه قليلة العدد انحدرت إلى جنوب البحر المتوسط لتصل إلى العراق وفلسطين وتذوب مع ساكنيها من الإنسان العاقل (هوموسابيينس).

أمّا بالنسبة للإنسان العاقل الذي سكن أفريقيا ومنطقة الشرق الأوسط ورحل إلى أوروبة فيعتقد علماء السلالات بأنه منذ حوالى ٢٣٠ ألف سنة حدث تحول عميق بالنسبة له وذلك عندما بدأت تظهر تقنيات حديثة مرتبطة به ارتباطاً وثيقاً، وسببها حدوث تحول في دماغه أتاح له أن يفكر بأسلوب حديث وينطق بألفاظ واضحة.

وبسبب هذا التحول استطاع أن يغادر مقره في أفريقيا والشرق الأوسط ويذهب إلى أوروبة مسلحاً بأدلة الإبداع مثل الشاب المخيطة والمواقد الأكثر فعالية التي تتيح له الصمود في وجه صقيع أوروبة. وخلال وجوده في أوروبة واجهته ظروف مناخية صعبة فلجأ إلى الكهوف والصخور. وفي الأماكن التي لم توفر له المأوى الطبيعي عرف كيف يحفر الأرض ويعدها ليبني أكواخاً يغطيها بالأغصان.

هذا وقد عثر علماء الآثار على أماكن لإشعال النار في القارة الأوروبية تبين أنّها كانت مستوطنات يعيش فيها هذا الإنسان القادم من الشرق الأوسط الذي اختلط بإنسان النايندرتال وتزاوج منه.

وعاش الشعبان جنباً إلى جنب لفترة تزيد على الـ٧٠ ألف سنة. وهما يصطادان الطرائد ذاتها ويدفنان موتاهما بالأسلوب ذاته. ويقال إنه نتيجة اقتران إنسان الهوموسابيينس بإنسان النايندرتال في القارة الأوروبية نتج عن ذلك وباء أهلك هذا الأخير في حين بقي الأول صامداً على البقاء في أوروبة.

وبعد أخذ عينات جينية من بصلات الشعر والدم من الأوروبيين المعاصرين، بينت فحوصات الـDNA الحمض النووي الريبي بأن نسبة ٧٠٪ من هؤلاء الأوروبيين منحدرون من جماعات امتهنت حرفة الصيد والزراعة منذ أكثر من ١٠ آلاف سنة استوطنت القارة الأوروبية وهي جماعات كانت قد قدمت من الشرق الأدنى منذ القدم لتحط رحالها في أوروبة.

ويختتم جاسوا مقاله بالقول: إلا أنّ الطفرة الحقيقية بالنسبة للإنسان العاقل منذ ٣٠ ألف سنة بدت عندما تطور جهازه العصبي والعقلي ووصل إلى شكله وتكوينه الذي نعرفه جميعنا الآن.

واقترنت تلك الفترة بذوبان الجليد وتجمعه في القطب الشمالي والجنوبي، وبتحسن في المناخ. وكان لاكتشاف الزراعة أعمق الأثر في نفسه يوم رمى ببذرة في الأرض فرآها تنمو وتكبر وتصبح سنبلة وفاكهة.

كما كان لغزارة حليب الماعز والبقر دور هام في تكوين بنيته الجسدية والعقلية، إضافةً إلى قيامه بطهي اللحوم النيئة بوساطة النار، وهذا ما ساهم كثيراً في تنمية ذكائه وقدرته على التخاطب وبالتالي على الترحال في أرجاء المعمورة كافة.

لقد كان صياداً ماهراً لم يكتفِ بلحم طرائده فحسب بل كان يستخدم بقايا هذه الطرائد كمواد في تأسيس كوخه وأماكن سكنه. ولكي يضيئها ليلاً بالنور تعلّم كيف يختار الأخشاب التي تحترق مخلّفةً وراءها أكبر قدر ممكن من الرماد.

كذلك استخدم مصابيح حجرية وكان قادراً على الإبداع في أشغال فنية لم يسبق أن عُثر على مثلها قبل وجوده. فكان رَسْم الحيوانات التي كان يتعايش معها موضوع رسوماته على الحيطان والصخور، وأشهرها تلك الرسومات التي عثر عليها في كهف (شوفيه) بجنوب فرنسا والتي تعود إلى ١٤ ألف سنة خلتْ.

في الواقع لقد أظهر الإنسان العاقل منذ بداية ظهوره درجة من النشاط العقلي تفوق أياً من سابقيه. فقد استطاع أن يشحذ الأحجار بمهارة ودقة كبيرة. وكذلك استفاد بشكل كبير من العظام والعاج لا في حالتها الخام كما كانت عليه من قبل وإنّما بطريقة معدة ومصنعة على شكل أدوات مختلفة كالمثاقب والمعاول والرماح والإبر والقذائف.

ولم يكتفِ العلماء بدراسة السلالة البشرية من جذورها، بل افترضوا تعدادها، ويرجّح معظمهم أنه قبل ٣ ملايين سنة كان عدد الإنسان الأول يقدر بـ١٥٠ ألف نسمة فقط، لأن ظروف المناخ لم تكن تسمح له بأن يعمر طويلاً أو يتكاثر بغزارة. وفي العام ٥٠٠ ألف ق.م، كان عند الإنسان العاقل ومعه إنسان النايندرتال لا يتجاوز الـ٢ مليون نسمة، لكن هذا العدد قفز في العام ١٠ آلاف قبل الميلاد إلى ٥ ملايين نسمة.

وفي العام ٣٠٠٠ ق.م، بلغ تعداده ١٥٠ مليون نسمة. وعند ميلاد السيد المسيح كان عدد سكان الأرض لا يتجاوز الـ٢٥٠ مليون نسمة. ثم تجاوز هذا العدد المليار في منتصف القرن التاسع عشر. واليوم يقارب ٧ مليارات نسمة.

وعلاوةً على ذلك، استطاع هؤلاء العلماء أن يقدروا المدى الذي كان يبلغه عمر الإنسان في العصور القديمة. وبحسب رأيهم، فإنّ متوسط عمر الإنسان منذ ١٠ آلاف سنة انقضتْ كان لا يتعدى الـ٣٠ عاماً فقط، وذلك بسبب ما كان يعترضه من أخطار وأوبئة وتقلبات حادة في المناخ لم يكن بمقدوره على الدوام مقاومتها، لكن مع حلول العصور الحديثة وخاصة في مطلع

القرن التاسع عشر أصبح متوسط العمر لدى الإنسان الأوروبي ٤٠ سنة، وليرتفع إلى ٥٠ سنة في مطلع القرن العشرين ولـ٨٠ سنة في مطلع القرن الواحد والعشرين!.

واليوم، تأتي الثورة البيولوجية وفك قراءة الشيفرة الوراثية لتشكل بداية إستراتيجية اقتحامية للغوص في أعماق البيولوجيا، وليكون شكل التكاثر القادم ليس جنسياً بل مرتبطاً بعمر الخلايا، وليكون التقدم العلمي موضوعاً في خدمة الإنسان وإطالة عمره. وحسبنا أن نذكر بما كتبته صحيفة (لوموند ديبلوماتيك) الشهرية الفرنسية في عددها الصادر لشهر كانون الأول من العام ٢٠٠٩م تحت عنوان: (ستكون خالدين بحلول عام ٢١٠٠م).

وفي هذا المقال حريّ بنا أن نذكر بالاجتماع الذي ضم ٤٠ عالماً في صيف عام ٢٠٠٩م ضمن إطار (جامعة الفرادة) الأمريكية بنيويورك برئاسة العالم جورج سموت الحاصل على جائزة نوبل للفيزياء في العام ٢٠٠٦م. لقد دار هذا الاجتماع حول تفحص قانون (مور) المتعلق بحفز الثورة التكنولوجية في شتى أنحاء العالم من خلال الأداء الحاسوبي على صعيد التقنيات السيليكونية الرائدة على مستوى العالم.

وخلال الاجتماع تحدث العالم البيولوجي (ري كورزفيل) موضحاً بأنه المئة عام القادمة ستعادل ليس فقط قرناً من الزمن من حيث التقدم العلمي بل ٢٠ألف عام من التقدم السريع المماثل لما يشهده عالم اليوم حيث سيكون الحاسوب أحد بواكير هذا التقدم العلمي الذي سيطرأ عليه تطور هائل في نهاية هذا القرن، وماذا يعني ذلك كله؟

أي سيكون بمقدور التطور العلمي ليس إيجاد حل لأوجاع الإنسانية بكل أشكالها بل إطالة عمر الإنسان وذلك من خلال صنع روبوتات فائقة الصغر التي سيكون بإمكانها المرور عبر الأوعية الدموية بسهولة لتعثر على الفيروسات والجراثيم المسببة للأمراض ولتفتك بها في الحال، أو لتساهم في إصلاح وترميم الأنسجة التالفة، بمعنى التوصل إلى وضع حد للشيخوخة، لأن سبب الشيخوخة يعود إلى الخلية عندما تتوقف عن الانقسام والتجدد بعد عدد محدد من الانقسامات.

وهنا تتدخل التقنيات عن طريق إدخال بعض التعديلات الجينية. ومؤخراً اكتشف العلماء حقن الخلايا الجذعية وهي خلايا الأجنة وبعض خلايا النخاع العظمي التي لديها القدرة على إصلاح واستبدال أي

نسيج تالف في جسم الإنسان. لاشك أن مثل هذه العملية في المستقبل قد تقلب جوانب كثيرة من مسألة المرض والشيخوخة عند الجنس البشري وتجعله خالداً من الناحية البيولوجية، بحسب آراء هؤلاء العلماء الذين يقضون معظم أوقاتهم في المخابر ومراكز البحوث بهدف اكتشاف كل ما من شأنه العمل على خدمة الجنس البشري.

* * *

عرض جانبي لإعادة تكوين الهيكل العظمي للوسي



الهيكل العظمي للوسي
(A.L.288 - I)



المراجع

١- جريدة (لوموند)، بتاريخ ٢٠٠٩/٧/١١م.
٢- مجلة (الكفاح العربي)، بتاريخ ١٩٩٤/٧/٤ و١٠/١٠/١٩٩٤م.
٣- مجلة (لونوفل أوبسرفاتور)، بتاريخ ١٩٩٤/٨/٣م.
٤- مجلة (الكفاح العربي)، بتاريخ ١٩٩٤/١٠/٧م.
٥- مجلة (العربي)، تاريخ كانون الأول ١٩٩٢م.
٦- الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

ظاهرة الحياة في رؤية معاصرة

م. فايز فوق العادة *

الحياة هي الظاهرة الوحيدة التي تتجمع في إطارها مليارات الذرات وفق تشكيلات متباينة تتحد بدورها مع بعضها بنسب متفاوتة لإبراز كائن مستقل الهوية يمتلك المقدرة على التفاعل مع محيطه. لا تتوقف الحياة عند حدود معينة في درجات التعقيد وأنماط التجديد التي تحققها. إن أصغر خلية لا تقارن في تعددية مكوناتها مع أكبر النجوم في الكون. يتكون النجم بشكل رئيسي من الهيدروجين وعناصر ثانوية أخرى ويحكم حياته بأسرها التفاعل النووي الإندماجي. تندمج نوى الهيدروجين في هذا التفاعل

لتوليد نوى الهليوم. إنَّ الكتلة الإجمالية لنوى الهليوم المتولدة أقل من الكتلة الإجمالية المقابلة لنوى الهيدروجين الداخلة في التفاعل.

أمَّا الفارق فيتحول إلى طاقة وفق معادلة آينشتاين التي تنص على أنَّ الطاقة تكافئ جداء الكتلة في مربع سرعة الضوء. إنَّ هذه الطاقة هي المصدر الرئيسي لما تحتاجه كل أشكال الحياة في الكون.

بات العلماء اليوم يحيطون بكل مجريات وسلوك النجوم كما أنهم يستطيعون التنبؤ وبدقة بكل التغيرات التالية على أي نجم من النجوم في آلاف الملايين من السنوات.

بالمقابل، يعجز أي عالم من علماء الحياة عن التنبؤ بما سيؤول إليه حال خلية في غضون دقائق قليلة. لا عزو في أن يذهب عدد من العلماء إلى تعريف الحياة وخاصة

* رئيس الجمعية الكونية السورية.

الحيـاة الممثلة بالإنسان بأنَّها الظاهرة التي تأتي بـكل ما هو غير متوقـع. يقول هؤلاء العلمـاء إنَّ كلَ أحاديثنـا وتصرفاتنـا هي أحاديث وتصرفـات جديدة كل الجدة، وإن بدت في ظاهرها مكررة.

يعتقـد العلماء اليـوم أن عدد الأجناس الحيـة التي تعيش حالياً على كوكب الأرض يتجاوز المليونين.

إنَّ صنوفاً حية كثيرة تنقرض بوتائر عالية بسبب التلوث الذي تنشره المدنيّة المعاصرة. تختلف الأجناس الحية المذكورة عن بعضها وتتباين. إن الهبوط إلى تفاصيل ومواصفات هـذه الأجناس قد يكـون مستحيلاً لباحث منفـرد أو حتى مجموعة مـن الباحثين. أمَّا مليارات النجـوم في الكون فتغطيها نظرية واحدة أبدعهـا في الأصل عدد محدود من العلماء وغدت مفهومة من الجميع.

إن مـا يحـير بشأن ظاهـرة الحياة هو تكيفهـا المذهل، فالحياة تتواجد في الينابيع الحـارة وداخل الكتل المتجلـدة، كما وتنشأ الحياة في الضـوء مثلما تتكاثر في الظلمة. تستخدم كائنات الضوء الأعين بينما توظف كائنـات الظلمة اللمس والموجات الرادارية. أمَّا الطيور فتتبع المجال المغناطيسي للأرض في هجراتها البعيدة. لقد اكتشفت مركبات عضويـة كثيرة ضرورية للحيـاة في الفضاء الكوني وفي تربة القمر.

وقع العلمـاء على عدد مـن الحموض الأمينية في بعض النيازك التي سقطت على الأرض.

يعتقـد العلمـاء أن المركبـات العضوية الأسبق للحياة تتواجد على تيتان تابع زحل كما ويتصـورون أن أوربـة وكاليستو تابعي المشتري يضمّان أنماطاً من الحياة. اكتشفت بقايـا خلية حية متجلـدة في نيزك انفصل عن المريخ منذ ١٦ مليـون سنة وهوى على القطـب الجنوبي في الأرض منذ ١٣٠٠٠ سنة.

يقبل عدد مـن العلماء اليـوم بأن الماء والمـادة العضوية الضرورية للحياة قد تزود بها كوكب الأرض من اصطدام المذنبات عبر تاريخـه الطويل. لقد اصطدم أكثر من ألف مذنب بكوكب الأرض منذ نشأته قبل ٤٦٠٠ مليون سنة.

المذنبـات هـي بقايا تشـكل المجموعة الشمسية، وتطوف أعـداد كبيرة منها على تخوم المجموعة الشمسية ووراء مدار كوكب نبتون.

المذنـب هو كتلة من ماء وطين متجلدين يمتـد لعـدة كيلو مـترات. عندمـا يقترب المذنـب من الشمس، تحولـه طاقة الشمس إلى الحالـة الغازية مباشـرة فيما يُعرف في الفيزياء بالتصعيد أو التسامي وينطلق وراءه ذيل يمتد لملايين الكيلو مترات. يبقى المذنب

مرئياً في القبة السماوية لكوكب الأرض بين عدّة أيام وعدّة أشهر.

إنّ الصلات الحياتية بين الأجناس الحية عميقة ومتبادلة وتستند بشكل أساسي إلى التكافل الذي قد لا يبدو واضحاً للوهلة الأولى. لقد دمّرت المدنيّة المعاصرة هذه الأواصر وانفصل الإنسان تماماً عن دائرة التكافل الحياتي بل وألغى التكافل حتى على صعيد العلاقات الصرفة بين بني البشر.

يعني ذلك فيما يعنيه أن استشراف المستقبل البعيد لكوكب الأرض لابد وأن ينطوي على انتظار ظهور أجناس حية مختلفة تعود إلى التناغم مع نواميس الحياة وفي هذا ما فيه من الإدهاش والإثارة.

تفرض خاصية التكيف استكمال المنظومات المعلوماتية للكائن الحي الفرد وللجنس الحي ولمجموع الأجناس الحية. إنّ تحسس الكائن الحي للاشتراطات السائدة في محيطه والتكيف مع تلك الاشتراطات بما يُبقي على الوحدة القائمة بينه وبين البيئة المتغيرة هما جوهر ذلك الاستكمال.

تختلف أنماط التكيف المذكور وقد يظهر كدفاع عن الجنس الحي أثناء طور من الأطوار. كانت حشرات العث في بريطانيا في الأصل مرقطة باللونين الأبيض والبني حيث كانت تندمج بالأشجار التي هي بيئتها الطبيعية.

غدت البيئة البريطانية داكنة إبان الثورة الصناعية بسبب دخان المصانع. انقلبت حشرات العث في سنوات قليلة إلى اللون الرمادي دفاعاً عن نفسها إزاء البيئة السامة الجديدة. تقترن محاولات تنظيف البيئة في بريطانيا بتطورات بطيئة مقابلة تتمثل لدى حشرات العث بالعودة إلى لونها الأصلي.

إنّ مسلسل ارتقاء الحياة منذ البدايات المتواضعة وحتى الغلاف الحيوي المعقد الحالي هو حقيقة قائمة مثبتة في السجلات الأحفورية. كذلك فإنّ قدرة التشكيلات الحية على التحول استجابة للتغيرات البيئية يُمكن أن تُلاحظ في المختبرات والطبيعة على حد سواء.

إن من غير الممكن استخدام الأعضاء جيدة التكيف كالعين مثلاً لإثبات أية نظرية من نظريات التطور، ذلك أنّ مختلف نظريات التطور تفشل في تفسير ارتقاء مثل هذه الأعضاء، على الرغم من أننا نعلم بشكل قاطع أن الغلاف الجوي للأرض منع أثناء تاريخه الطويل تسرب موجات كهرمغنطيسية كثيرة آتية من الفضاء الكوني

وحجبها عن سطح الأرض بينما ترك للأشعة الضوئية حرية بلوغ سطح الأرض. فكان أن استجابت الحياة بتصنيع أنماط مختلفة من الأعين تجاوزت الأربعين في أنواعها المتباينة بما يحقق استجابة واضحة للحقيقة المشار إليها.

لو لم يفعل الغلاف الجوي ذلك، لبلغت الأشعة السينية سطح الأرض ولانعدمت بالتالي كل إمكانية لاستمرار الحياة على الأرض.

يستشعر الكائن الحي العالم من حوله بتصنيع نماذج بنيوية حيوية لذلك العالم. تلك هي حال المعرفة وهي في حالتنا نمذجة بصرية. إنها نمذجة، لأننا لا نعرف العالم إلَّا ببناء النماذج الذهنية. فما خطابي للآخر إلَّا خطاب لأنموذجه الكهروكيميائي لدي.

تعد النماذج الرياضية من أرقى النماذج التي يخلقها الفكر، فقد تسمح هذه النماذج بتحقيق معرفة الشيء لذاته كلما اقترب الأنموذج من حدود الكمال. وعلة المعرفة بالنمذجة أن طالب المعرفة لا يستطيع أن يكون مادة المعرفة في آن معاً. أن تكون الذات كوناً منفصلاً هي نتيجة منطقية لنهج المعرفة بالنمذجة. هي نمذجة بصرية لأن الإسهام الأوّل فيها إنَّما هو من نصيب البصر. إن العين هي الممر الرئيسي للمعلومات. والعين ليست عضو حس كأعضاء الحس الأخرى، إنها امتداد الدماغ إلى الخارج وكأن بالعين مسبراً يقذفه الدماغ لتحسس العالم.

لقد تحقق ذلك بفعل انتقائية الغلاف الجوي التي ذكرناها للتو. من دلائل الطبيعة البصرية لآلية معرفتنا بالنمذجة أن أحداً إن طُلب منه المشاركة في حل معضلة مهما كانت طبيعتها، سأل عن مهلة -لتصور- المعضلة، لا للتنصت عليها أو شمها. كذا إن تعاطفنا مع الإعاقات يبلغ ذروته في حالة العميان لأنهم مقطوعون عن صوغ النماذج.

ليس من الضروري أن تكون الأعضاء المتماثلة قد ارتقت من أصول مشتركة وبآليات متشابهة.

ولنا في الأجنحة خير مثال. إذ تطورت الأجنحة في الطيور من الأذرع والأيدي. أمَّا في حالة الحشرات فقد تطورت من نتوءات جانبية كانت تلعب دوراً في ضبط درجات الحرارة إذ كانت توفر مساحات إضافية لإطلاق أو امتصاص الحرارة.

تبين الحسابات أنَّ المبادلات الأكثر فعالية للحرارة هي تلك التي تسمح للحشرة بالانزلاق أو بالأحرى التي تُنجز بنجاعة أكبر إن اقترنت بحركة انزلاقية. هكذا أمكن للعضو الذي نشأ في الأصل لتحقيق التبادل

الحـــراري أن يُستعمل لتطوير وظيفة أخرى هي الطــيران. إن الطيران هو شكل مناسب ومتقدم من أشكال التبادل الحراري. تحلق الطائرات الحديثة على ارتفاعات كبيرة جداً بغية رفـــع مردودية التبادل الحراري بتوفير إمكانية تبادل حراري أكبر مع الوسط.

المراجع

١- فايز فوق العادة، شرخ في مرآة الفكر البشري، ١٩٩٤م، دار المعرفة، دمشق.

2- L.Tarasov: This Amazingly Symmetrical World, 1986, Mir Publishers, Moscow.

3- John Brockman (Editor), Science At The Edge, 2008, Union Square Press, New York.

٤- ميشيل خوري (ترجمة)، عبقرية الحياة، ١٩٩٥م، وزارة الثقافة، سورية.

«أنطوني غاودي»: المعمار الكاتالوني المبدع

المهندس ملاتيوس جبرائيل جغنون ✪

«لو أزلنا أعمال غاودي من مدينة برشلونة لخسرت أهم الملامح التي طبعتها وفقدت قدرتها الفائقة على الجذب السياحي، ذلك أن السائح الذي يقصد برشلونة اليوم إنَّما هو يقصد مآثر غاودي المعمارية بشكل يكاد يكون حصرياً لأنَّ هذه المآثر هي بمثابة الحُلي على وجهها والقلادة على صدرها وبمثابة الروح لجسدها..»

صادف عام ٢٠٠٢م الذكرى السنوية المئة والخمسين لولادة المعمار الكاتالوني أنطوني غاودي Antoni Gaudí (الصورة١). وكنت محظوظاً خلال وجودي في برشلونة في أيار من ذلك العام بعينه أن أحضر بضعةً من الأنشطة والفعاليات التي أقامها مجلس مدينة برشلونة بهذه المناسبة. علماً بأنَّ زيارتي تلك إلى برشلونة جاءت بناءً على دعوة المجلس إيّاه إليَّ للمشاركة في مناسبة أخرى لا علاقة لها بـ(غاودي) صادَفَتْ ذلك العام أيضاً وهي إقامة الأسبوع الثقافي السوري في برشلونة بالتعاون مع النادي السوري في المدينة. فقد نظَّمت المدينة طوال ذلك العام الكثير من النشاطات الثقافية مفسحة المجال أمام النخب المهتمة أن تزداد معرفة بهذا المعمار الفذ ولتعيد اكتشاف أعماله وتعميق دراستها. كما أتيحت لي فرصة اكتشاف عدد لا بأس به من أعماله في مدينته برشلونة عاصمة الإقليم الكاتالوني الكائن في أقصى شمال شرق شبه الجزيرة الإيبيرية. وقد شملت النشاطات إقامة العديد من المعارض وزيارات للعديد من أهم الصروح المميزة

✪ باحث ومترجم سوري.

لنهجه المعماري وإصدار الكتب وأقراص الـ CD-ROM>s. وقد تمَّ تخصيص حافلة للسياح والمهتمين لتنظيم جولات إلى أهم أعماله في العاصمة الكاتالونية.

حياته:

في ساعة متأخرة من بعد ظهر يوم السابع من حزيران عام ١٩٢٦م، وفيما كان رَجُلٌ في منتصف عقده السبعيني، يتجول وهو منغمسٌ في أفكاره إلى حد الشرود الكامل عمَّا يحيط به في مركز مدينة برشلونة عند تقاطع (الشارع الكبير) المعروف باسم Gran Via مع جادَّة (بايلين) Bailèn، صَدَمَته حافلة الـ(ترامواي). وصادف أنه لم يكن يحمل معه بطاقة التعريف الشخصية (الهوية) ما جعل مهمة التعرف عليه مسألة مستحيلة. وعلى الرغم من أن جسمه كان مضرَّجاً بالدم، فإنه كان مازال يتنفس. وبقي ملقىً إلى جانب سكة الحافلة على هذه الحال كمُتَسَوِّلٍ مجهول إلى أن تمَّ نَقْلُهُ إلى مستشفى الـ Santa Crue الذي عادة ما يؤخذ إليه المشردون والفقراء من عامة الناس. وبعد يومين من إدخاله إلى المستشفى، فارق الرجل الحياة.

كان ذلك المشهد الختامي من حياة أحد أشهر المعماريين في تاريخنا المعاصر (أنطوني غاودي إي كورنت) Antoni Gaudí y Cornet.

وُلِدَ أنطوني غاودي قبل هذا الحادث بأربعة وسبعين عاماً، وتحديداً في الخامس والعشرين من حزيران عام ١٨٥٢م، في مدينة ريوس Reus بولاية تارّاغونا Tarragona المجاورة لولاية برشلونة. وكانت هذه المدينة آنذاك، ثاني أكبر مدن كاتالونيا لجهة عدد سكانها وإحدى أهم المراكز التجارية والصناعية في جنوب أوروبة.

كان أنطوني الولد الخامس والأخير لوالده الذي كان يكسب عيشه من مهنة السَّمْكَرة (التَّنْكجيَّة). وفي طفولته المبكرة، لم يكن يمضي أوقاته باللعب واللهو الطفولي، بل كان يمضيها بمشاهدة العالم من حوله وتأمله. فقد كان شديد الإنجذاب إلى الطبيعة وقادراً على تسلية نفسه لساعات وهو يتأمل الأحجار والنباتات والزهور والحشرات والحيوانات الأخرى التي كانت تَعْمُرُ البيت الريفي الذي نشأ فيه. وعلى الرغم من الفقر والألم، إلا أن ذلك لم يُثْنِه عن أن يَحْلُم أحلام الطفولة بالحاضر والمستقبل. وقد تمكن من أن يُكَوِّنَ عالَمَهُ من خلال خياله، هذا العالَمَ الذي سيصبح حقيقة بفضل العمارة.

وفي الحادية عشرة، انتسب الطفل غاودي إلى (مدرسة الأتقياء) في ريوس Escuelas Pias. وخلال هذه الفترة من حياته، انْجَذَبَ بقوةٍ إلى الرسم والعمارة وكانت

عنده قدرة فائقة على الأشغال اليدوية استفاد منها في إعداد الرسوم التوضيحية لصحيفة الحائط الأسبوعية التي كانت تُعَدُّ في المدرسة ولتنفيذ الرسوم والديكورات والمناظر الخلفية لمشاهد العروض المسرحية المدرسية.

لم يحقق غاودي نجاحاً يُذْكَر خلال سني تعليمه الثانوي بدليل سجله المدرسي الذي ما زال محفوظاً إلى اليوم، فقد رسب مرتين ولم تكن درجاته التي كان يحصلها في المواد الدراسية إلاّ متوسطة. وكان انطوائياً جَدِّيَّ الطبع عصبي المزاج ومنزوياً.

ولما كان ذهنه منصرفاً إلى العمارة، هذا النشاط الذي سيستمر معه ويرافقه إلى نهاية حياته، فإن غاودي أنهى دراسته الثانوية ثم انتقل إلى برشلونة ليتابع تحصيله. وفي الواحد والعشرين من عمره، تمّ قبوله في المدرسة التقنية العليا للعمارة Escuela Técnica Superior de Arquitectura . ولكن، قبل مباشرته الدراسة والتأهيل في هذه المدرسة، كان عليه أن يجتاز دورة تحضيرية لخمسة أعوام.

وفي عام ١٨٧٦م، بُعَيْدَ شروعه الدراسة في المدرسة العليا للعمارة، توفي أخوه فرانشيسكو ثم تبعته والدته بعد بضعة أعوام. وفي هذه الفترة، اضطُرَّ والدُه لبيع أملاكه بسبب ضائقة مالية، ما أرغم غاودي على العمل مع أرباب مهنة الإنشاء في برشلونة ليكسب بعض المال ويكمل دراسته ويعين والده.

وكما في المرحلة الثانوية، لم يكن تحصيلُه مُشَرِّفاً في الجامعة. غير أن ذلك لم يَحُلْ من دون اكتسابه أرضية متينة في العمارة والعلوم والمعارف الأساسية التي كان سينطلق منها مستخدماً إياها كمجرد أساس لا أكثر للمفاهيم المدهشة والثورية التي كان يحلم بها. وكانت أفضل درجاته في تحصيله الجامعي هي في مادتي الرسم والمشاريع التي كان يبرع فيها مخالفاً كل زملائه ومتفوقاً عليهم.

وفي عام ١٨٧٨م رَفَعَ مدير المدرسة العليا للعمارة سجلات علامات أربع طلاب فقط، من بينهم غاودي، إلى عمدة الجامعة يطلب منحهم الشهادة الجامعية كمعماريين. وما إن حصل غاودي على شهادته حتى انطلق في ممارسة مهنته التي طالما صبا إليها. وكانت أولى تصاميمه تشمل أعمالاً في مسرح Gervasi وواجهة عرض زجاجية لصانع القفازات Esteve Comella وقد تم عرض هذه الأخيرة في الجناح الإسباني في المعرض العالمي بباريس.

في العام نفسه الذي تخرَّجَ فيه غاودي من الجامعة، كلَّفَهُ مجلس مدينة برشلونة لتصميم أعمدة إنارة الشوارع بالمصابيح

الغازية. فخرج غاودي بتصميمه للأعمدة ذوات الأذرع الستة التي ما زالت قائمة إلى اليوم في شارع البلاسا ريال Plaça Reial ببرشلونة وأخرى بثلاثة أذرع في الـ(بلا دو بالاو) Pla de Palau. وكان هذا العمل الأوّل والأخير الذي يحظى به غاودي من مجلس مدينة برشلونة لأنَّ تصاميمه تلك أحدثت جدلاً ضمن المجلس ما أوصد الباب نهائياً في وجهه بأن يحصل على أي مشروع آخر منهم في المستقبل.

أتى أوّل عمل كبير لغاودي من سَلفادور باغيس Salvador Pagès العامل المولود في مدينة ريوس الذي تمكن من جمع ثروة كبيرة من هجرته إلى الولايات المتحدة. وكان هذا مديراً للتعاونية العمالية في مدينة ماتارو Mataró الساحلية (التي كانت مكان إقامتي خلال رحلتي التي أشرت لها في المقدمة) والتي تبعد ٣٠كم إلى الشمال من برشلونة حيث طلب إليه تنظيم منطقة سكنية عمالية هناك مكونة من مساكن إفرادية.

وقد أثبت غاودي أنه الأكفأ مهنياً للتصدي لهذه المهمة. فقام المعمار الشاب بوضع مخطط تنظيمي متقن لهذا المجمع السكني. غير أنه لم يتمكن من تنفيذ سوى جزء يسير منه. غير أن المشروع عُرِضَ في المعرض العالمي بباريس عام ١٨٧٨م ما ساعده أن يصبح معماراً معروفاً. ومنذئذٍ شرع غاودي بتلقي تكليفات هامة من أشخاص أثرياء لتصاميم جديدة منهياً بذلك المتاعب المادية التي طالما عانى منها في حياته المبكرة.

غير أنَّ التحول الكبير الذي شَكَّلَ المنعطف الأهم في حياة غاودي المهنية لم يأتِ إلاّ بمساعدة المعمار المخضرم مارتوريلّ Martorell الذي كان غاودي يتدرب عنده أثناء دراسته الجامعية. اكتَشَفَ هذا المعمار مقدرات ومواهب الشاب غاودي وفتح أمامه الباب على مصراعيه لدخول حياة جديدة. فقد قام بتقديمه، أي تعريفه، إلى الشخص الذي أصبح فيما بعد الراعي الأهم لأعمال غاودي الإبداعية الباقية إلى اليوم وأحد أهم أصدقائه وزبائنه. كان هذا (أوسيبي غويلّ إي باشيغالوبي) Eusebi Güell i Bacigalupi. وقد عنى ذلك أن الكثيرين من أعيان البرجوازية في برشلونة سيحذون حذو غويلّ بتكليف غاودي بمشاريعهم المختلفة.

كان أوسيبي غويلّ ابناً لـ(خوان غويلّ فيرّير) Joan Güell Ferrer أحد أهم القوى الداعمة للصناعة الكاتالونية ورائداً للفكر الاقتصادي الكاتالوني. وقد ورث من جانب أمه ولعه بالفنون والثقافة. وكان أوسيبي غويلّ يتذوق الموسيقى والنحت

والرســم ولوعــاً بالسفر وارتيــاد المتاحف والنُّصُب المعمارية في الخارج. ولم يكن مُفاجِئاً أن يذهــب إلى باريس عام ١٨٧٨م خصيصاً لمشاهدة المعرض العالمي وآخر التطورات في عالم أعمال آلات النسيج. وصادف أن لفَتَتْ انتباهَه إحــدى المعروضات الفاخرة. ولدى رجوعــه إلى برشلونة عَلِمَ أن المصمم لم يكن إلاّ غاودي. ولم يمضِ إلاّ وقت قصير حتى نشأت صداقة بينه وبين غاودي قُدِّرَ لها أن تستمر حتى وفاة غويلّ عام ١٩١٨م.

كان أوّل تكليف تلقاه غاودي من غويلّ هو تصميم جنــاح للصيد أراد غويلّ(*) Güell أن يقيمه على أرض يمتلكها بجوار برشلونة. وتَبِعَتْهُ مشاريع أكبر وأكثر أهمية بما في ذلك قصراً ضمن المدينــة قرب شارع (الرامبلا) الشهير ببرشلونة القديمة، إضافة إلى منشأة صيفية ومستعمرة سكنية أراد رجل الأعمال أن يقيمها على غــرار المستعمرات العمالية السكنية الإنكليزية التي لاقت رواجاً في تلك الفترة. غير أن هذه المشاريع لم تكن الوحيدة التي عمل غاودي عليها لأنه لم يحصر عمله بـ(غويــلّ)، فقــد جمع غاودي بــين أعمال غويــلّ وتكليفات أخرى غيرهــا في آن معاً. ومن هــذه الأعمال الأخــرى بيتٌ لصاحب مصانع القرميد مانويل فيتشنز Manuel Vicens ومقر إقامة صيفي في كوميلاّس Comillas لصالــح ماكسيمــو ديــاز دو كويخانو Mximo Díaz de Quijano ومدرسة لراهبــات القديسة تيريزا والقصر الأسقفي في أستورغا. كما قام بتصميم مبنى لماريا ساغويز Maria Sagués على أرض كانت لقــرون سبقت مكان الإقامة الصيفي للملك مارتي إي لهوما Martí I l'Huma آخر ملك كاتالوني أراغوني الأصل.

مــا إن أصبح غــاودي صديقــاً مقرباً لـ(غويلّ) حتى انهالت عليه طلبات التصاميم المعماريــة وما تبعها من مــردود مالي وسَّع بالتــالي مــن دائــرة معارفه مــن المتمولين الأثرياء.

فدخل فترة من العطاء الغزير والخلاق الــذي انتهى بــه، مــع المزيد مــن الخبرة المعماريــة، إلى تكوين لغته وأسلوبه المعماري الخاص به. ففي عام ١٨٨٣م، واجه صديقُهُ مارتوريلّ Martorell مسألة حساسة وهي بحثه عن معمــار يتولى متابعة تنفيذ كنيسة الـ«ساغرادا فاميليا» (العائلة المقدسة).

كان الأب مانيانيت Manyanet، مؤسِّس ما عُرِفَ بـ(أخوية العائلة المقدسة) قد وضع تصوراً لتصميم الهيكل الذي تم وضع حجر أساسه عام ١٨٨٢م.

كان جوزيــف بوكابيــلاّ Josep Bocabella هو المسؤول عن جمع التبرعات لإنشاء كنيسة الساغــرادا فاميليا. ولما كان هذا المشروع يعتمد كلياً على التبرعات، فإنه

كان من غير الممكن أن تتقدم الأعمال به بدون هذه التبرعات. وكان المعمار المتولي الإشراف على هذا العمل هو فرانشيسكو دو باولا دل فيّار Francisco de Paula del Villar أستاذ غاودي الأسبق في الجامعة. وما إن بوشر ببناء الكنيسة حتى نشأ خلافٌ بين بوكابيلا وفيّار استقال على أثره هذا الأخير. وقد اقترح خوان مارتوريل على بوكابيلا أن يتابع غاودي العمل في الإشراف على بناء الكنيسة.

جَمَعَ غاودي بين هذا العمل وأعمال أخرى حتى العام ١٩١٤م حين قرر تكريس نفسه لتنفيذ الكنيسة حصراً من دون غيرها من المشاريع. وفعلاً، لم يقبل غاودي أي عمل آخر بعد ذلك العام حتى وافته المنية عام ١٩٢٦م مبتعداً بذلك عن كل ما من شأنه أن يحرفه عن انصرافه الكامل ومُكَرِّساً حياته لما وصفه يوماً بكلمته: (أول كاتدرائية ستدشن جيلاً بعدها). ثم إنه نقل موقع سكنه إلى جوارها لكي لا يضيع وقته في التنقلات ضمن برشلونة.

أمثلة من أعماله:

سنختار مجموعة محدودة من الصور لبعض أهم أعمال هذا المعمار من دون أن نُكْثِر من التعليق بأكثر من مجرد ذِكرِ اسم العمل وموضعه وأهم خصائصه بما لا يتعدى بضعة أسطر.

١- فيلا كويخانو إل كابريتشو Villa Quijano – el – Capricho (١٨٨٣-١٨٨٥) (الصورة٢) و(الصورة٣): صمم غاودي هذه الفيلا لتكون بيتاً ريفياً لصاحبه العازب كويخانو، وعُرِفت هذه الفيلا باسم (إل كابريتشو) أي (النزوة). يتسم العمل باقتباس غاودي لعناصر من العمارة القروسطية التحصينية والعمارة العربية الدينية مع العمارة الريفية الأوروبية وتوحيدها بالطابع (الغاوديّ) الذي يعتني بالتفاصيل التي تطال العمل برمته بشكل مُفْرِط ثم يُضْفي على العمل ألوانه الجريئة التي تطبع كافة أعمال غاودي من دون استثناء.

٢- ذروة أعمال غاودي: لا ساغرادا فاميليا، المشروع الذي بدأ ولم ينتهِ بعد (١٨٨٣-١٩٢٦م) (الصور ٤، ٥، ٦، ٧، ٨): مضى اليوم قرن وربع القرن ونيف على الشروع بهذا العمل ولا يعلم أحد متى سَيُفْرَغُ العمل من هذا المشروع الضخم الذي يعلو على سائر مباني برشلونة ويميزها. وما زالت ورشات البناء ناشطة به والروافع البرجية تعلو فوق أبراجه فيما أفواج السياح ترتاده لأن من لا يزور هذا الصرح لا تُحْتَسَب زيارته إلى برشلونة كمن يزور دمشق ولا يرى المسجد الجامع الأموي أو

حلب ولا يرى قلعتها أو باريس ولا يرى برج إيفّيل. ولسنا هنا بصدد حكايته التي ألمحنا إليها في نهاية حديثنا عن حياة غاودي، ولا بصدد الحديث عنه أو عن سماته المعمارية. وسنكتفي هنا بإيراد بعض الصور مع بعض الإيضاحات:

مسقط الكنيسة على شكل صليب يتشكل من تصالب الدهليز الرئيس المتجه شرقاً يتعامد معه دهليز معترض ينتهي طرفاه بواجهتين: يُمنى جنوبية وهي الأقدم وتعرَفُ بواجهة الميلاد (الصورة٤)، ويُسرى شمالية تعرَفُ بواجهة الآلام (الصورة٥) و(الصورة٦) وتتشكل كل واجهة من أربعة أبراج (قوطية) مدببة تنهض على استقامة واحدة بارتفاع يتجاوز المئة متر للبرج الواحد فوق كل مدخل. وتتوج رؤوسها تيجان (غاوديَّة) الطراز صيغت ببراعة فائقة وكُسِيَتْ بموزاييك بارع الألوان من المُشَقَّفات opus sectile تحيط بها كرات متقنة الصنع كُسِيَتْ هي الأخرى بموزاييك المشقفات أيضاً. و تعطينا (الصورة٧) نظرة من داخل أحد الأبراج وأخيراً (الصورة٨) تفصيلة أحد التيجان التي تعلو الأبراج.

٣- حديقة غويل Park Güell (الصورة٩) وهي مأثرة أخرى غنية جداً بالصرعات الغاوديّة وفيها من المفاجآت ما يُضفي على المكان جواً من الغرابة والتفرّد.

٤- بيت الـ كاسا ميلا Casa Milà ١٩٠٦-١٩١٠م (الصورة١٠) و(الصورة١١) القائم عند تقاطع شارعي Passeig de Gracia وProvenca بوسط برشلونة ينتصب ككتلة صخرية تحاكي طبيعة جبل مون سيرّات الصخري ليس بعيداً عن مدينة برشلونة في إقليم كاتالونيا.

٥- مجموعة من تصاميم أعمال الحديد المشغول في عدد من مشاريع غاودي (الصورة١٢).

٦- وأخيراً المفروشات أيضاً التي نالها الشيء الكثير من اهتمامات غاودي (الصورة١٣).

خلاصة القول:

كان غاودي ظاهرةً متفرِّدَةً بِحَقِّ مَيَّزَتْهُ عن كل من سبقه وكل من أتى بعده. وعلى الرغم من أن مجمل أعماله التي رأت النور لا يتجاوز عددُها العشرين، وعلى الرغم من أن معظم هذه الأعمال اختصَّتْ بها مدينة برشلونة من دون غيرها، وعلى الرغم من أن معاصريه لم يتقبلوا أعماله بل ناهضوها ورفضوها، فإن المعمار غاودي يحظى اليوم بسمعة قلَّ نظيرها في عالم فنِّ العمارة المعاصر بحيث لا تخلو البرامج التدريسية في مادة تاريخ العمارة بأكاديميات العمارة حيثما كانت في العالم من فصل خُصِّصَ لهذا المعمار الظاهرة. وأصبح اسمُه، مع

أسماءٍ أخرى، نجوماً تسطع في سماء العمارة المعاصرة من أمثال الفرنسي لو كوربيزييه Le Corbusier والأمريكي فرانك لويد رايت Frank Lloyd Wright والسكوتلاندي Charles Rennie Mackintosh والمعماريَّين الألمان فالتر غروبيوس Walter Gropius وبيتر بهرنس Peter Behrens ولودفيــغ ميس فــان در روهيه Ludwig Mies van der Rohe واليابــاني كنزو تانغي Kenzô Tange وغيرهم.

• • •

(•) يُلْفَـظُ هـذا الاسـم بالكاتالونية gweyy

الصور المرفقة بالبحث

(الصورة ١): المعمار الكاتالوني المبدع أنطوني غاودي إي كورنيت (١٨٥٢ - ١٩٢٦)

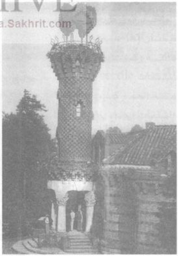


(الصورة (٢): فيلا كويخانو إل كابريتشو Villa Quijano - el - Capriho



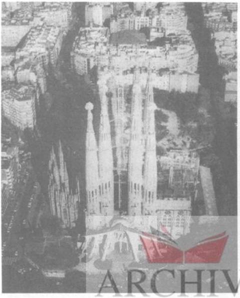
(الصورة (٢): فيلا كويخانو إل كابريتشو Villa Quijano - el - Capriho

المدخل يعلوه البرج الذي يُذكّر بالعمارة العربية



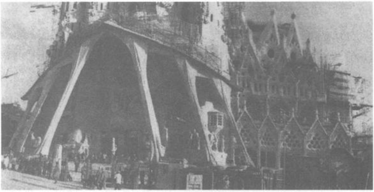
(الصورة (٤): لا ساغرادا فاميليا أي كنيسة «العائلة المقدسة» سيستمر العمل بإنشائها لسنين مقبلة طوال. يلاحظ في خلفية الصورة (إلى اليسار) استمرار الأعمال في إنشاء الدهليز الرئيس وواجهة الهيكل الرئيس المتجه شرقاً للكنيسة (إلى اليمين) التي اختير لها أن تكون على الطراز القوطي الجديد بالخط والملامح العريضة، ولكن غاودي فرض وجوده على التفاصيل بشكل لافت وطبع العمل بطابعه الخاص بحيث لم يعد البناء «قوطياً جديداً» بل «غاودياً جديداً». الواجهة الظاهرة في واجهة الميلاد من جهة الجنوب، وهي الأقدم عهداً ومنفذة قبل عام ١٩٢٦م.



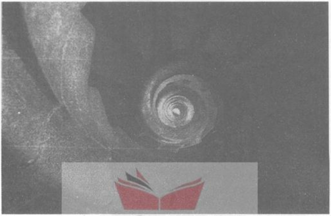


(الصورة (٥): واجهة الآلام على الطرف الشمالي للدهليز المعترض وهو الأحدث من باب الميلاد.

(الصورة (٦): القسم السفلي من واجهة الآلام



(الصورة (٧): ما يشاهده المرء ضمن أحد أبراج الـ ساغرادا فاميليا، وقد استخدمت هذه الصورة ببرشلونة على نطاق واسع كـ «بوستر» للإعلان والدعاية لاحتفالية الذكرى المائة والخمسين لولادة غاودي التي افتتحت هذا البحث بالإشارة إليها.

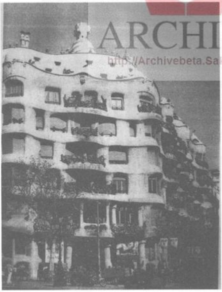




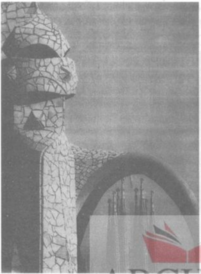
(الصورة (٨): التيجان التي تعلو رؤوس الأبراج «القوطية» المدببة الشاهقة تظهر ولع غاودي بالألوان التي وسمت أعماله وتحيط بها كرات متقنة الصنع موشاة بموزاييك من المشققات التي استخدمها على نطاق واسع أيضاً.

(الصورة (٩): السحلية الكولوسية الضخمة برأس شبيه برأس السلحفاة تستقبلك في حديقة غويل Park Guell وتؤكد مرة أخرى على ولع غاودي بالألوان وموزاييك المشغفات وبالحيوانات التي كثيراً ما نصادفها في أعماله

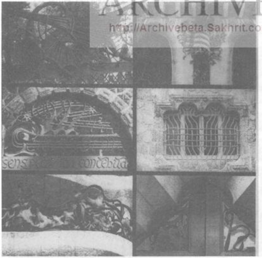




(الصورة (١٠): بيت الكاسا ميلا Casa Milla ١٩٠٦ - ١٩١٠م القائم عند تقاطع شارعي Passeig de Gracaai و Provenca بوسط برشلونة ينتصب ككتلة صخرية تحاكي طبيعة جبل مون سيرات الصخري ليس بعيداً عن مدينة برشلونة في إقليم كاتالونيا.



(الصورة (١١): أبراج الساغرادا فاميلي كما تبدو من خلال قوس تزييني يعلو سطح الـ كاسا ميلا Casa Mila ويظهر مدى ولع غاودي غير المحدود بالتفاصيل، والأمثلة الأخرى لا حصر لها.



(الصورة (١٢): مجموعة من تصاميم الحديد المشغول لغاودي البالغ الشغف بالتفاصيل.

(الصورة (١٢): والمفروشات أيضاً نالها الشيء الكثير من اهتمامات غاودي



علم التعمية (التشفير).. ماهيته واستخداماته

✪ وهدان وهدان

علم التعمية أو علم التشفير (cryptography) هو علم ممارسة إخفاء البيانات، أي بوسائل تحويل البيانات (مثل الكتابة) من شكلها الطبيعي المفهوم لأي شخص إلى شكل غير مفهوم بحيث يتعذر على من لا يملك معرفة سرية محددة معرفة فحواها. ويحظى هذا العلم اليوم بمكانة مرموقة بين العلوم، إذ تنوعت تطبيقاته العملية لتشمل مجالات متعددة نذكر منها: المجالات الدبلوماسية والعسكرية، والأمنية، والتجارية، والاقتصادية، والإعلامية، والمصرفية والمعلوماتية في شكلها المعاصر. فإن التعمية علم من علوم الرياضيات والحوسبة.

وقد استخدم التشفير منذ أقدم العصور في المراسلات الحربية وكذلك في الدبلوماسية والتجسس في شكليهما المبكرين، ويعتبر العلماء العرب أول من اكتشف طرق استخراج المعمى وكتابتها وتدوينها.

فقد أعطاهم تقدمهم في علم الرياضيات الأدوات المساعدة اللازمة لتقدم علم التعمية، ومن أشهر العلماء العرب في هذا العلم: يعقوب بن إسحاق الكندي صاحب كتاب «علم استخراج المعمى»، وابن وحشية النبطي صاحب كتاب «شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام»، المؤلف الذي كشف اللثام عن الرموز الهيروغليفية قبل عشرة قرون من كشف شامبليون لها.

ومن أمثلة استخدام التعمية قديماً هو ما ينسب إلى يوليوس قيصر من استعمال

✪ باحث وكاتب سوري.

ما صار يعرف الآن بخوارزمية (ROT١٣) لتعمية الرسائل المكتوبة باللاتينية التي يتبادلها مع قواده العسكريين، وهو أسلوب تعمية يستبدل فيه كل حرف بالحرف الذي يليه بثلاثة عشر موقعاً في ترتيب الأبجدية اللاتينية، مع افتراض أنّ آخر حرف في الأبجدية يسبق الأول في حلقة متصلة.

وقد استعمل العرب مصطلح التعمية كناية عن عملية تحويل نص واضح إلى نص غير مفهوم باستعمال طريقة محددة، يستطيع من يفهمها أن يعود ويفهم النص، غير أنه في الوقت الحالي كثر استعمال مصطلح التشفير.

التعمية.. ماهيتها وتطورها

التعمية مجموعة من الأدوات التقنية تسمح بإخفاء معلومات بوساطة شفرة سرية، كأن تكتب نصاً وتستبدل فيه كل حرف بحرف آخر أو برقم وفق قاعدة معينة (كاستبدال كل حرف بالحرف الذي يليه في الترتيب الأبجدي)، وينظر البعض إلى «التعمية» على أنها «علم السرية».

وإذا كانت التعمية في الماضي قد استخدمت أدوات من المنطق الرياضي والرياضيات ذاتها، فإنّ التعمية الحديثة أصبحت تمس العديد من المظاهر الاجتماعية وصارت بذلك وطيدة الصلة بالمجالات كافة، ومن ثم ساد استخدام أحدث الوسائل التكنولوجية، حتى أصبحنا في أمس الحاجة إلى سن قوانين جديدة تنظم سير هذا العلم وتتماشى مع نظرة الأفراد والمسؤولين إلى مفهوم السرية.

ويرى بعض المؤرخين أنّ التعمية بدأت فناً ثم صارت تقنية، ولم تلبث طويلاً حتى أصبحت علماً قائماً بذاته، وقد عاشت التعمية هذه المراحل الثلاث غير متساوية الزمن، وانتقلت من مرحلة إلى أخرى عبر انقطاعات وقفزات أوصلتها إلى عصرها الحالي، وهو يمثل من دون شك عصرها الذهبي.

وغني عن القول أنّ التعمية ظهرت منذ العصور الغابرة، فقد عثر علماء الآثار عما يثبت استعمالها في عهد الفراعنة، ويذكر أنّ اليهود قديماً كانوا يخفون معنى بعض النصوص بقلب أحرف الأبجدية، أي باستبدال آخر حرف في الأبجدية بأول حرف فيها واستبدال ثاني حرف بالحرف قبل الأخير وهكذا دواليك.

وكان قيصر الروم يستعمل شفرة سرية في مراسلاته حيث كان يسحب مثلاً جميع الحروف بأربع مراتب: الألف يصبح ثاء والباء جيماً والتاء حاء.. الخ. وقد امتدت هذه المرحلة إلى الفترة التي تفصل الحرب العالمية الأولى عن الثانية ومن المعلوم أن بعض الطرق التقليدية قد تواصل استخدامها

حتى فترة الحرب العالمية الثانية، ويرى المتتبعون أنَّ هذه المرحلة (العصر الفني كما يصفه البعض) هو الذي جذب الاهتمام وشدّ الأنظار أكثر من سواه.

ويميز المختصون بين فرعين للتعمية: Cryptology (علم التعمية) الذي يهتم بعلم المراسلات السرية وبين Cryptography (فن التعمية) الذي يعني مجموعة الطرق والتقنيات التي تضمن السرية، لكن التمييز بين المصطلحين مايزال حديث العهد ولم ينتشر استعماله بعد، وكان الاهتمام خلال العصر الفني منصباً على كيفيات التشفير، أي رد النص الغامض إلى نص مقروء وواضح استناداً إلى القواعد التي تمَّ بها التشفير، وهنا يميز المختصون بين إزالة التشفير وإزالة التعمية حيث يكمن الفرق بينهما في كون الأولى تعتمد على قواعد وآليات تمَّ بها التشفير، أمَّا الثانية (إزالة التعمية) فتتم من دون معرفة مسبقة لتلك القواعد، كما يفعل القراصنة.

لقد تطورت وتحسنت الطرق التقليدية من عهد الفراعنة وقيصر الروم إلى الحرب العالمية الأولى ببطء شديد، وعلى الرغم من ذلك ظلت التعمية تستخدم أدوات ضعيفة وسهلة الاختراق، ويرجع ذلك إلى ضعف الوسائل التكنولوجية وإلى كون الجانب النظري لم يتحرر عن الجانب العلمي.

فلم تظهر مفاهيم نظرية بارزة إلا بعد مرور فترة نضج دامت قروناً، وكان ظهور مفتاح التشفير قد مكَّن من بروز مبدأ آلية تعمية التغيرات بشكل دوري، والملاحظ أنَّ ظهور هذا المفتاح قد واكب أفول نجم الرياضيات: كان جلّ رجال التعمية خلال الفترة الممتدة من القرون الوسطى إلى عصر النهضة الأوروبية من المختصين في الرياضيات. وتغير الأمر بعد أن حلَّ العسكريون محل الرياضيين، وعند انتهاء الحرب العالمية الأولى ظهرت آلات تشفير أدت إلى الاستغناء عن كثير من الأيدي العاملة وحسنت إمكانيات التشفر، ومن ثم ظهرت الحاجة إلى تطوير الجانب النظري، فنودي مجدداً إلى الرياضيين لكنه لم يكن من السهل بالنسبة للعسكريين إعادة الرياضيين إلى مجال التعمية لأنها أصبحت تعتبر سلاحاً مرتبطاً بالجهد الحربي.

وفي هذا الجو، لا نستغرب أن نرى آينشتاين وزملاءه يبتدعون لصناعة القنبلة الذرية لوس الموس Los Alamos الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية في الوقت الذي كان فيه الرياضي البريطاني (آلن تورينغ Alan Turing ١٩١٢ – ١٨٥٤) يطور في الريف الإنكليزي آلة كولسوس Colossus التي تعتبر أول آلة إلكترونية حاسبة قابلة للبرمجة، إنه بداية

عصر جديد بالنسبة للتعمية، إنه «عصر التقنية». لقد كان مشروع كولسوس -الذي أشرفت عليه مصلحة الشيفرة البريطانية- جزءاً من برنامج يهدف إلى تعمية الاتصالات التي يقوم بها العدو.

وليس من محض المصادفة أن نجد الآلة، التي تسمى آلة تورينغ، تمثل في الواقع أنموذجاً لجهاز سمي فيما بعد كمبيوتراً!.. وهكذا نرى أنَّ التعمية كانت من وراء صناعة الكمبيوتر وظهور علم الكمبيوتر. هل نستغرب بعد ذلك صلة علم التعمية بعلم الكمبيوتر؟! ومن هنا بدأت المرحلة الثالثة للتعمية ودخلت عصرها الذهبي من بابه الواسع، ولم يكن تورينغ وحده في مجال البحث عن إزالة التعمية. ففي مخابر بيل Bell الأمريكية كان كلود شانون Claude Shannon قد وضع أسس ما يسمى بـ«نظرية السرية» حتى وإن كانت هذه النظرية قد خيبت آمال البعض.

ومهما يكن من أمر فإنَّ العسكريين ساهموا خلال قرون عديدة في تطوير التعمية، لقد كانت الاتصالات الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية تتم بالراديو عبر الشيفرة الشهيرة إنيغما Enigma، لكن البريطانيين تمكنوا من إزالة تعمية هذه الشيفرة بفضل آلة كولسوس، كما تمكن الأمريكيون أيضاً من اختراق الشيفرة اليابانية آنذاك، وساهم ذلك في انتصار الحلفاء على النازية خلال الحرب العالمية الثانية.

أقسام علم التعمية

ينقسم علم التعمية إلى قسمين: التشفير، وكسر التشفير. فواضع التعمية يكون هدفه الأساسي هو ضمان سرية المعلومات المنقولة وعدم تعرضها للمعتدي. أمَّا محلل التعمية فإنَّ هدفه مضاد تماماً وهو كسر التعمية ومعرفة محتوى المعلومات المنقولة أو تحريفها بشكل يؤدي إلى قبولها على أنها المعلومات الصحيحة. وبناءً على ذلك فإننا نستطيع تعريف التعمية على أنَّها تحويل نص واضح مقروء إلى نص غير مفهوم باستخدام إحدى طرق التعمية والتي قد تكون غير سرية ولكنها تستخدم مفتاحاً سرياً يمكّن من يمتلكه من أن يعيد النص المعمي إلى النص الواضح.

أمَّا كسر التعمية فهي العملية العكسية للتعمية، أي محاولة معرفة المفتاح السري من النص المعمي ومن ثم الحصول على النص الواضح. يتضح لنا أنَّ علم التعمية قائم على العناصر التالية: مرسل - مستقبل- رسالة- النص الواضح- النص المعمى- مفتاح التعمية.

تحليل التعمية

تعريف تحليل التعمية: هو عملية استخدام النص المعمى للتوصل إلى النص

الواضح وذلك من محلل التعمية الذي لا يعرف مسبقاً بالمفتاح السري ولكنه قد يعرف طريقة التعمية إضافة إلى معلومات أخرى مثل خصائص اللغة المستخدمة في نقل المعلومات، ومعلومات جانبية إضافية مثل طبيعة الرسالة أو موضوعها.

ويعتمد حل التعمية في كثير من الأحيان على دراسة الخصائص الإحصائية للغة المستخدمة، وأسلوب كتابة المراسلات، إذ تمتاز اللغات الطبيعية بأنها ذات تركيب إحصائي بالغ التعقيد، وقد يختلف التوزيع الإحصائي وعدد الحروف والأصوات من لغة إلى أخرى، ولكن جميع اللغات تمتاز بتوزيع غير منتظم وبتكرارية عالية نسبياً، تتيح للناطقين بهذه اللغات معرفة المعنى المقصود حتى لو فقدت أو تغيرت بعض أجزاء الرسالة أو مقاطع الكلام. ففي اللغة العربية مثلاً، يختلف التكرار النسبي من حرف إلى آخر، إذ إنَّ بعض الحروف كالألف مثلاً، ترد في النصوص نصاً مكتوباً يعتمد اعتماداً كبيراً على الحرف أو الحروف السابقة له. فاحتمال ورود حرف اللام بعد الألف في الرسائل أكثر بكثير من حروف أخرى كحرف الظاء أو الغين. بل إنَّ احتمال ورود حرف معين كما في (ال) التعريف أكثر بكثير من باقي الحروف. وإذا أخذنا حرف السين مثلاً، فإنَّ احتمال ورود التاء أو الصاد أو الضاد بعدها أو قبلها قليل، إذ ليست هناك كلمات عربية تقترن فيها التاء أو الصاد أو الضاد مع السين إلا قليلاً. ويستفيد محلل التعمية من هذه الحقائق كثيراً في حل الرسائل واستخراج تعميتها.

وفي العصر الحديث، فإنَّ تحليل التعمية علم قائم بذاته ويعتمد على علوم أخرى كثيرة أهمها علوم الرياضيات وعلوم الإحصاء، والحاسوب، والهندسة الإلكترونية وعلوم اللغة والأصوات. كما قد تتم الاستعانة بمتخصصين في علوم أخرى مساندة كعلم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ وغيرها، حسب طبيعة الموضوع وأهمية الرسالة.

طرق تحليل التعمية

إنَّ الصراع الدائم بين واضع التعمية ومحلل التعمية ما يزال قائماً منذ أن استخدم الإنسان أنظمة التعمية، حيث يكون الأمر الأهم لواضع التعمية هو تطوير نظام يصعب على محلل النظام اكتشاف مفتاحه السري.

أمَّا محلل التعمية فإنه يقوم بدراسة الطرق الممكنة التي تؤدي إلى اكتشاف بعض الثغرات في النظام المستخدم، ومن ثم حل هذا النظام، وبالتالي يصبح هذا النظام عديم الفائدة من الناحية الأمنية.

إنَّ جميع طرق التعمية تخضع لمبدأ كرتشوف (Kerckhoff's principle).

أي أنَّ محلل التعمية يكون على علم مسبق بنظام التعمية المستخدم.

الطرق الأكثر شيوعاً في تحليل التعمية هي:

١- طريقة النص المعمى فقط:
(text only -Cipher) يكون محلل التعمية على دراية بالنص المعمى.

٢- طريقة معرفة النص الواضح:
(Known plaintext) يكون محلل التعمية على دراية بجزء من الرسالة الواضحة وما يقابل هذا الجزء من الرسالة المعماة.

٣- طريقة معرفة مؤقتة للنص الواضح:
(Chosen plaintext) في هذه الحالة يكون محلل التعمية قد حصل على مدخل مؤقت لعملية التعمية. وعليه يقوم باختيار جزء من النص الواضح وإيجاد ما يقابله من النص المعمى.

٤- طريقة معرفة مؤقتة للنص المعمى:
(Chosen cipher text) في هذه الحالة يكون محلل التعمية قد حصل على مدخل مؤقت لعملية إعادة التعمية. وعليه يقوم باختيار جزء من النص المعمى وإيجاد ما يقابله من النص الواضح.

الحاسوب في خدمة التعمية

لقد سمح تطوير الحواسيب لعلم التعمية بالابتعاد عن المعالجات التقليدية المرتبطة باللغات المتداولة، الرسالة أو البرقية في مفهوم التعمية ليست سوى سلسلة من الأرقام المكونة من الرقمين ١، ٠، والملاحظ أنَّ التعمية «المدنية» ظهرت، شيئاً فشيئاً، بعد أن تبنت الولايات المتحدة الأمريكية مقياساً تجارياً للتشفير، عام ١٩٧٧م، يمكن أن يكون مرجعاً لكل رجال الصناعة وهو مقياس (Data Encryption Standard). ومازال هذا المقياس لم يفقد إلى اليوم أهميته.

إنَّ التحول من الطابع «العسكري» إلى الطابع «المدني» لم يتم من دون ظهور مستجدات على صعيد البحث العلمي في مجال التعمية، ففي حقل الصفقات التجارية لوحظ مثلاً وجود معطيات لا تعتبر سرية، وهو ما أضاف مهمة جديدة للتعمية (قد نكون حريصين في تعاملنا التجاري على عدم كشف هوية الشريك أو فحوى وثيقة لا غير)، والواقع أنَّ الحاجة إلى التعمية لم تعد عسكرية ودبلوماسية وشخصية فحسب بل أصبحت حاجة عمومية تمس الحياة اليومية، وهكذا صارت التعمية الحديثة، بفضل خدمات الكمبيوتر، اختصاصاً تابعاً لمجال البحث العمومي - إضافة إلى البحث العسكري- في المعلوماتية النظرية، ويتفق الخبراء على القول بأنَّ التعمية الحديثة قد برزت بظهور بحث الأستاذين ديفي W. Diffe وهلمان M. Hellman عام

١٩٧٦م، يؤكد هؤلاء الخبراء أن ظهور الكمبيوتر قلب المفاهيم الأساسية للتعمية، ذلك أنه وفر قوة حسابية كبيرة لفئة الباحثين في مجال غزالة التعمية.

ومن العوامل التي طورت التعمية منذ نشأتها حدة «المواجهة» بين فئة الباحثين في مجال حماية المعطيات ووضعها في مأمن من القرصنة وبين فئة الباحثين في طرق إزالة التعمية وكسر الحماية، وقد أدى تطور هذه المواجهة ببعض المسؤولين إلى رفع طابع السرية على الكثير من الخوارزميات المستخدمة، ومنذ ثمانينيات القرن الماضي أصبحت الحواسب الشخصية تزداد قوة بحيث صار باستطاعتها استخدام أنظمة تعمية كانت في السابق حكراً على الأجهزة العسكرية.. بل انقلبت الأمور اليوم وصارت أفضل خوارزميات التشفير وأفضل أنظمة التعمية تكتشف خارج المجال العسكري، وأصبح العسكريون الأمريكيون أنفسهم يشترون برامج تشفير وتعمية من القطاع المدني لسد احتياجاتهم.

التشفير الإلكتروني

احتكرت الحكومات في فترة ستينيات القرن الماضي حق التشفير وفك التشفير، وفي أوائل السبعينات أسست شركة «آي بي إم» (IBM) مجموعة تختص بأبحاث التشفير، ونجحت هذه المجموعة في تطوير نظام تشفير أطلقت عليه اسم لوسيفر «Lucifer»، وكان هذا النظام مثاراً للجدل، وعلى الرغم من تحفظات الحكومة الأمريكية عليه لاعتقادها بعدم حاجة الشركات والمؤسسات الخاصة إلى أنظمة التشفير، إلا أنه قد حقق انتشاراً واسعاً في الأسواق، ومنذ ذلك الحين أخذ العديد من الشركات يقوم بتطوير أنظمة تشفير جديدة، مما أبرز الحاجة إلى وجود معيار لعمليات التشفير. ومن أبرز المؤسسات التي أسهمت في هذا المجال، المعهد الوطني للمعايير والتكنولوجيا NIST المعروف سابقاً باسم المكتب الوطني الأمريكي للمعايير، إذ طور هذا المعهد عام ١٩٧٣م معياراً أطلق عليه «معيار تشفير البيانات»، ويستند هذا المعيار إلى خوارزمية لوسيفر «Algorithm Lucifer» التي تستخدم مفتاح تشفير بطول ٥٦ بت (bit)، وتشترط أن يكون لكل من المرسل والمستقبل المفتاح السري ذاته.

وقد استخدمت الحكومة هذا المعيار الرسمي عام ١٩٧٦م، واعتمدته البنوك لتشغيل آلات الصراف الآلي، وبعد عام واحد من تطبيق معيار تشفير البيانات «DES» طور ثلاثة أساتذة جامعيين نظام تشفير آخر أطلقوا عليه اسم «RSA»، ويستخدم هذا النظام زوجاً من المفاتيح «مفتاح عام» و«مفتاح خاص»، عوضاً عن

استخدام مفتاح واحد فقط. وعلى الرغم من أن هذا النظام كان ملائماً جداً لأجهزة الكمبيوتر المعقدة، إلا أنه قد تمّ اختراقه فيما بعد، وبقيت الحال على ذلك حتى قام «فيل زيمرمان» عام ١٩٨٦م بتطوير برنامج تشفير يعتمد نظام «RSA»، ولكنه يتميز باستخدام مفتاح بطول ١٢٨ بتاً، ويدعى «برنامج الخصوصية المتفوقة»، ويتوافر من هذا البرنامج نسخة تجارية ونسخة مجانية، وهو من أكثر برامج التشفير انتشاراً في وقتنا الحالي. وينقسم التشفير الإلكتروني إلى قسمين:

١ - التشفير المتماثل (المفتاح السري)

في التشفير المتماثل، يستخدم كل من المرسل والمستقبل المفتاح السري ذاته في تشفير الرسالة وفك تشفيرها، ويتفق الطرفان في البداية على عبارة المرور (كلمات مرور طويلة) التي سيتم استخدامها، ويمكن أن تحوي عبارة المرور حروفاً كبيرة وصغيرة ورموزاً أخرى، وبعد ذلك تحول برمجيات التشفير عبارة المرور إلى عدد ثنائي، ويتم إضافة رموز أخرى لزيادة طولها، ويشكل العدد الثنائي الناتج مفتاح تشفير الرسالة. وبعد استقبال الرسالة المشفرة، يستخدم المستقبل عبارة المرور نفسها من أجل فك شيفرة النص المشفرة، إذ تترجم البرمجيات مرة أخرى عبارة المرور لتشكيل المفتاح الثنائي الذي يتولى إعادة تحويل النص المشفر إلى شكله الأصلي المفهوم. ويعتمد مفهوم التشفير المتماثل على معيار DES، أما الثغرة الكبيرة في هذا النوع من التشفير فكانت تكمن في تبادل المفتاح السري من دون أمان، مما أدى إلى تراجع استخدام هذا النوع من التشفير، ليصبح شيئا من الماضي.

٢ - التشفير اللاامتماثل (المفتاح العام)

جاء التشفير اللاامتماثل حلاً لمشكلة التوزيع غير الآمن للمفاتيح في التشفير المتماثل، فعوضاً عن استخدام مفتاح واحد، يستخدم التشفير اللاامتماثل مفتاحين اثنين تربط بينهما علاقة، ويدعى هذان المفتاحان بالمفتاح العام والمفتاح الخاص، ويكون المفتاح الخاص معروفاً لدى جهة واحدة فقط أو شخص واحد فقط، وهو المرسل، ويستخدم لتشفير الرسالة وفك شيفرتها.

أمَّا المفتاح العام فيكون معروفاً لدى أكثر من شخص أو جهة، ويستطيع المفتاح العام فك شيفرة الرسالة التي شفرها المفتاح الخاص، ويمكن استخدامه أيضاً لتشفير رسائل مالك المفتاح الخاص، ولكن ليس بإمكان أحد استخدام المفتاح العام لفك شيفرة رسالة شفرها هذا المفتاح العام، إذ إنَّ مالك المفتاح الخاص هو الوحيد الذي

يستطيع فك شيفرة الرسائل التي شفرها المفتاح العام.

ويدعى نظام التشفير الذي يستخدم المفاتيح العامة بنظام «RSA»، وعلى الرغم من أنه أفضل وأكثر أمناً من نظام «DES» إلا أنه أبطأ، إذ إنَّ جلسة التشفير وجلسة فك التشفير يجب أن تكونا متزامنتين تقريباً. وعلى كل حال، فإنَّ نظام «RSA» ليس عصياً على الاختراق، إذ إنَّ اختراقه أمر ممكن إذا توافر ما يلزم لذلك من وقت ومال، ولذلك تمَّ تطوير نظام «PGP» الذي يعد أنموذجاً محسناً ومطوراً من نظام «RSA» ويستخدم «PGP» مفتاحاً بطول ١٢٨ بتاً، إضافة إلى استخدامه البصمة الإلكترونية للرسالة «message digest» ولا يزال هذا النظام منيعاً على الاختراق حتى يومنا هذا.

الأعداد والتعمية

هناك طريقتان رئيستان للتشفير: نظام يقوم على مفتاح متناظرة تسمى «المفتاح السرية» ونظام يقوم على مفتاح غير متناظرة يسمى «المفتاح العمومية»، إذا استخدم شخصان «المفتاح المتناظرة» في تبادل الرسائل ينبغي عليهما اقتحام سر يدعى المفتاح السرية، تسمح هذه المفتاح بتشفير الرسالة عند الإرسال ثم إزالة تشفيرها عند الاستلام، وأبرز نقص في هذه التقنية هو وجوب إرسال المفتاح أولاً، ولذا وجب أن تكون قناة المراسلة قناة آمنة.

أمَّا «المفتاح العمومية» فتتكون من جزأين لهما وظيفتان مختلفتان: جزء (مفتاح) سري وجزء (مفتاح) عمومي وعلى كل شخص أن يعلن للآخر عن مفتاحه العمومية ويحافظ على مفتاحه السرية، ويتم التشفير بوساطة المفتاح العمومية التي يمتلكها مستلم الرسالة ويزال التشفير بوساطة المفتاح السرية لهذا الأخير. يقوم مبدأ المفتاح العمومية على خواص الأعداد الطبيعية. من لا يعرف تلك الأعداد التي لا تقبل القسمة على عدد سوى على الواحد وعلى نفسها؟ إنها الأعداد الأولية: ٢، ٣، ٥، ٧، ١١، ١٣، ١٧، ١٩، ٢٣.....

ويعلم الرياضيون من قديم الزمان أن قائمة هذه الأعداد غير منتهية.

طريقة استخدام الأعداد في التعمية

من المعلوم أنه كلما كان العدد الطبيعي عدد أرقامه ١٥٠٠ رقم. نحن نستطيع عادة القيام بهذه العملية اعتماداً على الطرق التقليدية، مستنجدين بالحاسوب إذا كان عدد أرقام العدد المطلوب لا يتجاوز كثيراً ١٥ رقماً. وباستعمال وسائل ضخمة مثل استخدام آلاف الحاسوبات المنتشرة عبر العالم والمترابطة فيما بينها من خلال شبكة الإنترنت.

تمكّن الرياضيون منذ بضع سنوات من تفكيك عدد صعب النشر يبلغ عدد أرقامه ١٢٩ رقماً. ولذلك فإنَّ مسألة تفكيك الأعداد الكبيرة تمثل بالنسبة للمختصين في نظرية الأعداد تحدياً حقيقياً.

تعتمد فكرة استخدام الأعداد الأولية في مجال التعمية -وبصفة خاصة في المراسلة بوساطة المفتاح العمومية- على ملاحظتين: إنه من السهل إيجاد عددين أوليين كبيرين أ. ب ثم حساب حاصل ضربهما أ × ب = ج، لكنه من الصعب جدا إتباع المسلك المعاكس، أي تحديد العددين أ، ب انطلاقاً من معرفتنا للعدد الكبير ج. هذه الصعوبة، بل هذه الاستحالة العملية، هي التي تضمن استحالة إزالة تعمية المراسلات بالمفتاح العمومية من طرف أحد الجواسيس حتى لو علم بقيمة العدد ج.

ولابد من أن نشير، بخصوص الأعداد الأولى إلى دور نظرية الأعداد في مجال التعمية الذي يطرح أمام الرياضيين قضايا تخص أدبيات مهنتهم. فعلى سبيل المثال، إذا اكتشف أحدهم طريقة أكثر فعالية من الطريقة السابقة، تمكن من تفكيك الأعداد الطبيعية إلى عوامل أولية، ماذا عليه أن يفعل؟ هل يبعث بها إلى أعلى سلطة في البلاد أو يعرضها أمام الجمهور في ندوة عالمية حتى لا يستغلها أحد ضد الآخرين؟.. أو يبيعها إلى من يدفع أكثر؟!.. ذلك هو التساؤل الذي يتبادر إلى ذهن الباحثين في هذا الحقل، ويقارن الخبراء علم التعمية بشبكة الإنترنت، فكلاهما ترعرع لدى العسكريين، وعندما فك العسكري الحصار عليهما وجعلهما في متناول المدني تطورا بشكل مدهش وقدما خدمات لا تضاهى للمدنيين والعسكريين وللناس أجمعين.

التشفير عبر الإنترنت

التشفير عبر شبكة الإنترنت هو عبارة عن عملية تغيير في مفتاح الدخول للبيانات، بحيث لا يتمكن من ذلك سوى الشخص المستقبل وحده، باستخدام مفتاح فك خاص، ويتوافر المفتاح ذاته لدى المرسل والمستقبل، ويستخدم في عمليتي التشفير وفك التشفير، وهنالك مفتاح عام للتشفير (Public Key -) وآخر خاص (Private- Key)، يتوافر فقط لدى الشخص الذي أنشأه، ويمكن بهذه الطريقة لأي شخص يملك المفتاح العام. أن يرسل الرسائل المشفرة، ولكن لا يستطيع أن يفك شيفرة الرسالة، إلا الشخص الذي لديه المفتاح الخاص. ويعتبر برنامجا (PGP) و(DES)، الأكثر انتشاراً بين البرامج التي تستخدم التشفير بطريقة المفتاح العام.

أمَّا التشفير باستخدام تقنية البيانات القياسي (Data Encryption

Standard، DES) فطورتها شركة «أي بي أم»، ويتألف المفتاح الخاص من ٦٤ بتاً من البيانات، والتي تحول وتدمج مع أول ٦٤ بتاً من الرسالة المرسلة، ثم تقسم الرسالة المرسلة إلى مقاطع طول كل منها ٦٤ بتاً، ثم يتعرض كل منها إلى ١٦ عملية تحويل معقدة، وتكون هذه التقنية ضعيفة إذا كانت دورة التشفير فيها لمرة واحدة، بينما توفر إعادة استخدامها مع مفاتيح مختلفة سرية ممتازة.

هذا وكانت التقنيات المتقدمة في التشفير حصراً على الحكومات والمؤسسات الكبيرة، حتى كتب المبرمج فيليب زيمرمان في العام ١٩٩٨م، برنامج Pretty Good Privacy ، PGP)) أو «الخصوصية الجميلة» وهو برنامج تشفير يستخدم ١٢٨ بتاً، أعد لتشفير رسائل البريد الإلكتروني والملفات الشخصية. وتؤدي زيادة عدد البتات في طول مفتاح التشفير، إلى زيادة صعوبة كسر المفتاح. وتزيد في الوقت نفسه الزمن اللازم لفك التشفير، فخوارزمية مثلاً، تعمل على ٤١ بتاً تستهلك ضعف الزمن اللازم لفك تشفير خوارزمية ٤٠ بتاً. وتستهلك خوارزمية ٤٢ بتاً ضعف الزمن اللازم لفك تشفير خوارزمية من ٤١ بتاً. وهكذا لا يمكن كسر تشفير خوارزمية بطول ١٢٨ بتاً، على كمبيوترات هذه الأيام، وقد اعتبر برنامج (PGP) الذي يقدم مجاناً على الإنترنت من أهم برامج التشفير العامة وأوسعها انتشاراً حتى جاء تقرير بنهام الذي أوضح بأنه سهل الاختراق وغير مأمون.

أمّا بروتوكول التشفير والتوثيق فهو برنامج مفتاحي لتشفير البيانات، وله موقع خاص على الإنترنت وهو يعمل من خلال المتصفح (إنترنت إكسبلورر). ويعتمد بروتوكول طبقة حماية الاتصال (SSL) على آلية تتم على مرحلتين:

- أولاً: تشفير البيانات رقمياً.
- ثانياً: التأكد من سرية وسلامة هذه البيانات حتى تصل إلى نقطة فك التشفير (Decrypt).

وتتم عملية التشفير بعدة طرق، ولا بد من الاتفاق على الطريقة التي ستستخدم في تشفير البيانات بين مصدر التشفير ومتلقي البيانات، لأنَّ عدم وجود مثل هذا الاتفاق يعني عدم قدرة المتلقي على الحصول على المعلومة المراد إرسالها، وتتم آلية التشفير عن طريق تكنولوجيا المفتاح العام، أو تكنولوجيا المفتاح السري أو كليهما (ويتميز بروتوكول

طبقة حماية الاتصال باستخدامه لكل من تكنولوجيا المفتاح السري معاً). وإضافة إلى عملية التشفير يستخدم بروتوكول طبقة حماية الاتصال طريقة تعريف الجهات التي تتضمن التأكد من أن الجهة التي يتم الاتصال بها هي الجهة المراد الاتصال بها فعلاً كي لا ينسحب إلى جهة مفتعلة يهيئها المتلصص أو القرصان. وتعتمد هذه العملية على إعطاء شهادات تعريف رقمية تمنح من خلال شركات توثيق للجهات المختلفة والتي تستخدم هذه الوثائق الرقمية لتعريف نفسها، وإعطاء الجهات الأخرى المتعاملة معها الفرصة في التحقق منها. ويقول مصممو البروتوكول أنه يضمن سرية الاتصال عن طريق استخدام ثلاث آليات هي:

١ - التشفير لتعريف المفتاح السري.

٢- التعريف لتحديد هوية الجهات عن طريق تبادل شهادات التعريف.

٣ - التأكد من تكامل الرسائل وعدم اختراقها من جهات غير مسموح لها حيث يضاف إلى الرسالة جزء خاص يطلق عليه (MAK) وهو اختصار لمفهوم كود تعريف الرسالة. جزء يتم تكوينه عن طريق أجزاء من الرسالة ومجموعة من الحسابات الخاصة.

ويتم من خلاله أيضاً اختبار تكامل الرسالة عند تسلمها.

ويتكون بروتوكول طبقة الاتصال من أربع طبقات رئيسية هي:

١- طبقة التسليم: وهو يسمح للمستخدم بالتحقق من الخادم (Server) والاتفاق على طريق التشفير.

٢- طبقة التسجيل: ويتم من خلالها تحديد الصياغة التي ستستخدم لنقل البيانات وتجميعها في صورة مجموعات وضغطها تمهيداً لإرسالها.

٣- طبقة تغيير طرق التشفير: يتم من خلالها التحقق من طريقة التشفير التي تمَّ الاتفاق عليها في خطوة التسليم ينتج عنه رسالة تحذيرية تؤدي إلى قطع الاتصال.

٤- طبقة الرسائل: وتقوم بإصدار رسائل تحذيرية مثل رسائل الإغلاق وتستخدم لإخبار كل من الخادم والمستخدم بأنَّ عملية نقل المعلومات على وشك الانتهاء. أمَّا رسائل (الأخطاء) فتصدر في حالة حدوث خطأ ما في أي مرحلة من مراحل التشغيل.

ويعمل بروتوكول طبقة الاتصال بين طبقة النقل والتطبيقات الخاصة ببروتوكول الشبكات مما يعطي الأول مساحة تطبيق

أوسع من خلال التطبيقات التي تستخدم (TCP/IP). ونظراً لكل تلك المميزات السابقة فقد تمَّ اعتماد بروتوكول طبقة حماية الاتصال كأسلوب موحد لتأمين نقل المعلومات على الإنترنت. أمَّا الخلل في الإنترنت إكسبلورر الذي كشف عنه بنهام ونشرته وكالة رويترز فيعود إلى فشله في فحص صحة الشهادات الرقمية المستخدمة لإثبات هوية مواقع الإنترنت مما يسمح لشخص غير معروف بشن الهجوم. وتصدر الشهادات الرقمية عادة من جهات موثوق بها مثل VERISIGN وتستخدمه مواقع الإنترنت مع بروتوكول (SSL) للتشفير والتوثيق.

هل العولمة والحضارة ظاهرتان حديثتان؟

عبد الكريم إبراهيم قميرة ✪

يعتقد معظم المفكرين والباحثين في العالمين العربي والغربي أنَّ العولمة بمفهومها التمددي الهادف إلى السيطرة على الشعوب، ظاهرة حديثة ولا تتجاوز مدة ظهورها العقدين الأخيرين من القرن العشرين، خاصة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي ومنظومة الدول الاشتراكية في أوروبة الشرقية، وبالتالي بعد انهيار التجربة الاشتراكية الأولى الرائدة التي حققت للبشرية كلها أحلامها وأشواقها إلى العدالة والمساواة والاستقرار الاجتماعي والحياة الآمنة المطمئنة.

إنَّ العولمة بصفتها حركة اندماج أسواق في مجالات التجارة والاستثمار وانتقال الأموال والمولين، وما يتبع ذلك من هيمنة هذه الرساميل، ليست جديدة، وإن كانت قد ارتدت الآن جلباباً عصرياً برّاقاً ساهم في أناقته تعميق الثورة العلمية والثقافية، إضافة إلى التطورات التي حدثت في عالم الاتصالات من خلال تطور الحواسب الالكترونية والأقمار الصناعية..

وهذه الثورة التقنية ابتدأت بواكيرها في منتصف القرن التاسع عشر وتألق ازدهارها في نهاية القرن العشرين.. وها نحن في بداية القرن الواحد والعشرين نشهد استمرار محاولة القوى الرأسمالية كي تهيمن مالياً واقتصادياً وعسكرياً أحياناً على شعوب العالم قاطبة لاستنزاف دمائها وثقافتها واستلاب شخصيتها القومية المميزة لإعطائها شخصية ومزايا الدولة المسيطرة، الغازية..

✪ أديب وباحث سوري.

والتاريخ القديم مليء بالأمثلة في مشارق الأرض ومغاربها والتي تشير بوضوح إلى أنَّ البشرية لم تخل يوماً من طامع غازٍ يسعى للإمساك بناصية الشعوب المجاورة القريبة والبعيدة لاقتناص خيراتها والتمتع بثرواتها وإخضاع أبنائها..

وعلماء التاريخ يذكرون أن أقدم الدول الغازية هي دولة الفرس، وهم شعوب آسيوية اختلطت بها عناصر هندوأوروبية وتألفت من دمج شعبين متجاورين هما الميديون والعيلاميون.. وقد تزعم هذه الدولة الناشئة الأسرة الأخمينية، فاحتلت آسيا الصغرى إضافة إلى أفغانستان وباكستان وامتد نفوذها إلى نهر الهندوس في الهند..

وبدأت الدولة الفارسية الناشئة تخطط لاحتلال سورية البابلية وكانت دولة عظمى تقف سداً منيعاً وحاجزاً متيناً أمام الفرس للوصول إلى مصر والبحر المتوسط.. وكان يحكم سورية العاهل العربي البابلي نبوخذ نصر، الملك العاقل العادل الذي وضع حداً لتجاوزات الكهنوت البابليين ولجشع التجار اليهود المستثمرين، فتآمروا ضده مع الغزاة الفرس وسهّلوا لجيوشهم دخول مدينة بابل العاصمة حين قطعوا مياه نهر الفرات عن الخزانات لملء الخنادق المحيطة بالمدينة مما أدى إلى سقوطها بيد القوات الفارسية..

وهكذا احتل الغزاة الفرس آسيا الوسطى والساحلية بعد أن دخلوا بابل من دون مقاومة تذكر، لأن الدخول كان مبيّتاً مع الكهنة والقادة المتآمرين والتجار اليهود الضالعين، وكان ذلك عام ٥٣٩ قبل الميلاد، وخلال حكم الملك الفارسي الأخميني قورش.

وبسقوط بابل انتهى حكم الأسرة العربية البابلية الذي دام مدة سبعين عاماً، تحققت خلالها وحدة سورية الطبيعية حتى حدود مصر وشبه الجزيرة العربية، وبالتالي أدى ذلك إلى خضوع سورية مدة كبيرة من الزمن تقارب الألف عام للغزاة الفرس.

وكان سقوط الدولة العربية البابلية الآرامية حدثاً مفجعاً، لكن ذلك لم يمنع أن تظل لغتها العربية الآرامية سائدة كلغة رسمية لدولة الفرس التي امتدت من الهند إلى النيل، ومن المحيط الهندي إلى الدانوب في أوروبة.

وهكذا فإنَّ حضارة الشعب المهزوم بقيت سائدة على الفرس الذين اعتمدوا النظام الفلكي البابلي والطب إضافة إلى أسلوب هذا الشعب في العمارة والنقوش، كما تأثروا بديانة البابليين..

وقد تمدّد الفرس وسيطروا على المدن اليونانية كلها بما فيها إسبارطة وأثينا ومقدونيا.. وبذلك انتقلت إلى هذه البلاد الحضارة السومرية البابلية الآرامية فاعتنقتها وأخذت بها.

ويخبر التاريخ أن الإسكندر المقدوني، وبمساعدة عناصر فارسية متآمرة استطاع أن ينتصر على الإمبراطورية الفارسية في معركة إيسوس قرب خليج الإسكندرون عام ٣٣٣قبل المسيح، وانتهت هذه المعركة بانتصار المقدونيين فرحبت البلاد كلها ونبلاؤها ومدنها باستثناء مدينة صور التي قاومت الإسكندر مدة سبعة شهور.

وكذلك مدينة غزة، وتقول المصادر الموثوق بصحتها أنَّ الإسكندر لدى وصوله إلى مصر تبنى الحضارة المصرية وزار معبد آمون كي يتكرّس إلهاً إرضاءً للمصريين وتطبيقاً لقول أستاذه أرسطو: «إنَّ الملك الرفيع الذكاء هو إله بين البشر» وبعدها سمّى الإسكندر نفسه (ابن الإله آمون) وكان يوقع رسائله باسم «الإسكندر ابن المشتري آمون».

وقد روّجت الأوساط الغربية الاستعمارية خلال فترة من الزمن أنَّ اليونان رفعوا مستوى الشرق حضارياً وفكرياً إلى مستوى الغرب الأوروبي، لكن المصادر الأكاديمية تنص على أن المصريين والسوريين هم الذين علّموا اليونان الكتابة والعلوم المختلفة والصناعة والآداب وغيرها من مظاهر الحضارة.

كما أنَّ الإسكندر، (واسمه آرامي عربي) خضع للتقاليد المصرية السورية ومجّد آلهتهم إضافة إلى تقديسه للآلهة اليونانية.

وبقيت اللغة الآرامية العربية لغة الإدارة في الإمبراطورية اليونانية، وكانت تدوّن أحياناً بالمسمارية وأحياناً بالأبجدية السورية، وأحياناً أخرى بالإشارات اليونانية المنسوخة لفظياً عن الآرامية.

ومات الإسكندر في بابل وهو يعتقد أنه زاوج بين الشرق والغرب، وأنه نقل الثقافة الهلّينية وحضارتها إلى الشرق وإلى مصر، علماً بأن هذه الحضارة الهلّينية هي امتداد وانتشار للحضارة الآرامية القديمة المتوارثة عن السومريين أساتذة العالم في التاريخ القديم.

مات الإسكندر ولم يتوقف التمدد والطمع بالعالم الشرقي العربي، وكانت روما آنئذ في بداية ازدهارها فسعت كي ترث اليونان في تمددها وسيطرتها وهيمنتها على العالم المعروف في ذلك الحين.. فاعتمد الرومان على البطالسة اليونان المصريين للسيطرة على سورية السلوقية، وبعدها سيطروا بشكل كامل على مصر بعيد معركة أكيتوم عام ٣١قبل الميلاد وانتحرت بعدها مباشرة الملكة كليوباترة.

وقد نهبت الجحافل الرومانية ثروة الشرق ومصر والبلاد الساحلية الأفريقية.. ولما خافت روما من خطر الدولة العربية في تدمر، المدينة القوية المحصنة جيداً بقيادة

الملكة العظيمة زنوبيا، أرسلت جيوشها واحتلتها عام ٢٧٢ميلادية، ودمّرتها خوفاً على مصالح التجارة الرومانية التي تضررت من وجود دولة فتية تسيطر على مصر وسورية وتجبي الضرائب والرسوم من قوافل التجار.

لكن روما مع عظمتها، بقيت متأثرة بالحضارة اليونانية السورية الآرامية المنتشرة في البلاد، وإن كانت خلال فترة سيطرتها، قد أصدرت القوانين الناظمة لحياة الناس وتجارتهم، فإنّ هذه القوانين قد اقتبستها من شريعة حمورابي التي كانت شائعة في البلاد السورية المصرية؛ وخلال السيطرة الرومانية الأولى ظهر السيد المسيح وانتشرت أفكاره ومبادئه فلاقى هو ثم أنصاره ومريدوه الاضطهاد والتنكيل..

وقد سقطت دولة روما في القرن السادس الميلادي إثر هجوم القبائل الجرمانية وحلت محلها دولة البيزنطيين، وهم الرومان الشرقيون، وخلال حكمهم حل الوئام والتسامح مع المسيحية والمسيحيين، وأصبحت عاصمتهم القسطنطينية، باسم إمبراطورهم قسطنطين الذي اعتنق المسيحية وأصدر عام ٣٢٥ميلادية في مؤتمر نيقية، القانون المسيحي وحدّد الأناجيل بأربعة وهي المعروفة في وقتنا الحاضر وبقي إنجيل لقيط هو إنجيل برنابا..

وبقيت الدولة البيزنطية مسيطرة مدة ألف عام ونيف، إلى أن سقطت تحت مدافع الغزاة العثمانيين عام ١٤٥٣م بقيادة السلطان محمد الفاتح فهرب علماء بيزنطة إلى أوروبة وساهموا بشكل فعّال في انبعاث عصر النهضة فيها.

لكن الدولة البيزنطية خلال حكمها الطويل تأثرت بالحضارة الآرامية اليونانية السورية بتقاليدها وأفكارها وثقافتها ولغتها.. وإن كان الإمبراطور جوستنيان عام ٥٦٥ميلادية وما بعدها قد أصدر قوانينه الشهيرة، فهي اقتباس عن قوانين حمورابي وعن التشريعات البابلية الآرامية السورية.

ويتحدث التاريخ الأكاديمي عن امتداد عالمي وعولمي آخر، وهو انتشار المسيحية منذ بداية المرحلة الرومانية.. هذا الانتشار لم يكن عسكرياً أو تجارياً بل فكرياً وأخلاقياً واجتماعياً.. إنّ السيد المسيح أخذ يعلم الرحمة والمساواة والمحبة والأخوة في الإنسانية والابتعاد عن الغنى وعن التجارة المشبوهة والمال الحرام، واعتبر التجار اليهود أعداء الإنسانية فعذِّب وصلب كما تقول كتب التاريخ بتحريض من الأحبار اليهود، ثم عُذب أتباعه ومريدوه في كل مكان..

لكن المسيحية انتصرت وأصبحت عالمية بعد أن اعتنقها أناس كثيرون وفي مقدمتهم الإمبراطور قسطنطين..

وبقي التأثير المسيحي سائداً منفرداً إلى أن ظهر الإسلام في مكة على يدي الرسول العربي العظيم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) فحارب التجار الجشعين الساعين للربح الحرام، وبشر بالعدالة والمساواة بين جميع الناس، وطالب بإلغاء الرق واحترام المرأة، وحدد الزواج بأربع نساء، وحضّ على الاكتفاء بواحدة تأميناً للعدل بين النساء، ودعا إلى مساواة المرأة بالرجل بعد أن كانت مضطهدة، ومنع وأد البنات، وتلك عادة بغيضة كانت شائعة منذ الجاهلية، ثم بنى دولة عربية اتسعت في مابعد حتى شملت جميع أنحاء الدولة المقدونية والرومانية والفارسية، أي معظم أرجاء العالم المعروف في ذلك الوقت..

وانتشرت حضارة عربية عالمية جديدة بمفهومها الإنساني المتسامح مع جميع الشعوب والأديان وساوت بين الناس كلهم بمختلف أعراقهم وألوانهم..

وإن كان الحكام الأمويون ثم العباسيون ثم العثمانيون، كما يقول العلامة محمد قطب في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» قد حرَّفوا مبادئ القرآن وشعائر الإسلام وقلّصوا روحه، فقد بقي الإسلام شعلة مضيئة ومشكاة هادية خلال التاريخ، بما قدّم للبشرية من ازدهار حضاري في الأخلاق والآداب والطب بأنواعه المتعددة والعمارة والزخرفة والقوانين والتشريعات.

هذه الحضارة ما تزال أوروبة تنعم بمزاياها في مختلف المجالات الإنسانية.. وما الطب العربي الحالي إلا ترجمة وتكرار للطب العربي وما القوانين التي أصدرها نابليون عام ١٨٠٤م إلا تكرار لقوانين جوستنيان المقتبسة عن شريعة حمورابي التي ظهرت عام ١٦٩٥قبل الميلاد، واستعارة من تشريعات القرآن الكريم..

وثمة عولمة فكرية واقتصادية وسياسية طبقية، وهي الفكر الاشتراكي الذي بدأ ينتشر منذ أواخر الثلث الأول من القرن التاسع عشر..

إنَّ الدعوة إلى تطبيق الاشتراكية جاءت انعكاساً للأوضاع الاجتماعية التي سادت في أوروبة بعد نشوء الطبقة البورجوازية وانتصارها إثر ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٧٨٩ في فرنسا، وسقوط طبقة النبلاء الإقطاعيين وحلّ محلهم رجال البنوك والمرابون وأصحاب المصانع بعد أن دفعوا عمالهم وأجراءهم من الطبقة الفقيرة الكادحة والتي كانت تعيش في ضنك شديد لا تجد لقمة العيش، وكان أفرادها يرتدون الأسمال البالية، مما دفعهم إلى الثورة على النظام الملكي الإقطاعي وإلى إسقاط الملك شارل السادس عشر، اعتقاداً منها، أي من الطبقة الفقيرة من الأجراء والعمال

والمزارعين المسحوقين أن أحوالهم ستتحسن وسيصل أفرادها إلى تأمين كفايتهم من الطعام والخبز والثياب، بعد أن شبعوا من وعود رجال الكنيسة الفرنسية رجال الأكليروس، تلك الوعود المخدرة الواعدة بأنَّ لهم الجنة والنعيم الأبدي وبأنَّ المسيح ابن الله وكلمته قد اضطهد وعذِّب وصلب ومات وهو جائع، فلماذا لا يقتدون به؟!

والمعروف تاريخياً أن اعتراضات واحتجاجات سابقة ارتفعت وكانت ترتدي الطابع الديني، لكنها في الحقيقة كانت تندِّد باستغلال الفقراء، وأقوى هذه الاحتجاجات هي الصرخة التي صدرت عن الكاردينال مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦م) ضد سيطرة البابوات وصفقات بيع صكوك الغفران للمؤمنين الأغنياء القادرين على شراء أراضي في الجنة، واستنكر مارتن لوثر أيضاً حالة الفساد والغنى الفاحش التي كان يرتع بها رجالات الكنيسة في روما خاصة وفي أوروبة عامة، وكيف كان الدين مطية للطبقة الحاكمة من أجل تهدئة خواطر الفقراء المحتاجين وصرف نظرهم عن الثورة ضد جور الحكام والملوك.

ولابدَّ من أن نذكر أيضاً تآمر رجالات الكهنوت لتخدير الفقراء وتحويل اهتماماتهم بأسيادهم النبلاء الإقطاعيين وحلفائهم التجار في القرن الحادي عشر بأن حضّوهم على الإسراع إلى بيت المقدس حيث قبر السيد المسيح للتمتع بالذهب الشرقي أولاً، وبحجة حماية الحجاج المسيحيين من اعتداء المسلمين ثانياً في حملات صليبية ثمان؛ وخلال مئتي عام ذهب الفقراء وقوداً للحروب وتمتع القادة والملوك وشركاؤهم رجال الكهنوت الأوروبيون بالثروة والرفاه.

وقد اتسعت أرجاء الرأسمالية الناشئة بعد سقوط ملك فرنسا وامتد شأنها من خلال إمبراطورية نابليون الأول الذي تمددت جيوشه شرقاً حتى موسكو مكتسحة البلدان الأوروبية كلها، وغرباً وجنوباً حتى إسبانيا والبرتغال.. وقد مُوِّلت حملاتها كلها من المصارف الفرنسية وغير الفرنسية التي يسيطر عليها آل روتشيلد اليهود الجشعون.. وعندما استنفد هؤلاء أغراضهم من نابليون سارعوا وساهموا في إسقاطه لإعادة ملكية دستورية بورجوازية خاضعة لبنوكهم واستثماراتهم..

ولم يكتف البورجوازيون بالحروب واستعمال الدين لإخماد ثورة الفقراء وتهدئتهم، بل ابتكروا أفكاراً رجعية متعددة لصرف أفكار الطبقة الكادحة عن المطالبة بأي إصلاح معيشي باللجوء إلى مفكرين ومنظرين رجعيين..

ويأتي في مقدمة هؤلاء روبرت مالتوس الإنكليزي.. (١٧٦٦-١٨٣٩م)، الذي رأى

حالة البؤس والشقاء التي يعيش فيها آلاف العمال المشرّدين الذين استغنت عنهم الطبقة البورجوازية الرأسمالية مالكة المعامل، إثر الثورة الصناعية واختراع الآلات والماكينات التي تنتج أكثر بأيد عاملة أقل..

مما سبب خراب الطبقة العاملة وتجويعها. هذا المفكر المتشائم مالتوس تجنّد لخدمة الطبقة البورجوازية فربط بين حالة الفقر والبؤس لدى الكادحين، وبين زيادة عدد السكان؛ واعتقد بإيمانه الرجعي المخادع أنَّ طرح فكرته ستكون وسيلة لمنع الطبقة الفقيرة من الثورة والعصيان والمطالبة بأي حقوق أو تحسين مستوى معيشتهم.. فماذا فعل؟!

لقد زعم أنَّ السكان يتزايدون عدداً بشكل متوال هندسي (٢٠١، ٨،٤، ١٦،...)، بينما لا تزداد الأرزاق في الوقت نفسه إلا بشكل متوال حسابي (١، ٢، ٣،٤،٥) حتى في أحسن الظروف، ولذلك فإنَّ العلاج الناجح هو في تحديد النسل بشكل طوعي من أجل تحقيق التوازن بين عدد السكان وكمية الأرزاق.. أو ينبغي على الفقراء أن لا يتزوجوا، وأن يخلدوا للعزوبية أو الإقلال من الأولاد..

والجدير بالذكر أن مالتوس لا يقرّ باستعمال الوسائل المانعة للحمل، كما أنه لا يقبل أن تقدم الدولة أي مساعدات للفقراء.. وادّعى مالتوس أنه بهذه الطرق يسعى لتحسين مستوى الطبقة الكادحة ولزيادة سعادتها وإبعاد شبح الفقر والمجاعة عنها، ويبعد خطر الثورات الاجتماعية ضد الدولة..

وقد هللّت، طبعاً، الطبقة البورجوازية أصحاب المصانع والمشاريع التجارية لأفكار مالتوس التي نشرها عام١٧٩٨م في كتاب (بحث في مبدأ السكان)، وأعيد طبعه عام ١٨٠٣م، ثم تعددت طبعاته بعد ذلك لأن البورجوازيين الرأسماليين وجدوا في هذه الآراء حماية لهم من المطالبة بمسؤولية زيادة أجور العمال وتمكّنهم من تسريح من لا يحتاجون إليه منهم بوجود الآلات الصناعية، وبذلك تزداد أرباحهم..

وقد لاقى كتاب مالتوس انتقاداً شديداً كبيراً من كارل ماركس وفريدريك إنجلز واعتبراه: «أكبر إعلان حرب من البورجوازية على البروليتاريا» وكتب ماركس بغضب واستهجان قائلاً: «إنَّ مالتوس يتميّز بعمق انحطاط الفكر وبتدنٍ لا يمكن أن يجيزه لنفسه غير كاهن يرى فقر البشر عقاباً على الخطيئة الأولى..»

غير أنَّ هذه الأفكار المالتوسية لم توقف ظهور مبادئ التحرر حيال ظاهرتين رئيستين هما: بؤس الطبقة العاملة: البروليتاريا، وأزمات فيض الإنتاج بسبب عدم تصريف البضائع..

إذ كيف يمكن أن تباع في الأسواق إذا كانت طبقة العمال، وهي الأكثر عدداً، تعيش في حالة ضنك وفقر شديدين لا يتقاضى الفرد منهم من الأجر إلا الحد الأدنى.. وكان الأطفال ما بين خمس وأربع عشرة سنة يعملون تحت ضربات السياط لمدة تتراوح ما بين اثنتي عشرة إلى خمس عشرة ساعة يومياً وينامون في مكان العمل من دون حماية صحية أو غذائية.

وتحت وطأة هذه الظروف، ظهرت الاشتراكية التي كانت قد عرفت في الماضي لدى أفلاطون بشكل مثالي، ولدى رجالات الدين المسيحي ثم رجالات الدين الإسلامي.. لكن كلمة «اشتراكية» لم تظهر بشكل محدّد إلا عام ١٨٤٠م في كتابات عدد كبير من الكتّاب الأوروبيين.

لقد ظهرت دعوات متعددة الأنواع من الاشتراكية، وأوّل دعاتها هو جان شارل سيسموندي الذي دعا إلى إصلاح أحوال الطبقة العاملة وسميت دعوته بالاشتراكية البورجوازية.. ثم جاء بيار برودون ودعا إلى اشتراكية فوضوية لأنه طالب بعدالة ومساواة مطلقتين، كما ناهض رجال الكنيسة، لكنه بقي خيالياً في دعوته، ولم يحدد أساليب الوصول إلى الاشتراكية والطرق الواجب اتباعها..

ثم برزت الدعوة إلى اشتراكية طوباوية، ومن أبرز ممثليها سان سيمون وشارل فورييه في فرنسا، وروبرت أوين في انكلترا.. وكانوا يرون أنّ الاشتراكية هي التي تحدّ من النظام البورجوازي وتمنع اضطهاد البروليتاريا وتجويعهم، ويعتقدون أنها تتطابق مع النظام الطبيعي للحياة، لأنها تلبي الميول الفطرية للإنسان وشوقه إلى العدالة والمساواة.. لكنها كانت طوباوية بسبب ولادتها قبل نضوج الثورة الصناعية وبروز النضال الطبقي لدى البروليتاريا..

إنّ أفكار هؤلاء الاشتراكيين، إضافة إلى نظرية الفيلسوف هيغل (١٧٧٠-١٨٣١م) في الديالكتيك، كانت أهم مصادر الاشتراكية الماركسية العلمية التي عُرفت وانتشرت بعد طبع وتوزيع كتاب «البيان الشيوعي» لمؤلّفيه الفيلسوفين الثوريين كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣م) وفريدريك إنجلز (١٨٢٠-١٨٩٥م).. جاء هذا البيان عام ١٨٤٨م، بعد أن نضجت الطبقة العاملة وسميت البروليتاريا، وهي كلمة لاتينية قديمة تعني الذي يبيع جهوده، وأدركت بوعي صحيح دورها الطبقي والتاريخي فسعت إلى إلغاء السيطرة البورجوازية على المجتمعات الأوروبية.

ومع إيمان الماركسية الشديد بأنّ الثورة الاشتراكية لن تحدث إلا في بلد صناعي متطور، فقد اندلعت في بلد زراعي متأخر

نضجت فيه الثورة وهي روسيا القيصرية وقاد هذه الثورة حزب ثوري بزعامة المحامي فلاديمير لينين (١٨٧٠-١٩٢٤م)، واستطاع روسنة الماركسية، أي تفصيل الاشتراكية العلمية على مقاييس تتلاءم مع روسيا وظروفها الموضوعية والاقتصادية.. وبذلك نجحت أول ثورة اشتراكية في العالم يوم ١٧تشرين الأول عام١٩١٧م وأمسك لينين ورفاقه الاشتراكيون بزمام السلطة، ووزعت الأراضي على الفلاحين وأممت المصانع والمؤسسات مع أنها قليلة العدد، وحددت ساعات العمل وأنشئ ضمان رسمي ضد البطالة والأمراض وفرضت تعويضات عائلية.. وبذلك تم بناء أول دولة للعمال والفلاحين في العالم لا تخضع لأوامر وسيطرة البورجوازيين..

وطرح لينين الشعار الاشتراكي الأممي (يا عمال العالم اتحدوا)، لأن مصالحهم واحدة وهي بناء دولة العدالة الاجتماعية وتأمين حقوق الفقراء (البروليتاريا) والفلاحين..

وهكذا انتشرت الاشتراكية كشعار عالمي بعد نجاحها في تأسيس دولة للعمال والفلاحين في روسيا التي سميت بعد الثورة بالاتحاد السوفييتي.. وأطلق على الماركسية اسم الاشتراكية العلمية، كما أطلقت تسمية «الأممية» على أي تعاون وتآخ وتلاحم وتلاق للطبقة العاملة في العالم.. كل ذلك من أجل إقامة دولة العدالة والمساواة وتأمين لقمة العيش مع ضمان المرض والشيخوخة..

هذه الكلمة «الأممية» تناقض تماماً فكرة «العولمة» التي تدعو إلى تعاون الشركات العالمية متعدية القارات والحدود كي تسيطر على شعوب العالم فتنهب خيراتها وتقتنص بترولها وتسخّر أبناءها وتقزّم أفكارها وتشوّه أهدافها وتزيّف حضارتها وتستلب شخصيتها، خاصة من قبل الدول الكبرى مالكة الشركات وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية..

والاشتراكية العلمية تدعو في نهاية النضال الطبقي وإتمام البناء الاشتراكي، إلى زوال الدولة بعد أن تصل الطبقة العاملة بمختلف أفرادها من عمال وفلاحين ومثقفين ثوريين، إلى أعلى درجات النظام والرقي في المجالات الإدارية والتنظيمية والصناعية والحضارية ويتم الوصول إلى نظام لا دولة أمنية فيه، بل يتم عمل كل إنسان وفق المبدأ القائل: «لكل حسب طاقته ولكل حسب حاجته»، بعد تطبيق مبدأ «لكل حسب طاقته ولكل حسب كفاءته».

وكذلك العولمة تنادي بزوال سيادة الدولة الوطنية ليحل محلها في القيادة والإدارة، مديرو الشركات متعدية الحدود، ويتم ذلك التحكم والتوجيه عن طريق الحواسب والإنترنت والتلفون مع أدوات الاتصال ومن

أماكن بعيدة إلى أماكن أبعد في مختلف القارات..

وإن كانت الطبقة البورجوازية الحاكمة، قد استعانت في القرن التاسع عشر بمفكر رجعي هو «مالتوس» الذي أبعد مسؤولية الفقر والتعاسة عن الحكام وحصرها بكثرة الأولاد ويدعو إلى تحديد النسل أو العزوبية وعدم الزواج.. فإنّ الرجعية الحالية قد تسلحت في نهاية النصف الثاني من القرن العشرين بأفكار ونظريات المؤلف الصهيوني الأمريكي «صموئيل هنتنغتون» الذي ينادي ويقول بأنّ الاقتصاد العالمي يجب أن يتمدد ويتحد في نظام واحد تهيمن عليه الدولة الكبرى الولايات المتحدة فتقوده وتشرف عليه باقتصادياتها المتفوقة وبجيوشها المنتشرة في أرجاء العالم؛

ثم ظهرت نظرية «نهاية التاريخ» التي تفضّل بها «فرنسيس فوكوياما» الأمريكي ذو الأصل الياباني والذي يدّعي أنّ الرأسمالية هي المحطة الأخيرة من مراحل التطور البشري، وعلى كل إنسان أن يؤمن بأن النظام المسيطر القائم على استغلال الأغنياء للفقراء خالد دائم.. وما على الناس إلا أن يذعنوا..

لكن ثبت علمياً أن التاريخ لن يتوقف، فهو في حركة دائمة ونشاط متواصل منذ القديم، وتشير المصادر الأكاديمية بشكل ثابت وصحيح أن البشرية مرّت بعدة مراحل من المشاعية الأولى، إلى الرق، ثم الإقطاعية ثم الرأسمالية، وبعد ذلك أطلت الاشتراكية منذ منتصف القرن التاسع عشر بمفكريها وفلاسفتها ونتائجها في العالم كله بعد انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا منذ بداية القرن العشرين ثم تلتها دولة الصين العظمى ودول اشتراكية في أوروبة وآسيا وكوبا في نهاية الغرب الأمريكي، منذ منتصف القرن العشرين..

إنّ فوكوياما يمثل الفكر البورجوازي الرجعي المتعصب ضد أي حركة تقدمية.. وقد بنى نظريته «نهاية التاريخ» وثباته على النظام الرأسمالي على انهيار الاتحاد السوفييتي مع دول المنظومة الاشتراكية.. ولكن هذا لا يعني أنّ التاريخ قد انتهى فعلاً، وأنّ الاشتراكية قد ذهبت إلى الأبد وأن الرأسمالية خالدة، فمنطق التاريخ يشير إلى أن حركة تطور قوى الإنتاج من عمال وازدياد الآلات لابدّ من أن يؤدي إلى تغيير أفضل لمصلحة الشعب.

والبورجوازية، أي الرأسمالية، مهما استعملت من وسائل لتجميل نظامها ابتداءً بنظرية مالتوس وانتهاءً بفوكوياما، لن تستطيع إيقاف دوران دولاب التاريخ البشري.. وإن كان المال اليهودي الصهيوني الأمريكي وانتفاء الديمقراطية في انتخابات

وتعيين قادة الحزب الحاكم في روسيا قد أديّا إلى وصول طبقة بورجوازية إلى سدة الرئاسة في الكرملين، فهذا لا يعني أنّ الاشتراكية قد ذهبت مع الريح.. فلابدَّ من أن تعود لكل الشعوب لأنها تمثل شوقها للعدالة والمساواة.. وذلك حتمي في التاريخ..

لقد رأينا كيف عاشت حضارات وماتت حضارات، ومات معها غزاة بأطماعهم وجيوشهم، ولم يبق منهم إلا الذكريات السيئة. وإن كانت الرجعية العربية المتآمرة مع الصهيونية ومصالح الغرب الأمريكي والأوروبي، ما تزال تعمل على عرقلة بناء حضارتنا العربية الحاضرة، فلن تستطيع قوى العالم كله أن تصدّ نشاطاتنا الحضارية وسعينا لبناء العدالة في وطننا العربي عامة، وفي بلادنا سورية، بلد الأسياد كما يعني اسمها الآرامي بشكل خاص.

لقد تعرضت بلادنا إلى غزاة متعددين، بدءاً بالفرس ثم اليونان، ثم الحملات الصليبية، والقوى الأوروبية، لكن كل هذه الغزوات لم تستطع أن تغيّر حضارتنا الأصلية التي ورثناها من جدودنا السومريين، ثم الأكاديين، ثم من أجدادنا العرب القدامى الذين تزيّنوا بمكارم أخلاق الدعوتين السماويتين المسيحية ثم الإسلامية..

هذه المكارم ساعدتنا في القديم على صدّ الغزاة والحفاظ على التراث الحضاري الأصيل، وهي التي ستساعدنا على طرد الصهاينة وحلفائهم الرجعيين والأجانب.

المراجع

١- أعداد مجلة المستقبل العربي لعام ١٩٩٨م- الدكتور محمد الأطرش.
٢- مجلة العربي العدد ٤٦٥آب ١٩٩٧م- د.عبد الخالق عبد الحق.
٣- تاريخ الدولة البيزنطية- د.نعيم فرح.
٤- دراسة في تاريخ الإغريق- د.مفيد العابد.
٥- تاريخ سورية القديم- د.أحمد داوود.
٦- تاريخ الفكر السياسي- د.جان توشار.
٧- أحجار على رقعة الشطرنج- وليم غاكار.
٨- الحروب الصليبية- محمد سيد كيلاني.
٩- تاريخ الأفكار الاقتصادية- د.إسماعيل نصر، د.عارف دليلة.
١٠- المادية التاريخية- كيللة وكوفالسون.
١١- أضواء على العولمة والحضارة-د.أحمد عمران الزاوي.
١٢- مجلة العربي رقم (٥١٥) تشرين الثاني٢٠٠١م- أمينة رشيد.
١٣- البيان الشيوعي /بالفرنسية/- ماركس إنجلز.
١٤- مبادئ الاقتصاد السياسي /بالفرنسية/- ب. نيكيتين.
١٥- العدالة الاجتماعية في الإسلام- العلامة محمد قطب.

الإيقاع الخفي

ميسر شتات ✪



قيل عن الإيقاع ما قيل، في كتب ودراسات كثيرة، تزخر بها مكتباتنا العربية وغير العربية، منذ القدم إلى الآن، في محاولات جادة لكشف السرّ الدفين الكامن خلف الضروب والأوزان الإيقاعية، بيد أنّ هذه الدراسات لم تتعدّ الوصف الظاهري الشكلي والسمعي للإيقاع، فالأوزان الإيقاعية من ناحية أولى هي مسافات زمنية متوالية بدقّة، تفصل بينها وتحددها ضربات قوية وضربات ضعيفة وأزمنة صمت، يمكن لنا قياسها بأدق المقاييس الزمنية، ولكل وزن منها - أو ما

✪ باحثة من سورية.

العمل الفني: الفنانة منى المتداد.

يُصطلح عليه إيقاع- عدد محدد من الأزمنة والضربات المحددة أيضاً، وبالتالي اسم خاص بهذا الوزن معروف به، وهذا ما عمل عليه الباحثون والدارسون طويلاً.

والأوزان الإيقاعية من ناحية ثانية هي حالات انفعالية نفسية متعددة، كل وزن منها يناسب حالة شعورية انفعالية لدى المتلقي عاشها في ظرف ما، وقد يكون هذا التناسب بين الإيقاع والحالة النفسية التي يولّدها عند المتلقّي، هو نتيجة طبيعية تبادلية المنشأ، تكوّنت من تراكم خبرات سابقة كثيرة مرّ بها المتلقّي، أدّت في النهاية لاسترجاعه هذه الحالة المعينة عند سماعه لإيقاع معين،ضمن سياق موسيقي متكامل الأطراف، يتمتّع بشروط موسيقية كاملة، كمقام موسيقي محدد وبناء لحني متوازن، يناسب بالضرورة الشعر والكلام المُغنى.

وقد يكون هذا التناسب تعزيزياً عند المتلقّي، حسب نظرية «المثير الشَرطي» التي جاء بها العالم الروسي بافيلوف[1]، ومنها نستنتج أن الاستجابة الحسية الإرادية لإيقاع معين تصبح مع الاعتياد حالة حسية لا إرادية، فمن تجارب سابقة مرّ بها هذا المتلقّي عند سماعه لوزن إيقاعي معين ضمن سياق لحني كامل كما أشرنا سابقاً، وسيطرة حالة انفعالية شعورية خاصة عليه، أشبعت عنده حاجة نفسية ملحّة، وبالأساس سبب ولادة هذه الحاجة هو أثر هذا الإيقاع على نفس المتلقي.

وبالتالي كلما استمع وأنصت لهذا الإيقاع، فإنّ الحاجة نفسها ستولد في نفسه من جديد وتُشبَع بالحالة الانفعالية الملائمة، وستقوم الحالة الانفعالية نفسها بإشباع تلك الحاجة، بصرف النّظر عن طبيعة تلك الحاجة والحالة، فقد تكون مفرحة أو مؤلمة، أو تدعو للحركة أو السكون أو لحالات أخرى كثيرة.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أنّ المقام الموسيقي وطبيعة اللحن المُترافق معهما والإيقاع المعين الذي تكلّمنا عنه في الحالة السّابقة، لهم أثر كبير ومهم في تحديد طبيعة الحاجة وكيفية إشباعها بمعنى آخر تحديد الشعور المُثار ودرجة الإشباع، ولأسباب سأمرّ على ذكرها لاحقاً عند الحديث عن المقام الموسيقي وأثره على نفس المتلقي، باعتبار أن المقامات الموسيقية هي أيضاً حالات نفسية وانفعالية، وهذه هي الناحية الثانية التي لم يعمل عليها الباحثون والدارسون كثيراً، لأسباب لا يمكنني حصرها بدقة، وهذا ما سأحاول الحديث عنه بإيجاز.

أولاً- الإيقاع الظاهر:

تباينت المفردات المذكورة في وصف الإيقاع رغم أنها تصبّ في معنى واحد، هو أن الإيقاع عبارة عن مقياس للزمن وضبط

للسرعة، وسأعرض بعضاً مما قيل عن الإيقاع قديماً وحديثاً، فقد قال الكندي[٣] «إن الإيقاع هو النسب الزمانية»، وقال الفارابي[٣]: «الإيقاع عبارة عن سلسلة أزمنة يوضحها النقر على آلة مجوّفة كالطبل والمزهر، والنقرات هي القرعات التي تخيل لك أنها غير منقسمة، فالنقرة لا زمن لها أي إنها كالنقطة في المكان عند علماء الهندسة، وعلى ذلك فالزمن في الموسيقى هو المدة الزمنية الواقعة بين نقرتين».

أمّا ابن سينا[٤] فقد قال: «الإيقاع هو تقدير لزمان النقرات، أي البحث عند مقادير الأزمنة المتخللة بين النغمات، ويسمّى علم الإيقاع». وقال الحسن الكاتب في القرن العاشر الميلادي[٥]: «الإيقاع هو قسمة اللحن بنقرات، وهو النقلة على أصوات مترادفة في أزمنة تتوالى متساوية، وكل واحد منها يسمى دوراً، فالإيقاعات هي أوزان النغم».

وأضاف عبد الرحمن الحمصي[٦]: «إن الأوزان ويقال لها أيضاً الإيقاعات أو الأصول أو الضروب، والوزن (هو الميزان)، أي أداة تنظيم وقياس للأزمنة»، ونجد آراء أخرى في كتب ومجلات ودراسات متعددة، تنظر إلى الإيقاع على أنه أكبر وأوسع مما قيل عنه آنفاً، فهو شيء مهم وربما هو مرتبط بإيقاع الكون والجسد الإنساني، والحياة بشكل عام.

أمّا الدكتورة نبيلة ميخائيل يوسف[٧] فقد قالت عن الإيقاع: «عُرف بأنه المنظم، مُعطي الطاقة والرابط المشترك لجماعيّة العمل بطريقة لا كلاميّة، وإذا قُدّم الإيقاع بطريقة أصوات وطرق منفصلة، فإن ذلك يثير الحركة العضلية خاصة في حالة وجود شيء من التباين في الشكل الإيقاعي، وقد يساعد الإيقاع على ربط الشعوب عن طريق وحدة الفكر والإرادة والهدف، إنه لا يقوم بدور تسهيل وتنسيق العمل المشترك فقط، إنما يتحول إلى ما يشبه العقد أو الرباط المشترك، بل والعنصر الخفي القادر على تحقيق الأهداف الفعالة، وفي تقسيم (لندن)[٨] لأثر الإيقاع، يميز بين نوعين منه:

أ- إيقاعات ذات ضربات قوية حازمة، تُؤدي إلى التأثير الحيوي الوقور.

ب- إيقاعات منسابة بنعومة تُؤدي إلى السعادة والرقة، كما تثير حالة من العاطفة الحالمة.

وفي هذا المجال يشير (فايغر)(٩) إلى أن الموسيقى قد تكون أحياناً للهروب من الواقع، لأن إيقاعها الأساسي يجعل الوعي منزوياً بعض الوقت خلف ارتجافات وأوهام وانطلاقات اللاوعي، وحتى لو كانت الإيقاعات الرتيبة مثل إيقاعات القطار أثناء السير، فهي تُؤدي إلى النعاس والنوم.

وهناك أبحاث وتجارب أثبتت أن الألحان ذات الإيقاعات الهادئة والتي يبدو إيقاعها غير واضح، وخصوصاً عندما تُعزف على الكمان، فإنها تعمل على إيجاد إحساس مريح لمريض القلب، ومفيد للدورة الدموية، بينما الإيقاع الحادّ القوي غير الرتيب، يُؤدي إلى ردود فعل حيوية تتصف بطابع خاص، يتمثّل في الإحساس بالوقار والتعالي والروحانية.

وقد قام بعض الباحثين بعدد من الدراسات الهامة حول استعمال إيقاعات مختلفة، أثبتت أن حركة المعدة وسرعة التنفس وعمقه، والاستجابة الكهربائية للجلد، واتساع حدقة العين وحركة العضلات، كلها ظواهر تحدث لها تغييرات ولو مؤقتة بسبب اختلاف الإيقاعات.

كما أثبتت تجارب (واشكو)[10] أن الموسيقى ذات الإيقاعات الواضحة، أدّت إلى زيادة في سرعة نبض القلب، وتغيير في ضغط الدم».

ومن حقائق وغرائب عالم الإيقاع أنه: إذا ظلّ الزمن والإيقاع ثابتين، فإن رتابة الموسيقى قد تسهم في تهدئة المستمع والإقلال من قلقه، في حين أن تزايد تغيير الإيقاع والزمن يؤديان إلى عكس ذلك.

نخلص من هذا كلّه إلى أن للإيقاع في الموسيقى دوراً كبيراً، يتجاوز بكثير ما قيل عنه، فهو عنصر أساسي من عناصرها،له ما للأصوات الموسيقية الأخرى من أثر ومفعول على النفس الإنسانية، وربما وفي بعض الحالات يكون أبلغ وأبعد تأثيراً في محاكاة العواطف والمشاعر القابعة في نفس المتلقي، من صوت مغنٍّ أو آهات ناي أو كمان، فعندما يأخذ دوره الصحيح، وتكون ضروبه المتوزّعة بين قوية وضعيفة وصمت (دم وتك واس)، مناسبة للحالة النفسية الانفعالية السائدة في اللحن بشقيه المقام والجمل الموسيقية، فإنه يجعل المتلقي في حالة تفاعل وانسجام عاليتين، ويسمو به إلى عالم عال وبعيد من الطرب والخيال الرائع الجميل.

يبدأ هذا السمو عندما يهبط الضرب القوي إلى قاع النفس الإنسانية، فيأمر المشاعر الغافية والمختبئة في منطقة اللاشعور بالتدفق والانطلاق، فتستجيب مسرعة، وتأتي الضروب الضعيفة (تك واس) بعد القوية لتنظم هذا التدفّق وتتصاعد به إلى الأعلى، وباستمرار مع إعادة الإيقاع وتصاعد اللحن المرافق، وهكذا حتى تصل تلك المشاعر والأحاسيس إلى أبعد درجة في السمو والارتقاء، وهذا هو دور الإيقاع الحقيقي في الموسيقى، لا كما قيل عنه بأنه «مقياس للزمن وضبط للسرعة».

وبناءً على ما ذُكر كان لابدَّ من دراسة

بعض الألحان العربية الخالدة، التي خرجت من القلب واستقـرّت في القلوب والنفوس، وغـدت جـزءاً مـن الذاكـرة الجماعيـة عندنـا نحن العرب، أبدعهـا كبار الملحنين والموسيقيين، وسأستعين بهـا كأمثلة توضّح ما مرّ ذكره سابقاً.

أغنيـة للمطربة (نجاة الصغيرة) بعنوان (وسـط الطريق) لحنهـا الموسيقـار (بليغ حمدي)[11]، تروي لحظـات فراق عاشقين خلال دقائق، تمسي فيمـا بعد سنوات من العـذاب والألم المشبع بوحشة الفراق، اختار الملحـن مقام الراست من درجة (دو) كمقام أساسي للحن ككل، ومقام الراست خير معبّر عـن الحـزن والألم، ولكن بعـزة وإباء، فهو يُظهر لنـا الحسرة والندم بأقصى حالاتهما ولكن من دون بكاء أو دموع، ولك أن تتصوّر كل هذا الألم و الندم والحسرة، لكن عيناك لا تجودان بالدمع، فالدمع عصي هنا.

بدأ اللحـن بجمل قليلة من مقام الصّبا من درجـة (لا) من الجـواب، والصّبا كما هـو معروف أنه مقام البكاء الصريح.. ربما لمحاولة استعطـاف الدموع المستعصية.. ثمّ وبسرعة يتمّ تحويل المقام إلى مقام النكريز، ويأخـذ عدة جمـل قصـيرة وسريعة بعض الشيء، لتقف علـى درجة (دو) وهي درجة ركوز المقام.

أمّا النكريز فهو مقـام الشجن والحزن الدفين[12]، إلى الآن لم يُدخل الملحن الإيقاع، إنّما ما زال اللحن من الفالت، وهذا مصطلح موسيقي يدل علـى العزف والغناء من دون إيقـاع، ويُعـبّر عنـه بمصطلـح طلياني في النوتة الموسيقية بـ «Adlibi»، وهذه الحالة سأشرحها في هذا البحث لاحقاً، لاسيما أنّ حديثنا كله يدور حولها.

وبالعودة إلى اللحن حيث وقف على درجة دو قرار، وهنا دخل إيقـاع الفالس الثلاثي الـوزن المتسـاوي الأزمنـة، المناسب لحالة الترقب والتشويق المراد إيصال المستمع إليها فيصفـي بأحاسيس مشدودة، فضروب هذا الـوزن هي (دم- تك تـك- تك تك)، بحيث دم تساوي زمناً واحداً، وتك تك تساوي زمناً واحداً.

بـدأ ضرب الإيقاع بقـوة وببطء ترافقه جملة موسيقية من جـواب الراست، ويُعاد كثـيراً فهو إيقاع قصير نسبياً، ولعلّ هذا ما يفسّر اختيار بليغ حمدي له، فعندما تهبط (الـدم) إلى قاع نفس المتلقي، وتوقظ بعنف ما اختبأ في لاشعوره من مشاعر وأحاسيس مُؤلمـة، وانفعـالات وأحـزان مكبوتة كانت غافية، وتأمرهـا بالتحرك، تنهض كلّ هذه معاً وتبـدأ بالتدفق والصعـود إلى الأعلى لتصل السطح وتطفـو عليه، بعد أن قامت الضروب الضعيفـة التي جاءت بعد الـ(دم) القوية بإعطائهـا الوجهـة المطلوبة للسير

بها، والسرعة المناسبة لهذا السير، وهكذا يُعاد الإيقاع كلما انتهى مُرافقاً اللحن المتصاعد والمتأجج بالحزن واللوعة، من مقام الراست حيث أدخل المبدع بليغ حمدي آلة الساكسيفون ذات الصوت الشجي، وأخذت صولو[١٣] رائع مع الفرقة الموسيقية، لنسمع نحن المتلقين لازمة موسيقية مذهلة وضعتنا في جوّ مهيب، يضجّ بالتأوّه والحيرة بل والدهشة والترقب، وعلى ما يبدو فإنَّ حالة الذهول والحيرة هذه، التي وضعنا بها السيد بليغ لم ترضه، فقام بعد انتهاء اللازمة الموسيقية بأمر مفاجىء، ألقانا به في مركز العاصفة، إذ أدخل إيقاع (البلدي) البطيء لأربع مرات متتالية، وما أدراك ماذا يعني هذا الإيقاع هنا؟..

ففي إيقاع الفالس كانت (دم) واحدة تكفي لهزّ لواعجنا، فكيف بثلاث منها؟..

فـ(البلدي) إيقاع رباعي الوزن يحتوي في تضاعيفه على ثلاث ضربات قوية (دم)، يبدأ بضربتي (دم) ثمّ ضربتي: (تك)، فضربة (دم) ثالثة ثمّ (اس) و(تك) و(اس)، ليعاد من جديد، وقد شرحنا سابقاً فعل هذه الضربات في نفس المستمع، ربما أراد بإدخال هذا الإيقاع إعطاء إحساس بالحيوية للخروج من الرتابة التي عاشها المتلقي مع إيقاع الفالس، وللانتقال إلى حالة أفصح لوعة وشجناً، حيث سيبدأ الغناء على هذا الإيقاع.

انتهت المقدمة الموسيقية بعد أن أبلغتنا المراد منها، وأصبحنا جاهزين لسماع القصة شعراً بعد أن سمعناها لحناً وإيقاعاً، لكن المفاجئ أن الغناء بدأ على إيقاع (البلدي) نفسه إنما بسرعة أقل وأبطأ مما كانت عليه قبل بدء الغناء، وكأن الإيقاع عبارة عن راوي يتعمد البطء بكلماته بغية جذب الانتباه وإثارة حفيظة المستمع، فالخطب جلل والحادث أليم، هذا ما أراد قوله بليغ حمدي في الغناء على الإيقاع البطيء، وبدأت السيدة نجاة تروي لنا القصة كاملة:

وبوسط الطريق ووقفنا
وسلمنا وودعنا ياقلبي
ورجعنا الطريق وحدينا
ودموعنا في عنينا يا قلبي
ودّعنا الحبايب وفارقنا الحبايب
ووصلنا النهاية من قبل النهاية
ياعيني علينا يا قلبي.

يبدأ الغناء كما أشرنا سابقاً من مقام (راست) من درجة (دو) وعلى إيقاع (البلدي) البطيء، بنبرة صوت حزينة تفوح منها رائحة الألم، ولا تتجاوز الجمل اللحنية في البيتين الأولين العقد الأدنى للمقام.

ويأخذ الإيقاع البلدي هنا دوراً مهماً

للغاية، فهو يحتوي في تضاعيفه على ثلاث ضربـات (دم) قوية تهزّ الأعماق، وتحمل منها أكبر دفقة ممكنة من مشاعر الحزن والوجع الغافي في منطقة اللاشعور في النفس، وتصعد بها إلى أعلى لتُعاش من جديد، أما ضربات الـ(تك) والـ(اس) فتنظّم دفقها وجريانها، وتأتي الموسيقى لتلتحم معها ويغدوان تياراً واحداً، فيلتقيان بتيّار الشعر المغنّى القادم من منطقة الشعور، فيتّحدان ويشكّلان معاً نهراً يفيض بغزارة المشاعر.

وبعد إعادة الحالة لأكثر من مرة، لتثبيتها وإشباعها شجناً ولوعة، ترتفع الوتيرة اللحنية أكثر، وتكمل الغناء وعند قولها (ودعنا الحبايب) يذهب اللحن إلى جواب المقام، ويستخدم العقد الأعلى منه، وهذا انتقال طبيعي وواجب هنا، من القرار إلى الجواب تتطلّبه الحالة الانفعالية السّائدة، ليخبرنا بعدة أحداث متتالية بانتظام «ودعنا، وفارقنا، ووصلنا النهاية»، ويمرّ هنا بليغ حمدي مروراً أخّاذاً على مقام (سازكار) وهو مقام من فصيلة الـ (الراست)، وذلك لتعميق الجرح في النفس أكثر، عند انزياح اللحن هبوطاً من درجة (مي) نصف بيمول إلى ري (دييز)، ويعود إلى الـ (راست) لينتهي الغناء على درجة (دو) بـ (يا عيني علينا يا قلبي).

أما الإيقاع فكان لا بد من استبداله من (البلدي) إلى (الوحدة)، وهذا أيضاً إيقاع رباعي الوزن، يبدأ بضرب قوي وتتبعه ثلاثة ضروب ضعيفة، يدلّنا هذا الإيقاع دائماً على التّقدم المنتظم والاستمرار الأزلي والسير إلى الأمام الذي وُجد عليه هذا الكون وهذه الحياة، وهذه أهم صفة يمتاز بها إيقاع الوحدة، وهو مناسب لحالة القصة المروية ذات الأحداث المتواترة.

ينتهي غناء المقطع الأول، ونلاحظ أنّ الملحن قد استخدم حتى الآن أربعة إيقاعات، اقتضاها لزوم الحال وضرورة التعبير، فكان كلّما تغيّرت الحالة الشعورية وبالتالي النفسية، كان يُحدث تغييراً في الإيقاع وأحياناً في المقام، وهنا تكمن عبقرية الموسيقار بليغ حمدي، فالتفاصيل الصغيرة ضرورية جدّاً لإكمال الصورة الرائعة.

يبدأ المقطع الثّاني من الأغنية باللازمة الموسيقية الأولى نفسها، من بداية إيقاع الفالس، وباللحن نفسه، وبالتوزيع الموسيقي نفسه، إنما يوجد فرق صغير هنا وغريب جدّاً، حتى يكاد أن يكون فريداً في الألحان العربية، فقد أدخل بليغ حمدي إيقاع (المقسوم) مرة واحدة بعد إعادة الفالس لمرتين متتاليتين، وتكرّرت هذه الحالة أربع مرات خلال اللازمة، علماً أنها لم تكن

موجودة عند أداء اللازمة نفسها في المقطع الأول، وهذا أمر غريب على الموسيقى العربية، وربما عدّه النقاد عيباً وخللاً في الوزن الإيقاعي للحن لو كان لملحن آخر، لكنه عند المبدع بليغ حمدي هو أمر صحيح تماماً بل وواجب اقتضاه الحال، وحكم بصحته وصوابه الإحساس.

ولبليغ حمدي إنجازات وإبداعات مشهودة في كثير من ألحانه، فقد جاء بإيقاعات جديدة لم تكن معروفة قبله واستعملها في ألحان كثيرة رائعة، وفي كثير من الأحيان قام بتبديل الضغوط القوية والضعيفة في إيقاعات معروفة، لتغدو إيقاعات جديدة لم تكن معروفة أيضاً، أبدعتها عبقرية بليغ حمدي تحت إلحاح الحاجة للتعبير أكثر باستخدام الإيقاع[١٤].

وعطفاً عليه فإنّ ما جاء في اللازمة السابقة، من إدخال إيقاع المقسوم ضمن لحن وزنه إيقاع الفالس، هو إبداع حتماً وهو في الوقت نفسه ضرورة واجبة هنا، فاللازمة أساساً هي للمقطع الأول، وعندما استعارها ووضعها للمقطع الثاني، كان لزاماً عليه أن يشعرنا باستمرار الحالة النفسية السابقة، مع إدخال حدث جديد عليها تتمّة للقصة المؤلمة، فأدخل (المقسوم)، وهذا الإيقاع رباعي نشيط الحركة والإحساس، يعطي شعورا بمُضيّ الأيام، واستكمالاً للقصة ولما حدث بعد الفراق، وبضرورة التقدم والسير إلى الأمام بسرعة مضاعفة عمّا هي عليه في إيقاع الوحدة.مع العودة للازمة نجد أنّ الغناء بدأ على إيقاع الفالس، أي إنّ الملحّن قد اختصر منها إيقاع البلدي، الذي كان في المقطع الأول وكان الغناء عليه.

أمّا هنا في المقطع الثاني فالغناء سيكون على إيقاع الفالس البطيء، وبدأ الغناء فعلاً من قرار مقام الراست، حيث تقول السيدة نجاة:

غالي و الجرح م الغالي
بجراح العمر غالي
لا الصبر ينفع فيه
ولا الزمن يداويه
ولا الليالي
غالي و الجرح م الغالي
بجراح العمر غالي
من غير ما نسأل ليه
ولا عملنا ايه
ده حكم الليالي
ورجعنا الطريق وحدينا
من غير كلمة وداع
كل واحد فينا حس
انو أمله الحلو ضاع
وودعنا الحبايب..

بكل وقار الحزن والألم، وبكبرياء جريح بدأ الغناء، فالحديث عن جراح العمر التي

تصيب القلب كلما فقد الإنسان حبيباً أو عزيزاً، وكيف أن الصبر صعب وبعيد المنال، ولا يفيد السؤال هنا، فالقدر صاحب الأمر والمعرفة، فلماذا وكيف تمّ ذلك لا يُجدي مع الليالي نفعاً، ولا يأخذ من الزمن دواء، وفي هذه الحالة القدرية المهيبة لابد من التأمل والتفكير بهدوء وسكينة.

لذا كان الغناء من قرار الراست، وعلى إيقاع الفالس البطيء والقصير نسبياً، لضرورة تواتر ضرباته الثلاث المتساوية الزمن. وبعد إشباع الحالة من خلال الإعادة لأكثر من مرة، دخلنا في حالة تالية وجديدة، فارتفعت وتيرة اللحن قليلاً ودخل إيقاع المقسوم، فبعد أن انتهينا من حكم الليالي وعرفناه، قررنا الرجوع كل بمفرده وبطريق خاص به، وهذا أمر يتطلب الإسراع فيه هرباً من ألمه وجبروته، حتى تحية وداع واحدة لم نقلها، فشعورنا بضياع أحلامنا الوردية لم يترك لنا شيئاً نلفظه، ولعلّ هذا السبب هو الذي دفع الملحن لإدخال المقسوم هنا، وللمرور على مقام الساز كار المذكور سابقاً، إمعاناً وإيغالاً في الجرح والالتياع أكثر.

أمّا إيقاع المقسوم وقد تكلمنا عنه آنفاً، فهو يتكوّن من ثمانية أزمنة متساوية، تعادل كل منها نصف زمن، أي ذات السن موسيقياً، وضروبه هي«دم- اس- تك- تك/دم- اس- تك- اس».

وإذا عدنا للحن، فبعد الانتهاء من غناء القسم الثاني من هذا المقطع، على إيقاع المقسوم، تعود اللازمة الغنائية من مقام الراست وعلى إيقاع الوحدة، عند قولها «ودعنا الحبايب» وهذا أمر طبيعي للعودة إلى الحالة نفسها في البداية.

بقيَ من هذه الأغنية مقطع واحد، لن أتناوله بالدراسة حالياً خشية الإطالة، وإذا ألقينا نظرة تأملية على ما مرّ من الأغنية، وكيف استعمل الملحن الإيقاع فيها نجد التالي: إنّ الإيقاع لم يكن هنا لقياس السرعة ولضبط الزمن- وإن كان هذا أحد وظائفه- إنّما أخذ دوراً آخر، إلى حدّ نستطيع القول معه، أنّه جارى دور الشّعر والموسيقى تعبيراً وقولاً إن لم يكن أكثر، حتى إنّه وفي بعض الأمكنة من اللحن كان هو الأساس والمنطلق، وعليه تمّ وضع ما يناسبه من لحن، وهذا جليّ لمن أصغى بدقّة للازمة الموسيقية وللغناء في المقطع الثاني.

وهنا بالذات والذي لم أشر إليه سابقاً، أنه وفي بداية الغناء في المقطع الثاني والذي كان على إيقاع الفالس، قد أدخل الملحن ولأكثر من مرة وزناً رباعياً لمرة واحدة بين خطا الفالس الثابتة، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على أنّ الإيقاع قد أُستعمل وفقاً للحالة التعبيرية الكلامية واللحنية، ووفق ما تطلّبه ضغط الكلام، وبالتالي الحالة

النفسيـة الانفعالية المُعاشـة عند المصدر والمتلقي معاً.

بمعنى آخر نستطيـع القول: إنّ الإيقاع بضرباته القويـة والضعيفة وبأزمنة صمته، وبطول المدة الزمنية لـكل إيقاع على حدة، هو حالـة نفسية انفعاليـة تناسب هي، أو يناسبها حالة نفسيـة انفعالية في لحن ما، سواء كان هذا اللحن موسيقى فقط، أو غناء أو كلا الحالتين معاً.

وعنـد توافق الكل مع الـكل، أي الشعر المُغنّـى واللحـن والإيقـاع وصـوت المؤدي وأداؤه، وإحساس وذوق المتلقـي وثقافته، عندئـذ نستطيـع القـول: إنّ الموسيقى قد أدّت وظيفتهـا وأوصلت رسالتها المنوطة بها كاملة وبكل أمانـة وإخلاص، ونقول أيضاً: هذه هي الموسيقى الحقّة، لما نلمسه من أثر نفسي وقائي وعلاجي عند المتلقي.

ثانياً- الإيقاع الخفيّ:

كثـيراً ما نجد في الألحـان العربية، في مقدّمتها أو في أمكنة أخرى منها، وحسب ما يرى واضع اللحن المـكان المناسب، كثيراً ما نجد مقاطعَ من هذه الألحان تُعزف وتؤدى مـن دون مرافقـة إيقاع ظاهر لهـا، سواء أكانت الفرقة الموسيقيـة كاملة من يُؤديها، أو كانـت آلة موسيقية أو أكثر هي من يُؤدي تلك المقاطع.

وإذا عدنـا إلى النوتـة الموسيقية لتلك الألحان، ونظرنا إلى الأسطر التي تدلّنا على هذه المقاطع، نجـد مصطلحاً موسيقياً قد كُتب فوقها وهـو طلياني الأصل (adlibi)، يدلّنـا هذا المصطلح علـى أنّ الموسيقى أو الغناء سيكونان هنا من دون مرافقة الإيقاع الظّاهر الذي تكلمنـا عنه سابقاً، ونترجمه نحـن الموسيقيـين العرب بكلمـة مختصرة وغريبة بعض الشيء وهي (فالت).

وقد جاء في قاموس محيط المحيط لمؤلّفه (بطرس البستاني) ما يلي «فلت فلان فلتاً، أطلقه وخلّصه ففلتَ هـو أي تخلّص، وهو فالـت، ويقولون نغمة فالتـة أي غير جارية على أحد الألحان الموسيقية».

وإذا ربطنـا بين الحالتين نجـد أنّ من ترجم المصطلح الطلياني إلى العربية بكلمة فالـت، كان يقصد الحريـة الكاملة للجمل الموسيقية المـؤدّاة وإفلاتها من قيود الإيقاع الزمنية.

بمعنى آخر إنه أداء الجمل الموسيقية من دون التقيد بزمن محدد، وهنا نكون قد وقعنا في مشكلة محيّرة لغوياً وموسيقياً، فالمصطلح اللغوي يُفيدنا بالتحـرر من أي قيد، وعند قيامنا بالأداء والعزف نجد أنفسنا مقيّدين تماماً بقيـود قويـة صارمة، وهنـا يظهر التناقض جلياً بين معنى المصطلح وبين ما نقوم به فعلياً، ولهـذا السبب رأيت ضرورة إعادة النظر في الأمر كله، من حيث المصطلح

اللغوي، ومن حيث الحالة الموسيقية التي يُشير إليها، وسأبدأ بأمثلة من ألحان مرّت في سياقها حالات الفالت، والكلام هنا ينطبق على الموسيقى فقط، وينطبق على الغناء، وعلى الاثنين معاً.

ولنبدأ بأغنية أم كلثوم الرائعة (حسيبك للزمن)، وهي من كلمات الشاعر عبد الوهاب محمد، و ألحان الموسيقار رياض السنباطي[١٥]. الأغنية تتحدّث عن قصة حبّ عاثرة، تهبّ منها رياح الفجيعة والألم، وتتأجّج فيها نار الوعيد والانتقام الذي سيوقعه الزمن على المحب الذي تخلّى عن حبيبه وغدر به.

اختار السنباطي مقام الهزام كخط أساسي للحن، وما أدراك ما الهزام ومساحته التعبيرية الهائلة عن هكذا حالة نفسية مؤلمة؟

بدأت الفرقة الموسيقية كلها العزف ما عدا آلات الإيقاع، فهي ما تزال متوقفة لأنّ العزف من الفالت. أعطت الفرقة صوتاً مستمرّاً بهدوء ورهبة، وهو درجة (مي نصف بيمول)، وبدأت آلة القانون بـ (صولو) بدأ من جواب المقام تقريباً، وجال بين درجات (سي) و(دو) و(ري) ثمّ هبط قليلاً واستقرّ على درجة (صول)، لتتدخّل الفرقة وتعود باللحن إلى درجة (مي نصف بيمول)، حيث تُعاد الحالة نفسها من جديد مرة أخرى، ثمّ تأخذ الفرقة جملاً هارمونية تبدأ من درجة (دو) جواب وتنتهي عند درجة (سي نصف بيمول) قرار.

أراد السنباطي من هذه البداية المفاجئة، الولوج المباشر إلى مركز الألم والمعاناة، ليضعنا -نحن المتلقّين- وجهاً لوجه مع الحدث، وذلك من خلال وضعنا في حالة تنبيه مرتفعة وفي حالة انفعالية مرتفعة، نتيجة للتنبيه المتكرر خلال فترات زمنية فاصلة قليلة، هذا التنبيه أتانا من الصوت الحاد ذي الزمن الدوري القصير، وسعة الاهتزاز (تواتر الصوت) المرتفعة، الصادرة عن صولو القانون عندما عزفت من الجواب، وهذا ما بيّنه العالم (دوبلر)[١٦] من خلال دراسته للموجات الصوتية القصيرة وأثرها على الحالة الشعورية عند الإنسان، بيد أنّ هذا التنبيه يولّد غالباً حالات انفعالية آنية تنتهي بانتهاء المسبب، لذلك وبعد وقوف الفرقة على درجة (مي نصف بيمول)، هبط السنباطي باللحن أربع درجات أي إلى درجة (سي نصف بيمول) قرار، وبدأت الفرقة كلها تعزف جملاً موسيقية متصاعدة بتوالٍ هندسي مثير، تصل حتى درجة (دو) جواب، وتعود إلى حيث بدأت بالطريقة نفسها، وتُعاد الحالة من جديد ولعدة مرّات متتالية، مع مرافقة آلات الإيقاع التي أخذت تضرب إيقاع الـ (فوكس) القصير نسبياً، وصاحب الضربتين فقط، (دم) و(تك) السريعتين.

قد يتبادر لذهن القارئ سؤال عن سبب هذا الهبوط باللحن؟ والجواب المنطقي هو أنه بعد التنبيه والحالة الانفعالية الآنية العالية التي عشناها بداية مع صولو القانون، كان لابدّ للسنباطي من هذا الهبوط الذي فرضه عليه إحساسه المرهف وفطرته النقية، إنّما ومن ناحية أخرى فإنّ صوت القرار المنخفض، يكون زمنه الدّوري طويلاً، كذلك طول موجته الصوتية، بينما تكون سعة اهتزازه (تواتر الصوت) منخفضة، وهذا يعني أنّ صوت القرار يُحدث تنبيهاً للدّماغ على فترات زمنية فاصلة طويلة نسبياً، كما أنّ هذا التنبيه لا يكون حاداً، وبالتالي هذا ما يجعل الدماغ في حالة حسّية عالية، وحالة انفعالية منخفضة نسبياً.

وفي علم النفس فإنّ هذه الحالة تناسب المشاعر الدّفينة والعميقة في النفس البشرية، وهذا التنبيه لا يُولّد حالات انفعالية آنية تزول بزوال المنبه، إنّما تدوم لفترات زمنية أطول، تختلف باختلاف الشعور والأشخاص، واختلاف حدة الشعور الحاصل عند كلّ شخص.

وهذا يُفسّر لنا ما جرى في اللحن حتى الآن، فبعد أن تنبّهنا فجأة بحالة انفعالية مرتفعة حزينة سببها آلة القانون، لم ندرك مغزاها جيداً، انتقلنا مباشرة إلى حالة انفعالية منخفضة ساهمت في إيضاح الصورة أكثر، وتصاعدت من خلالها مشاعر الحزن الدفينة في أعماقنا لتتجلى واضحة فوق السطح، ودخلنا أكثر إلى أعماق المأساة.

وهنا أوقف السنباطي الإيقاع وعاد إلى الفالت، وأخذت آلة الناي صولو من جواب الهزام، طار بنا بعيداً وفتح ما بقي فينا من جراح لم تفتح، وعرجت الناي قليلاً على مقام الـ (بيات) من درجة صول دفعاً لنا للسير باستمرار إلى الأمام، فتدخل الفرقة من درجة (دو) قرار بجمل متصاعدة تصل حتى درجة (ري) جواب، وتعود لتقف على درجة (مي) نصف بيمول أولاً، ثمّ تأخذ درجة (سي) نصف بيمول مستقراً لها مباشرة، بعد أن أشبعتنا حزناً وألماً وهنا يبدأ الغناء.

وإذا وقفنا وقفة مُتأمل بما سبق تفصيله، نجد أنّ المقدمة الموسيقية كلها كانت من الفالت، عدا قسم ضئيل منها كان من إيقاع الـ (فوكس)، وعند السؤال عن المغزى من ذلك نقول:

القصة المُراد غناؤها مأساوية، لذلك اختار الملحن مقاماً موسيقياً يُحاكي أعماق النفس والوجدان، ولهذا السبب كان لابدّ أيضاً من العزف من الفالت لإشعارنا بعدة أمور **أولها:**

أنّ الحالة أزلية نعيشها باستمرار

ولأوقات طويلة نسبياً، لذلك وجب علينا أن نسمعها من دون ضوابط زمنية ظاهرة.

ثانيها: كي نغوص إلى الأعماق نقفز إلى الماء بسرعة، لكنّ الوصول إلى الأعماق يحتاج وقتاً وجهداً أكبر، لذلك وبسرعة وضعنا السنباطي في حالة انفعالية آنية عالية من خلال صولو القانون وما تلاه من جمل، وغاص بنا بعد ذلك إلى حالة انفعالية منخفضة بل وعميقة ستدوم طويلاً، عندما هبط إلى القرار وأدخل إيقاع الـ (فوكس) الذي فجّر فينا سيولاً من موجات المشاعر الراكدة بضربته القوية (دم)، وحدّد سرعتها ووجهة سيرها بضربته الضعيفة (تك)، وطبعاً ساهمت في ذلك أصوات القرار التي اتجهت إلى أعلى، وإذ ذاك وقف الإيقاع من جديد وعاد الفالت، ليوزّع تلك الدفقات الغزيرة على السطح بما يناسب.

ثالثهما: العودة إلى الفالت تُشعرنا بأنّ الاستقرار بعد الثورة ضروري، لنتفهّم ما حدث وما سيحدث، ومن أجل الاستمرار والسير إلى الأمام بخطا أقوى وأثبت.

وهنا سأقوم باستبدال مصطلح (فالت) بمصطلح آخر جديد وهو (الإيقاع الخفي)، وسأستبدل به كلمة فالت في كلّ ما مرّ آنفاً، ولأسباب سأشرحها حالاً:

أولاً- إنّ العزف والغناء من دون إيقاع ظاهر ومسموع أي من الفالت سابقاً، لا يمكن أبداً من دون ضبط زمني وإلا أصبح كلاماً محكياً وليس غناءً.

ثانياً- إذا قمنا بتقسيم علامات نوتة أي لحن كتب من دون مرافقة إيقاع ظاهر، إلى مقاييس زمنية متساوية كالتي تقسم نوتة اللحن ذي الإيقاع الظاهر، سنجد أنّها موزونة بأحد المقاييس الثنائية، أو الثلاثية أو الرباعية، أو أي عدد يقبل القسمة عليه من دون زيادة.

ثالثاً- إذا كان عدد الأزمنة في النوتة ذات الإيقاع الخفي عدداً فردياً، ولا يقبل القسمة إلا على نفسه أو على العدد واحد، وهذا العدد يُسمّى في الرياضيات عدداً جامداً، يمكن إضافة زمن صمت واحد ومناسب لهذه النوتة ليصبح العدد زوجياً، وهذا بالطبع لا يُؤثّر بتاتاً على اللحن، لأنّ الإضافة ستكون في نهاية النوتة.

رابعاً- إذا كان الإيقاع الخفيّ موزوناً، فلماذا لا ترافقه آلات الإيقاع؟ والجواب هو: قلنا آنفاً إنّ وظيفة الضربة القوية في الإيقاع الظاهري (دم)، هي إعطاء الأمر للمشاعر والعواطف الغافية والمختبئة في قاع النفس، بالاستيقاظ والتدفق في المجرى الذي حدده المقام الموسيقيّ وطبيعة اللحن، وتكون هذه الدفقات قوية وغزيرة، ثمّ يأتي دور الضربات الضعيفة أي (تك واس) فتحدد هذه الضربات سرعة التدفّق وكميّته،

ووجهته بالتعاون مع المقام وطبيعة اللحن الآنف الذكر، أمّا في الإيقاع الخفي فإنّ هذه الضربات القوية والضعيفة موجودة فيه، إنّما هي غير ظاهرة ولا مسموعة، والسبب في ذلك هو أنّ المشاعر والعواطف الغافية والتي أشرنا إليها سابقاً، ما تزال في سبات عميق جداً، لذلك يلزمها تهيئة وتنبيه طويلان وهادئان نسبياً، ريثما تصلان لحالة يمكن معها التدفق والجريان، كما أنه في بعض الحالات لابد من الغناء من الفالت لإحداث ذاك الهدوء الذي يسبق العاصفة في نفس المستمع، وهنا يدخل الإيقاع الظاهر ليتابع ما بدا به الإيقاع الخفيّ، وهذا ما ينطبق تماماً على أي إنسان نائم بعمق ونريد إيقاظه لإنجاز أمر ما، ومن هذا المثال نستطيع تحديد دور الإيقاع الخفيّ في اللحن، فنقول أنّ دوره هو تهيئة الحالة النفسية تهيئة مناسبة وصحيحة لما سيأتي لاحقاً، أي ما سيتابعه الإيقاع الظاهر.

قد يتبادر للذهن السؤال التالي: بما أن الإيقاع هنا غير ظاهر فلماذا يُعطى تلك الأهمية في الدراسة؟ والجواب: إنّ المنطق يقرّ بأن الأهمية لا تعطى لشيء إلا بمقدار تأثيره وفعله، وعليه فإن ما ورد ذكره عن الإيقاع الخفي أو مجازاً الفالت والأدوار المسندة إليه، ما هي إلا دراسة بسيطة توضّح دوره في الوقع الموسيقي على النفس، وتؤكد دوره في ضبط الجمل الموسيقية بقيود خفية تحافظ على توازن التناسق الموسيقي للحؤول دون الخطأ الإيقاعي الذي قد يحدث في حال التحرر الكامل للأزمنة في الجمل الموسيقية.

بناءً على ما سبق، أرى أنّ اللحن الفالت -مجازاً- ليس متحرراً من القيود الوزنية والزمانية كما يُقال عنه، إنّما هو لحن ذو إيقاع موزون غير ظاهر، وعليه أقترح استبدال اسمه من الفالت إلى الإيقاع الخفيّ، والموضوع بمجمله أخيراً مكان نقاش وتداول ويقبل أفكاراً وآراء غير محددة، والباب مفتوح للنقد.

الهوامش

١- بافلوف: عالم روسي، نظرية المثير الشرطي حوالى سنة ١٩٠٠م. أصول علم النفس، الدكتور أحمد عزت راجح، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر.

٢- (رسالة أجزاء خبرية في الموسيقى) أبو يوسف يعقوب الكندي ٧٩٦-٨٧٤ م بنص رسالة ملحق بكتاب تاريخ الموسيقى الشرقية لسليم الحلو، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦١م.

٣- كتاب الموسيقى الكبير لمؤلفه الفيلسوف أبي نصر محمد بن طرخان الفارابي ٨٧٠ -٩٥٠ م تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة.

٤- ابن سينا ٩٨٠- ١٠٣٧م.

٥- كمال أدب الغناء لمؤلفه الحسن بن أحمد الكاتب عن نسخة وحيدة مؤرخة بـ ٦٢٥ هجري.

٦- أصول الإيقاعات الشرقية لعمر عبد الرحمن الحمصي.

٧- العلاج بالموسيقى للدكتورة نبيلة ميخائيل يوسف،أستاذة في معهد التربية الموسيقية في حلوان- مصر.

٨- المصدر السابق نفسه.

٩- المصدر السابق نفسه.

١٠- المصدر السابق نفسه.

١١- بليغ حمدي: موسيقار وملحن مصري معروف،١٩٣٢-١٩٩٣م.

١٢- مقام النكريز: مقام من فصيلة مقام النهاوند، يعبّر بشكل قوي عن حالات الحزن الدفين.

١٣- صولو: جملة موسيقية أو أكثر، في سياق اللحن تؤديها آلة أو آلتين بشكل مستقل عن الفرقة الموسيقية.

١٤- هنـــاك أمثلـة كثيرة على الإيقاعات المبتكرة التي جاء بها بليغ حمدي، على سبيل المثال لا الحصر في لحن خدني معاك وقولو لعين الشمس لـ(شادية) وفي مقدمة حكم علينا الهوى والحب كله لـ (أم كلثوم).

١٥- محمــد رياض السنباطي: موسيقار وملحن مصري معروف، حائـز على عدة جوائز وأوسمة منها عالمية، ١٩٠٦-١٩٨١م.

١٦- كريستيان يوهان دوبلر، مدير معهد الفيزياء بجامعة فيينا عام ١٨٥٠م.

في مهرجان شوقي وحافظ

سليمان العيسى ●

لا أمسِ من عمر الزمان ولا غدٌ

جُمِعَ الزمانُ.. فكان يومَ رِضَاكِ

حنْجَرةُ السماء، محمد عبد الوهاب، يسكب آخِرَ الرَّعَشَات في أوصالِ الطفل الصغير، وهو يختم تحفته الخالدة «جارة الوادي» بهذا البيت..

المطَرُ الغزير يتساقطُ على قرميد بيتنا في «بساتين العاصي».. وصوتُ السماء الأخضر ينهمر في أعصابي، من فونوغراف قريب، أحضره جارنا إلى القرية، وأنا الطفل ابن التاسعة أو العاشرة، لا أعرف في أي المطَرَين أسبح.. والوالد الشيخ أحمد-نَضَّر الله ثراه- يهزُّ رأسه قائلاً:

شوقي يا بُنَيّ..

شوقي هبةُ السماء لأرضِنا العطشى..

أتيتكَ أمس بمجموعة مختارة من شعره..

احفَظْ كل ما تستطيع حِفْظَه لأمير الشعراء -يلفظُ العبارة الأخيرة بشيء من التفخيم- احفَظْ عن ظهر قلب: شيَّعْتُ أحلامي بقلبٍ باكٍ.. وجارة الوادي التي تسمعها جزء منها..

احْفَظْ: قفي يا أختَ يُوشعَ خَبّرينا..

و: سلامٌ من صَبَا بَرَدَى أرَقُّ..

و: قم ناجِ جِلّقَ وانشُدْ رسمَ مَنْ بانوا..

لقد ترك لنا شوقي إرْثاً خالداً يا بُنَي!! فَلْنكن أوفياءَ لهذا الإرْث، أُمَناءَ على التركة.

ويصدَعُ الطفلُ بنصيحة والده الشيخ، ويقرأ مختارات أمير الشعراء، حتى لَيكادُ

● شاعر الطفولة والعروبة الكبير.

يحفظ قصائدها عن ظهر قلب. ولكنَّ «حَنْجَرةَ السماء» عبد الوهاب هو الذي كان يُرعش أوصاله كلَّها، ويمشي كهرباءً في جسده، وهو يغنّي:

وتأوّدتْ أعطافُ بانِك في يدي
واحمرَّ من خفريهما خدَّاكِ
ودخلتُ في ليلَيْنِ فرعكِ والدُّجى
ولثمتُ كالصبح المنوَّر فاكِ

أيةُ نشوة كان الطفل الضائع في هذه التسابيح السماوية يُحسها تسري في أعماقه، وهو يردد هذه الأبيات، مع مطرب الملوك والأمراء، أو حَنْجَرة السماء، كما سميته أنا، وإنّي لحريص على تسميتي أكثر من أي لقب آخر.

❁ ❁ ❁

ويصعد شاعر النيل، حافظ إبراهيم، المنصَّة ذات يوم، ويهتف:

أميرَ القوافي.. قد أتيت مبايعاً
وهذي وفودُ الشرق قد بايَعتْ معي

ونهتف معه، ونحن في حارة بساتين العاصي من قريتنا النعيريّة، شماليَّ سورية، مؤكدين البيعة. ونردد، ورأسُنا في السحاب:

وحُرِّرَتِ الشعوبُ على قَنَاها
فكيف على قَنَاها تُسْترقُّ؟
وللمستعمرين وإن ألانوا
قلوبٌ كالحجارة لا ترقُّ
وللحرية الحمراء بابٌ
بكل يدٍ مُضرَّجةٍ يُدَقُّ

وإني لأسأل: هل قيل بيت في الحرية، في آداب العالم، أروع من هذا البيت؟

أيها الشاعر.. أيُّها الرائد الكبير!

شوقي.. طفولتيَ الخضراءُ.. ما بَرِحَتْ
عُشباً.. على رملكَ الجبَّارِ ينتثرُ..
كنتَ السماءَ التي عشنا بروعتها
وراح يغسلنا بالدفقةِ المَطَرُ
يا أنتَ.. يا زارعَ النُّعمى بدارتنا
والكرمُ.. لا وَرَقٌ زاهٍ، ولا ثَمَرُ
ترقرقَ النيلُ في دنيا عُروبتنا
وكان في شفتيكَ اللحنُ والوَتَرُ..
الشامُ.. ما بَرِحَتْ أصداءَ قافيةٍ
منذ احتفى بكَ فيها الطيرُ والشجَرُ
وما يزالُ أريجٌ من صَبَا بَرَدى
يُسْقَى به كلُّ مَنْ في شَطِّنا عَبَروا

❁ ❁ ❁

ويكْبَر الطفل، ابنُ العاشرة، ويُدعى إلى مهرجانٍ لشوقي وحافظ في مصر العربية، الشقيقة الكبرى، فما عساه يقول؟

لابدَّ أن يطويَ الزمن، ويعود إلى أكمامه الأولى، وهي تحاول أن تشق الطريق، ومرةً لشاعر النيل، وأخرى للبارودي، هؤلاء الذين قلت فيهم ذات يوم:

شَقُّوا الظلامَ.. وكانوا شهقةَ السِّحْرِ
يا أوّلَ الغيثِ.. من كفّيهمُ انهمرِ
كانوا الرجالَ.. فإن ننقُشْ ريادتَهم
على الجباهِ.. نُكرّمْ جبهةَ البَشَرِ

وأسمعُ نأمةً من بعيد توشوشني:

تقولُ شعراً.. أيُّها «الحُطامْ»!
تتفتّتُ في مقابرِ الرّمادْ..
يَسْخَرُ منكَ الغَسَقُ المرتمي
حولكَ، يَنْعاكَ السوادُ السوادْ
أرفعُ قبري شامخاً في يدي
أقولُ، لي خلفَ رمادي بلادْ
يُعشِبُ فيها وَجَعي المُشتهى
أصفعُ وجهَ الموتِ في كل نادْ
إني إلى مَقْبَرتي.. أنتمي
وعُرسيَ القادمُ هذا الحِدادْ

وتظلُّ صرخةُ شوقي الخالدة ترفعني من المقبرة، وترميني على السحاب:

وللحريةِ الحمراءِ.. بابٌ
بكلِّ يدٍ مُضَرَّجةٍ يُدَقُّ

• • •

يقول شاعر النيل:

(لا تَلُمْ كفّي إذا السيفُ نَبا
صَحَّ منّي العزمُ.. والدهرُ أبى)[1]

وأعلّق:

انحدرَ جُلمودُ صخرٍ، ساخراً
بالمهاوي.. لا تُغمغمْ رَهَبا
نحن رُوّادُ الضحى يا شاعري
قل لأطباقِ الدياجي: مَرْحَبا!
خُلِقَ الشعرُ شهاباً ساطعاً
ما حملناه.. «ليشكو النُّوَبا»[2]

إلى اليدِ المضرَّجةِ إذاً.. تدقُّ الباب الأحمر.. إلى شوقي.. أيها الطفلُ الذي يفتح عينيه على جسده العربي بين أنياب الذئاب، تتقاذفه الأيدي الغاشمة من دمارٍ إلى دمارٍ ومن مُصاب إلى مصاب.

هكذا كان.. وهذا ما نرى الآن..
ونظلُّ التلامذةَ الأوفياء
لمن أوقدوا الشعلة..
وكانوا أولى رَعَشات الضياء..
نظل التلامذة الأوفياء
لشوقي
وحافظ
والبارودي
والأخطل الصغير..
ومهما سَمَقت قاماتُنا، وعلت أصواتُنا..

أمَّا أنا.. فَلْتَأذَنْ لي ربَّاتُ الشعر، وَلْتَأذَنْ لي كنانةُ الله، أختم بهذه الأبيات:

أنا الثُّمالةُ.. شُدّيني إلى جَسَدي
يا آخرَ النَّبَضاتِ الخُضْرِ في كَبِدي
إني امتشقتُ دمي طفلاً لأكتُبَهُ
قصيدةً سَقَطَتْ عطشى ولم تَرِدِ
تركتُ خلفي سراديبَ الدجى هَذَراً

ورحتُ أعصبُ رأسي بالضحى الغَردِ | يا قصةَ العمر..
وما انتميتُ لغيرِ الرملِ في نَسَبي | لو لم تذهبي بَدَداً
وأَمَلأ الأرضَ إن اذكُرْهُ بالصَيَدِ | ما اختارَ غيرَ الحريقِ المشتَهَى بَدَدي

الهوامش

١- البيت لشاعر النيل حافظ إبراهيم، مطلع قصيدة حفظناها ونحن في الكُتّاب.
٢- العبارة لحافظ إبراهيم من القصيدة ذاتها. في الأصل (..ما بتُ أشكو النوبا).

دائرة الموت

محمود علي السعيد ○



كادتْ أن تقفلَ دائرةُ
الموتِ الأولى
آخرَ نقطةِ وَجَعٍ في
قاموسِ الخطواتِ
البراقةِ
كصهيلِ الخيلِ
امتدت أفرعةُ الرؤيةِ
فسحةَ عينينِ
علـى أروقـــةِ
الصفصافِ الطاعنِ
بالسّنِ
جهاراً

○ شاعر وأديب له مجموعات قصصية منشورة وأكثر من ديوان ودراسة..
العمل الفني: الفنان أسامة الهاشم

من فرطِ سعالِ هواءِ المستنقع
أمسكتُ بشفةٍ جرَّحها خيط الصمتِ الممتدُّ
من البدءِ إلى آخرةِ القبلةِ
دارتْ دورةُ أسئلةٍ من أينَ.. إلى أينَ..
وكيفَ.. ومتى؟
أجابت أصغرُ رعشةِ نبضٍ
تصفرُ في صحراءِ ولادتي الملقاةِ
على قارعةِ البوح الطازجِ
من نسلِ كنعانيِّ القوسِ
اندلعت دفقةُ صنبور الماءِ
في وجهِ المرآة المنسوجةِ من رملِ
فلسطينَ
نقشتْ قابلةُ القريةِ شوقَ الطرقاتِ
إلى خطواتِ الريحِ
مشت ذاكرة التقويمِ فحطَّ الغصنُ
على جذعِ فراغٍ
يُمسكُ جلبابَ فلاةٍ
يطلقُ باللامعقول عليها:
مضافة من سكنَ هجيرَ الفاقةِ
تتالت سنوات العمرِ تئنُّ على بحبوحةِ وقتٍ
لا يعلمُ سريان اللحظة فيهِ
سوى غربانِ الملأ الأسفل من قيعان
الأرضْ
غرفة ليلٍ مغلقة الأبوابْ
تُمسي -في حالٍ انزاحت لغة الأجداد
من الإفصاح إلى الهمسِ
ومن الإشراق إلى خفقانِ الطين-
تابوتَ مُفارقْ
انطلق قطارُ السيرِ على مسطرةِ المقعدِ
في مدرسةٍ يشتمُّ العاشق من وقفتها
الشامخة
كأفقِ الأسطورةِ عبقَ المستقبلْ
تتالت دقاتُ العزفِ على جدرانِ القلب
ولم تُفلحْ وصفاتُ الجيران
بوقفِ نزيفِ ضياعِ البوصلة الحبلى
بجهاتٍ لا يعرفُ فلسفةَ الموقف فيها
حتى شيطانُ خيال المرضى المهووسينَ
بفكِّ رموزِ الغيبِ المسعورِ
كطقسِ التفجير الذرّيِّ
فاضتْ نصفُ الكأسِ على جنباتِ الغيمِ
حاورتُ بغبطةِ فصلِ الضوءِ شتاءَ الجسدِ
لعلَّ استمرار غبارِ الطلعِ
يُعيدُ الصيرورةَ لحدائقِ آدمَ
وتعودُ الموجةُ تصخبُ في صدرِ محيطِ
الشرقِ الأوسطِ

تسميةَ الباطلِ
والوطنِ العربيِّ الأبقى تسميةَ الحقِ
ولكنْ، لا أملكُ أن أرفعَ نخبَ الشططِ
الخائبِ
فمحاولةٌ واحدةٌ تظلمُ ألقَ التاريخ
إذا اعتنقَ الناسُ ديانتَها
مادامَ الزمنُ على متسعِ الآتي
يُفصحُ بجواهرَ غصتْ فيها أقبيةٌ
من غليانِ الموتِ
جنونِ النبرةِ
أقولُ بملءِ جوارحي الملأى بالدمع:
لا تقنطْ من رحمةِ من لَمّ ضلعَ الصحوِ
بحزمةِ غصاتٍ من لقمةِ خبزٍ
يستوطنُ لبَ خلاياها العفنُ الآسنْ
اهجسْ من أضواءِ بلادكَ بالشمسِ صباحاً
وبنجمِ القطبِ البلديِّ مساءً

وبجملةِ قبلاتٍ
رشقتها باقةُ وردٍ جوريٍّ
همسةِ مصباحٍ شُحَّ الزيتُ بصدرِ تنفسهِ
فامتشقَ فتيلَ العشقِ وأشعلَ
آخرَ لمسةِ فرشاةٍ
أودعها جلجامشُ سرَّ خلودِ الكلماتِ البكرِ
على أسطحةِ الروحْ
ومضى يلثم ما أبقاه المطلقُ
من مائدةِ الصلصالِ الدهريةِ
قمْ واقرأ فاتحةَ النومِ علانيةً
فالموتُ هو الموتُ
سريعاً كالطلقةِ حلَّ
أم أبطأ من مشيةِ عكازِ الخشبِ المكلوم
توارى

رحلة إلى معلولا

✽
محفوظ أيوب



في الأفق البعيد، حيث تلتقي السماء والأرض، بدأت إلهة الشمس تخرج من بركة الدم التي تستحم فيها. وقطراته الحمراء القانية تنحسر عن جسدها الأصفر الذهبي تدريجياً، حتى أصبحت عارية تماماً.

وتوهج وجهها المستدير بأنوار سماوية ساطعة رائعة، وتناثر شعرها الأشقر الطويل في كل اتجاه ومنحى، حتى غمر طريقنا الممتدة من دمشق إلى منين، وصيدنايا، ومعلولا، التي نقصدها، وكأنها تدعونا إلى عبادتها.

كنَّا طلاباً في الجامعة، ندرس الفلسفة، وقد صممنا على القيام بهذه الرحلة إلى معلولا الجميلة، بدعوة من زميلنا جورج الواعي الذي هو أحد سكانها، وبصحبة أساتذتنا.

عندما وصلنا إلى معلولا كانت الشمس قد خرجت من حمامها، وارتدت ثيابها المقصبة الزاهية، وسارت شوطاً في طريقها.

✽ أديب وقاص سوري.

وبعد أن قمنا بزيارة قصيرة إلى منزل زميلنا جورج، نفذنا الخطة التي وضعها أحد أساتذتنا لزيارة الكهوف المقدسة التي تتناثر بين تلالها ووديانها، ويسكنها بعض الكهّان وتلاميذهم، وبعض الأسر الفقيرة أيضاً.

وقد أكلنا من خبزهم الرقيق الساخن الذي كانوا ما زالوا يخبزونه في التنور، وشربنا من مياههم الصافية، وتحدثنا مع كل من صادفناه منهم حتى الظهر، حين اجتمعنا لتناول طعام الغداء ثم سمح لنا الأستاذ المشرف على الرحلة بالتحرر من قيودها إلى غروب الشمس، للقيام بنشاطات فردية، حسبما يرغب كل منّا.

وبينما كنّا نتوزع زمراً وجماعات، تتفق كل منها على التوجه إلى ناحية ما، همس لي صديقي جورج:

- إنني أدعوك.. يا منقذ.. أنت وزميلتنا فتون وأستاذنا المحبوب الدكتور بديع، لزيارة أعظم كنوزنا الروحية في هذه المنطقة.

ولما عرض الأمر على الأستاذ بديع قال له:

- هذا ما وعدتنا به منذ زمن بعيد.. يا جورج.. ولم تنفذه حتى الآن، ونكاد نشك في صحته.

سأنفذ وعدي لكم اليوم.. تفضلوا.

تحركنا نحو قمة أحد الجبال حيث تنتشر مغاور عديدة محفورة في الصخور، وبينها تنانير كثيرة. ويتحرك فيها أناس يرتدون الثياب السوداء، ولحاهم مرسلة، حتى وصلنا إلى إحدى هذه المغاور، وربما أكبرها..

وقفنا على بابها المتعرج الحوافي.. ثم شرعنا في دخولها.

كان يجلس في صدرها كاهن كهل، يرتدي اللباس الأسود الذي يضمه خيط من الصوف الثخين في الوسط.. ولحيته طويلة وغير مشذبة.

ما كاد يشاهدنا حتى أسرع إلى لقائنا والترحيب بنا، ويبدو أنّه على صلة وثيقة مع زميلنا جورج:

- أهلاً بكم.. في مناسكنا.

وهرع جورج لتقديمنا إليه:

- أقدم لك أستاذنا الدكتور بديع الذي نتلقى الفلسفة والعلم على يديه، أنا وصديقي منقذ، وصديقتنا فتون، وعدد كبير جداً من الطلاب الآخرين.

وأضاف:

- إنه الأب الأقدس فيخارولوس العظيم، الذي طالما حدثتكم عنه.

كرر الأب الترحيب بنا.

- أهلاً وسهلاً.. يسعدنا اللقاء معكم.. تفضلوا بالجلوس.

وجلس على بقعة من الأرض فرشت فوقها بعض الأغطية القديمة.. والتففنا حوله.

مرت فترة من الصمت العميق، تبادلنا خلالها النظرات، التي كانت تتركز على وجه الأب الأقدس بتجاعيده الغزيرة، وعينيه الغائرتين المحدقتين إلى عالم آخر، وأنفه الضخم الشامخ، وما لبث أن سأل:

- ما هو مجال اختصاص الأستاذ الدكتور بديع؟

أجاب الدكتور باحترام:

- الفلسفة.

- أي فرع منها؟

- ما وراء الطبيعة.

- حسناً.. يبدو أنه سيكون لنا معكم حديث ممتع جداً.

- نتمنى ذلك من كل قلوبنا.. وهذا ما وعدنا به طالبنا جورج منذ مدة طويلة.

وأثناء ذلك أقبل راهب صغير يحمل بيده صينية نحاسية، وضعت فوقها عدّة أكواب فيها سائل أحمر قاني اللون، وقطعاً من الخبز السميك جداً، وقدمها لنا.

تناول كلٌّ منا كأساً وقطعة من الخبز، وصرنا نأكل ونشرب برهبة.. نبيذاً معتقاً لذيذاً جداً، وخبزاً ذا نكهة غريبة، كانت تمتزج في حلوقنا مع رائحة البخور الذي يعبق في جو المغارة بشدة.

وسأل الدكتور بديع:

- أيها الأب الأقدس.. ماهذه الضيافة غير المألوفة التي قدَّمتها لنا؟

اعترض الأب:

- هذه ليست ضيافة.. بل إنها قربان مقدس.

- ليتنا نعرف معنى ذلك؟

- يا بني.. كان الإنسان في بداية نشأته جاهلاً لا يعرف ما يدور حوله، ولا سر تلك القوى التي تسيِّر حياته، وتتحكم بالطبيعة، لذلك قدم لها ضحايا بشرية من خيرة الشباب والصبايا وأفضلهم، لترضى عنه، وتمنحه بركتها، وألقى بهم في الأنهر الهائجة، أو الغابات المفترسة، وللرياح العاصفة، أو للنار، وغيرها.

- هذا أمر مرعب وشرير.

حقاً.. ولما تبين الناس بشاعة ما يفعلونه استعاضوا عنه بالأضاحي الحيوانية، أو بتكريس الصبايا اللواتي سيضحَّى بهن للخدمة في المعابد، وتلبية حاجات الكهنة وبعض أصحاب السلطة، لاعتقادهم أنَّهم يمثلون الآلهة التي يرضيها ذلك، بدلاً عن التضحية بهن. وهذا ما أطلق عليه اسم: الخدمة المقدسة، أو البغاء المقدس، وأسماء أخرى، واعتبروا أن الأولاد الذين تنجبهم النساء المكرسات للمعابد أبناء للآلهة.

غضبت فتون وقالت:

- وهذا حرام أيضاً.. يا أبتِ.

أردف الأب الأقدس:

- نعم.. وقد حرمت هذه العادات تدريجياً فيما بعد.. وجاء من اكتفى بتقديم الخبز كتعبير عن الجسد، والخمر بديلاً عن الدم، لتكون أضاحي وقرابين للآلهة، بل قد يأتي من يكتفي بالحمد والدعاء والشكر.

عندئذ سأل الدكتور بديع:

- أيها الأب الأقدس.. ألا تتفضل بشرح مفهوم الخدمة المقدسة، والتكريس المقدس، أو إعطاء بعض الأمثلة عنه، ليتضح لنا.

صمت لحظة.. ثم تابع:

- هناك مثال مشهور جداً، وأظنك تعرفه.

- ذكرني به.

- إسكندر المكدوني.

- ما شأنه في هذا؟

- إن والدته أولمبياس هي ابنة ملك كانت منذورة ومكرسة لمعبد ساموتراقيا في اليونان، وللكهنة ولبعض الزوار الذين يحجون إليه في الأعياد المقدسة. وعندما جاء الملك فيليب للحج والتكفير عن الذنوب، وتلقي النعمة والبركة، كرست له أولمبياس لتكون في خدمته، ولتستجيب لرغباته. ولما وقع في حبها، واصطحبها إلى بلاده وتزوجها كانت حبلى. ولم يتأكد مما إذا كان مصدر هذا الحمل هو أم أحد الكهنة الذين كانت تعاشرهم قبل مجيئه. لذلك عيروا الإسكندر المكدوني بأنه ابن حرام، وطعنوا في وراثته لعرش من يقال إنه أبوه.

- قرأت شيئاً عن هذا.. وأظن أن الإسكندر المكدوني قد ادعى أنه ابن الإله، كرد فعل على هذا الاتهام.

- نعم.. بعد أن فتح مصر، وقام بزيارة واحة سيوه حيث يوجد معبد للإله آمون، وقابل كبير الكهنة فيه، الذي أخبره وأكد له أن والدته قد حملت به من كاهن أمون الأكبر في ساموتراقيا، قبل أن يحضر الملك فيليب إليها بقليل. وقد اختارته الآلهة ليكون حاضناً للإسكندر الذي سيرث مملكته.

- كيف عرف كاهن سيوه بذلك؟

- ربما كان على صلة وثيقة جداً بكاهن ساموتراقيا الذي أطلعه على هذا السر، أو أن هذا العرف الذي كان سائداً آنذاك مما جعل الإسكندر يعلن بعد هذا اللقاء مباشرة أنه ابن الإله، وحمل على رأسه قرني برج الحمل الذي ولد فيه. وانطلق ليفتح العالم، ويثبت أنه ليس ابن حرام، وإنما هو تجسيد لأبيه السماوي.

- لقد أدت هذه الحادثة إلى وقوع آلاف الضحايا البشرية، ولكوارث عديدة، رغم الإنجازات الهائلة التي حققها.

- أجل.. وبعدئذ بدأت عملية تحريم اتصال الكهان مع الفتيات المنذورات للمعابد المقدسة، لما ينتج عنها من عواقب خطيرة. مع أنَّها استمرت بصورة سرية وبشتى الوسائل والأساليب التي تخفيها عن الناس، وعن ضحاياها أحياناً باستعمال التخدير لهن. وفي بداية هذا التحريم، وقعت حادثة معروفة.

- أين؟

- في مدينة قديمة.. حيث نذرت إحدى العذارى وكرست للخدمة في أحد معابدها. وعندما أتمت مدة خدمتها، وغادرت المعبد، وجدت نفسها حاملاً، فاضطرت للهرب من المدينة إلى إحدى ضواحيها، حتى وضعت طفلها. ثم أخذت الطفل وخطيبها وذهبوا إلى بلاد مجاورة، فتزوجا وأنجبا عدداً آخر من الأطفال.

- كيف قبل خطيبها بذلك؟

- كانت تؤكد له وللناس جميعاً بأنها بريئة، ولاتعرف سر هذا الحمل العجيب.

- وماذا كان مصيرها؟

- قضت عدة سنوات بعيداً عن بلادها، ثم عادت إليها، لتواصل الحياة فيها، بعد أن هدأت نفوس الناس الناقمة عليها.

- ومصير ابنها؟

- عاد مع والدته، وصار يمارس بعض الأعمال البسيطة، لتوفر له قوته اليومي. إلى أن نضجت في نفسه مبادئ سامية جداً، تدعو للتسامح والسلام والمحبة.

- هل لاقت مبادئه ودعوته قبولاً لدى الناس الذين تنكروا له، وأعادا الاعتبار إليه؟

- أعلن بعضهم عن إيمانهم به.

- أي.. تحقق له ما أراد؟

- لا.. بل خانه أقرب المقربين إليه.. وقتل شر قتله.

وأطرقنا نحدق بعمق إلى المجهول، حتى عاد الكاهن ليقول:

- لماذا تأخذكم الدهشة والحيرة مما أقول.. والقصة ذاتها ستتكرر مرة أخرى؟

سألته:

- متى؟

- في الزمن القريب جداً.

- كيف عرفت ذلك؟

- الإشارات واضحة.. طوفان السوء والشر يبلغ الذروة من جديد. ولابد من ظهور من ينقذ العالم من المصير الرهيب الذي يسير نحوه.

- أين يمكن أن يظهر مثل هذا الشخص؟

- .في تلك البقعة من الأرض التي يتزايد فيها الصراع، ويبلغ الشر ذروته.

وسيأتي كرد فعل على كل ما يجري، ويعطي بديلاً أفضل منه.

- ربما تتطلب ولادته زمناً طويلاً؟

- لا .. لقد ولد .. وترعرع وكبر .. ولكنه مـا زال يلقى أبشع أنـواع العذاب والرفض والاضطهـاد، لتتطهر نفســه وتشتد وتقوى ويصبح قادراً على إقامة عالم جديد.

- هـل سينتصـر أم يلقـى مصير من سبقوه؟

- لا أدري بعد .. لأنَّ الظروف متداخلة ومتشابكـة جداً. والقوى التي تلعب دوراً في تحديد مصيره ما زالت غير واضحة بدقة. وكل الاحتمالات قائمة.

- وإذا فشل ماذا تكون العاقبة؟

- سيغرق العالم في طوفان الشر الذري.

- وفي حال انتصاره؟

- يولد أفضـل عالم ممكن، حيث يدين الأحيـاء والأمـوات بالحـق.. كل حسبما يستحق من الخير أو الشر.

- نرجو أن يتحقق له ما يريد.

- آمين.

وكانت الشمس قد بدأت تسحب رداءها الأصفر عن مدخل المغارة معلنة قدوم الليل، وبـوق السيارة يدعونا لمغـادرة معلولا التي نأمل أن نعود إليها قريباً.

وقفنا لنودع الكاهن الأكبر:

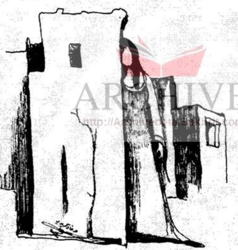
- إلى اللقاء.. أيُّها الكاهن العظيم.

وتجمع حولنا بعض تلامذته مودعين:

- مع السلامة.. إلى اللقاء المرتقب.. في المدينة المقدسة الجديدة.

على شارع الانتظار

محمد كلش ✪



وانـتـظـرتـكَ.. كلُّ شيءٍ يغريني بوصولكَ، الشوارعُ أخلت نفسها من المارة.. والحارة أفرغت نفسها من أصوات الباعة والجوالين، وبقيت أرقب قدومك.. طال تأخرك أكثر من ساعة.. عجل بالمجيء يا سيدي فكل شيء يجري لصالحنا..

أحسُ أنهُ حتى الطبيعة فرحة لمجيئك.. حيث الهواء يراقص أوراق الشجر والغيوم أخفت وراءها الشمس، طال غيابك عني كثيراً.. وأنا بتُ أراقب كل شيء حولي..

وتمنيت لو أني لم أسمع كلامك وذهبت لأقابلك حيث يجب أن أراك من دون أن أصطلي بنار الترقب والانتظار..

✪ قاص سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

التفتُّ حولي كل شيء يذكرني بك، وتقف الذاكرة إلى الوراء لأقف عند اسمك المستعار الذي لقبت به نفسك بعد استلامك المنصب الوزاري (رشيد بك)..

حيث لم يكن الاسم السابق يليق بمكانتك حسب زعمك..

وما زلتُ أذكر دخولك قريتنا أول مرة برفقة والدتك وأختك التي تكبرك بعامين.

لا أحد يعرف من أنتم ولا إلى أي نسب تنتسبون، كنتم متحفظين بعدم الإجابة لذلك أحجب شباب القرية عن الزواج من أختك رغم امتلاكها جمالاً يفوق فتيات المنطقة..

وبطبيعة الحال لن تكون المعيشة جيدة، فقد كانت بائسة، منعزلة عن الأهالي.. لا أحد يطرق بابكم أو يكلف نفسه عناء حمل السلام بلسانه وإلقائه عليكم..

وأقسم لو أن الأهالي خشية أن تلحقهم تهمة العار بطردكم لفعلوها..

أمّا أنا فقد كنت أتودد إليك.. وأحاول رسم البسمة على ثغرك وكانت النتيجة التوبيخ من الأهل وضرباً مبرحاً من الوالد..

(١)

ومازلتُ أذكر المعاناة التي لحقت بكم من أهالي القرية فقد كنت أعيشها معكم لحظةً بلحظة. فرئيس البلدية عندما وضع مخططاً تنظيمياً للقرية بقي رشيد بك خارج المخطط..

وحتى عندما تمّ تعبيد الطريق لم يصلهم شيء منه لذلك عانوا من التوحل شتاءً والغبار صيفاً.. وكم كان رمضان قاسياً عليهم، فعندما كان الأهالي يتبادلون الإفطار لم يكن أحد يطرق بابهم ويبادلهم الطعام.. حتى الزكاة لم ينلهم نصيب منها الأمر الذي جعل الأهالي في حيرة من أمرهم.. أيعيشون على الهواء والماء أم أن الله يبعث لهم الطعام كما بعثه لمريم عليها السلام..!!

لا أعرف ما الذي يجعلني أتذكر الماضي.. أهي حيلة للتغلب على الانتظار الذي بدأ يأكلني قطعة قطعة.. أم أنك الرجل الذي توقف عمري على عتبة مسرحه فرفضت تكملة العرض أو إنهاءه.. لذلك بقيت في منتصفه انتظر دورك لتجرني إليك..

أذكر عندما كنا طلاباً في الابتدائية.. كنت على درجة عالية من الذكاء استطعت من خلاله أن تنال إعجاب الأساتذة.. لذلك رشحت عريفاً للصف.. الأمر الذي أثار غضب الطلاب وذويهم، فاحتجوا أمام المدرسة، حتى عزلوك من منصب العرافة وكأنهم عزلوا أميراً عن كرسي عرشه..

أمّا أنت فقد تنازلت وابتسامة تطفو على محيط وجهك، لذلك أردت متابعة الغوص والسباحة حتى الوصول إلى جزيرة الأمان على خلاف أختك التي اعتكفت في بيتها مستسلمة للعنوسة التي بدأت تلتهم جسدها..

وها أنا عندما أقلب صفحات الماضي أجد أن معرفتي بك هي الشيء الجميل الذي منحتني إياها الحياة..!!

كم وردة أهديتني إياها.. فجعلت منها مزهرية.. وكم نظرة من عينيك خبأتها في عينيّ حتى أبصر بهما..

(٢)

وها أنت بعد سنين ليست بطويلة تقف كعمود صلب لا ينحني لتحرف كل الرياح التي كسرت مجاديفك السابقة لتقود بنفسك القارب الذي ستكمل به مسير حياتك القادمة..

فبعد انتهائك من الدراسات العليا تتعين موظفاً كبيراً في الوزارة، فأودعتك الحكومة منزلاً فخماً في قلب العاصمة إضافة لسيارة وسائق شخصي..

لم تكن فرحتي تكتمل فقد خفت من أن تقلبها المفاجآت وخصوصاً بقريتنا.. اتصالاته بي قلّتْ أما أنا فقد كنت بحاجة إلى كلمة دفء واحدة حتى تدفئ برد الثلج الساكن في داخلي لم يترك رشيد بك القرية كما توقع الكل.. بل أحدث تطورات أولها تبديل البلدية وإقامة مخطط تنظيمي جديد للقرية..

لم تكن نية رشيد بك تطوير القرية كما توقع الكل بل كان نيته الانتقام منهم..

إذ هدم أكثر من نصف بيوتها بحجة التنظيم الجديد.. وهجر البعض وجعل من البعض الآخر عمال سخرة لديه..

وقد سمى القرية التي تحولت إلى مدينة باسمه وأقام فيها الفنادق والملاهي الليلية وصالات الأعراس..فأصبحت مكتظة بالناس الوافدين من العاصمة..

رشيد بك لم يعمل على إحياء القرية فقط بل أعادها إلى وجه أخته التي كثر طالبوا الزواج منها، بعد أن فقدت معظم جمالها ومع ذلك أصبحت أمنية لكل شباب المنطقة.. وقد زوجها رشيد بك لرجل ذي مكانة وسلطة عليا..

وها هي سنوات العمر تعدو والخريف كل سنة يبدل أوراقه تماماً.. كما فعلت السلطة برشيد بك الذي بدلته واستولت على أملاكه بعد أن فاحت رائحته..

(٣)

ذات صباح استيقظت على صوت أمي وهي تخاطبني (صبحية) أخت رشيد بك قدمت إلى القرية مطلقة وقد رفض الجميع استقبالها..!!

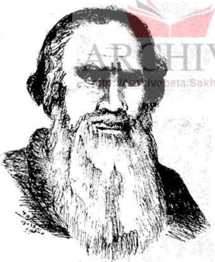
وحدها القرية فقط كانت تبدل اسمها بين كل حين وآخر..!!

ووحدنا فقط كنا نصفق للذي يأتي ونشتم الذي يذهب..!!

ووحدي أنا أسكب الدمع على شوارع الانتظار..!!

رسالة تولستوي إلى البشريّة

هبة الله الغلاييني*



يتخذ (تولستوي) من كلمة الإنجيل (لا تقاوموا الشّر) حجر أساس لمبدئه و(رسالته) إلى البشرية، ويعطيها التفسير الإبداعي: (لا تقاوموا الشّر بالقوة).

وفي هذه الجملة تكمن الأخلاق التولستوية بأكملها: فلقد رمى المناضل الكبير بالمنجنيق الحجري جدار القرن بكل العنفوان الخطابي والأخلاقي الكائن في ضميره المثقل بالتوتر والألم، بقوة بلغ منها أنّ الهزة ما زالت حتى اليوم تتردّد أمواجها في الهيكل الذي تصدّع شطر منه. ومن المستحيل أن نسبر

* كاتبة ومترجمة.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

غور الأثر النفسي لهذه الرمية بكل مداه. فإلقاء السلاح الطوعي من قبل الروس بعد بريست- ليتوفسك (وهو المكان الذي تمّ فيه توقيع اتفاقية الهدنة بين روسيا السوفييتية ودول المحور (ألمانيا، النمسا، تركيا العثمانية) في الحرب العالمية الأولى. واللاعنف عند غاندي، ودعوة رولاند إلى السلام في غمار الحرب، والمقاومة البطولية الصادرة من أفراد لا يُحصون ولا تعرف أسماؤهم ضد قهر الضمير، والنضال ضد عقوبة الإعدام، كل تلك الأحداث المنعزلة، والتي تبدو لا رابط بينها، في القرن الجديد، تدين باندفاعها النشيط لرسالة تولستوي. فحيثما يستتكر العنف اليوم، سواء أكان وسيلة، أم سلاحاً، أم حقاً، أم مؤسسة تدعي الصفة الإلهية، وبالتأكيد، مهما يكن ما يحميه ذلك العنف، ومهما تكن ذريعته، من حماية أمم، أو أديان، أو أعراق، أو ممتلكات، وفي كل مكان ترفض فيه أخلاقية قائمة على أسس إنسانية، تستغل الدم- وفي كل مكان ما يزال كل ثوري أخلاقي يستمد حتى اليوم طاقة مؤيدة تأييداً أخوياً، من سلطان تولستوي ومرارة إيمانه.

وفي كل مكان يشير فيه ضمير مستقل إلى الحس الإنساني الأخوي على أن المرجع القضائي الأخلاقي الوحيد بدلاً من الصيغ الباردة لدى الكنيسة، ومطالب الدولة المتكهّنة إلى السيطرة، والتشريع الصدئ الذي يعمل وفقاً لأنماط ثابتة، يحق له أن يستند إلى عمل تولستوي اللوثري النموذجي الذي يخاطب البشر بالمفهوم البشري، حيث يتوجه كل امرئ، في كل حالة، (بالقلب).

يقول تولستوي: ولكن أي شرّ يجب علينا أن نقاومه من دون عنف؟ إنه ليس شيئاً آخر سواه ذاته، أي العنف المطلق، سواء أكان يُخفي عضلاته تحت الأثواب المنبرية العنيفة المتمثلة في الاقتصاد القومي، أو رفاه الأمة، أو قطاع الشعب، وأشكال التوسع الاستعماري وإن قَلّبَ، ببراعة فائقة غريزة السلطة وغريزة سفك الدماء عند الإنسان، بالتزوير، إلى مُثُل فلسفية ووطنية، فلا يجوز لنا أن ننخدع. فحتى في أشد حالات التصعيد إغراء، لا تفيد ممارسة العنف دائماً إلا في مجرد تكريس متصاعد لمركز جماعة بذاتها بدلاً من المؤاخاة بين البشر، وهي تخلّد بذلك اللامساواة في العالم. فكل قوة تعني ملكاً، امتلاكاً، ورغبة في المزيد من الامتلاك.

ومن أجل ذلك يبدأ كل انعدام في المساواة عند تولستوي من الملكية. ولم يكن من قبيل العبث أن ينفق النبيل الشاب ساعات مع برودون في بروكسل. وحتى قبل ماركس يطالب تولستوي قائلاً: الملكية هي جذر كل الشرور وكل الآلام، وخطر الصدام يكمن بين أولئك الذين يمتلكون الأملاك الواسعة، وأولئك الذين لا يمتلكون شيئاً. ذلك لأن

الملكية لابدَّ لها، لكي تحافظ على ذاتها، أن تكون بالضرورة دفاعية، بل هجومية.

فالقوة ضرورية لاقتناص الملكية، وهي ضرورية لتوسيع الملكية، وضرورية للدفاع عنها، وهكذا تنشئ الملكية لنفسها الدولة حماية لها، وكذلك تنشئ الدولة، بدورها، توطيداً لمركزها، أشكالاً منظمة من قوّة الذراع، من الجيش، والتشريع، ومجمل النظام القهري الذي لا يفيد إلا في حماية الملكية، ومن يسلك نفسه في نظام الدولة ويعترف بها، يعترف في نفسه عبداً لمبدأ القوة هذا.

وحسب إدراك تولستوي يفيد حتى أكثر أهل الفكر استقلالاً، على ما يبدو، في الدولة الحديثة، في مجرد المحافظة على ملكية أفراد قلائل، بل إن كنيسة المسيح التي كانت (في دلالتها الحقة ترفع من شأن الدولة) تنصرف بتعاليمها المخادعة، عن أكثر الواجبات اختصاصاً بها.

والفنانون بدورهم، هؤلاء الذين ولدوا أحراراً، والذين نُدبوا محامين عن الضمير، ومدافعين عن حق الإنسان، ينحتون في أبراجهم العاجية الصغيرة و (يبعثون النوم في الضمير) والاشتراكية تحاول أن تكون طبيباً فيما لا شفاء له، والثوريون الذين يريدون، في معرفة صحيحة، أن ينسفوا النظام العالمي من أساسه، يستقيل بطريقة خاطئة، حتى وسائل خصومهم الفتّاكة ويخلدون الباطل حين يتركون مبدأ (الشرّ) من دون أن يمسّوه، بل يقدسونه، ألا وهو العنف.

ومن أجل ذلك يرفض تولستوي كل الإصلاحات الديمقراطية، والمحبة للإنسانية، والسلمية، والثورية، لشكل الحكومة، على أنها عبث لا طائل تحته. ذلك لأنه ليس هناك «دوما» ولا برلمان، ولا ثورة بالأحرى، تخلّص الأمة من (شر العنف) وإن بيتاً أقيم على أساس متأرجح لا سبيل إلى دعمه، لا يستطيع المرء إلا أن يغادره ويبني بيتاً آخر.

غير أن الدولة المدنية تقوم على فكرة القوة، لا على الأخوة، والنتيجة التي لا سبيل إلى ردّها عند تولستوي هي أن يحكم عليها بالانهيار. وكل تلقين اجتماعي وتحرّري لا يزيد على أن يطيل صراعه المستميت، وليست علاقة الدولة المدنية القائمة بين الشعب والحكومة هي التي يجب تغييرها، بل لابدّ من تغيير البشر أنفسهم، فبدلاً من الانضغاط البشري عن طريق سلطة الدولة يجب توطيد دعائم الارتباط النفسي عن طريق التآخي مع كل مجتمع من مجتمعات الشعوب. ولكن ما دامت هذه الأخوة الدينية، وهذه الأخوة الأخلاقية لا تحل بعد محل الصيغة الحالية للمواطن المقهور، فإن الأخلاقية الحقّة ليست ممكنة، فيما يبيّن تولستوي، إلا في المجال الخفي غير المرغوب لضمير الفرد.

ولما كانت الدولة تتطابق مع العنف، فلا يجوز لإنسان أخلاقي أن يتطابق مع الدولة. ومن أجل ذلك يصنع تولستوي نفسه بخطوة عزم وتصميم، خارج الصيغ المستقلة بالدولة، وفعلية استقلاله الأخلاقي عن كل أمر إلزامي سوى أمر ضميره، ولا يعترف بـ «تبعية شاملة لأي شعب أو دولة، أو ولاء لأية حكومة»، ويخرج طوعاً من الكنيسة الأرثوذكسية ويتنازل، عملاً بالمبدأ، عن القضاء أو أية مؤسسة مطبوعة بطابع الدولة في المجتمع المعاصر، لمجرد ألا يمس إصبع (دولة العنف الشيطانية).

ومن أجل ذلك لا ينبغي للمرء أن يغتر بالرقة الإنجيلية في مواعظه الداعية إلى الأخوة، وبالتكوين المفرط في أسلوبه المتواضع على النحو المسيحي، وبالاستناد إلى الإنجيل، عن الجانب المناوئ للدولة كل المناوأة، في بعده الاجتماعي فمذهبه في الدولة أكثر المذاهب المناوئة للدولة مرارة. وخروجه على البابوية الجديدة وعلى فكرة عصمة الملكية، هو الخروج الأكمل للإنسان من عهد لآخر.

بل إن تروتسكي ولينين لم يتجاوزا من الناحية النظرية كلمة تولستوي القائلة: «لابد من تغيير كل شيء» خطوة واحدة.

ومثلما كان جان جاك روسو، (صديق الشر)، يحفر بكتاباته الأنفاق للثورة الفرنسية التي نسفت من خلالها بعد ذلك الملكية في الهواء، فإن أحداً من الروس لم يزعزع الحصون الأساسية للنظام الرأسمالي القيصري زعزعة شديدة، ويجعلها تستحصن من تلك العناصر أمثال هذا الثوري المتطرّف الذي يطيب للناس ألا ينظروا إليه رسولاً من رسل الرفق والوداعة، وقد غرّتهم عنه لحية البطريرك وشيء من سلاسة في مذهبه.

ومنذ أن اكتشف تولستوي الأكثر عبقرية، خطأ البناء من تحت الأرض في تركيب حضارتنا، أي إنَّ بناء الدولة عندنا لا يرتكز على الإنسانية، وعلى المجتمع الإنساني، بل على الوحشية، وعلى التحكم في البشر، ظل يطلق عقال قوته الصدامية الأخلاقية الهائلة طوال ثلاثين عاماً في هجمات ما تفتأ تتجدّد على النظام الروسي العالمي.

فكان يؤثره الثروة من دون أن يريدها، وكان (ديناميكية) اجتماعية، وطاقة أولية ابتدائية، ناسفة مدمّرة، وكان بذلك من دون وعي منه ممثلاً لرسالته الروسية. ذلك لأنه لا بد لكل تفكير روسي، على الرغم منه، أن يدمر أول الأمر تدميراً متطرفاً، من الجذور، لكي يبني.

وليس من قبيل المصادفة أنه لم يسلم فنان من التردّي سلفاً في أشدها وهي العدمية اسوداداً، وهي العدمية الأشد افتقاراً إلى الضوء والأشد افتقاراً إلى المخرج، لينتزع، بعد ذلك فحسب، من اليأس الوجدي الأشد استعاراً في حرارته ضروباً جديدة من

الإيمان، بل يطلق المفكر الروسي، والأديب الروسي، والرجل العملي الروسي، إلى المشكلات بخشونة، وبمثل عزيمة الاقتلاع الحقة عند قاطع الأشجار، غريمة التجارب الخطيرة. فإن رجلاً مثل روستو بشين لا يتردد، من أجل فكرة النصر، في إحراق موسكو، هذه الأعجوبة العالمية، بأسرها، وما كان تولستوي بأقلّ منه في الإقدام على طرح كل التراث الحضاري للبشرية، من فن، وعلم، في المحرقة لمجرد تبرير نظرية جديدة أفضل.

ومن الممكن ألا يكون تولستوي، الحالم الديني قد وعى النتائج العملية لحملته المشابهة للحملة على الأيقونات، ويبدو أنه لم يجرؤ قط على أن يحسب مقدار الأرواح البشرية التي ستزهق مع الانهيار المفاجئ لمثل هذا البنيان العالمي الممتد امتداد السماء، وكل ما في الأمر أنه كان يهزّ، بكل طاقته النفسية، وعناد قناعته، بناء الدولة الاجتماعي.

يكتب تولستوي في (السنابل الناضجة): «عندما نقابل الثوريين نخطئ الظن، إذ نحسب أننا نتلاقى، فهم ينادون، ونحن ننادي: لا دولة، لا ملكية، لا تمييز، وأشياء أخرى كثيرة. ومع ذلك يوجد ههنا فرق كبير، فعند المسيحي لا توجد دولة، غير أن أولئك يريدون إبادة الدولة، وعند المسيحي لا توجد ملكية، غير أن أولئك يريدون إلغاءها. وعند المسيحي يتساوى الناس جميعاً، غير أنهم يريدون تدمير التميّز، والثوريون يقاتلون الحكومة من الخارج، غير أن المسيحية لا تقاتل أبداً، بل تقضي على أسس الدولة من الداخل».

كان تولستوي يريد تأسيس نظام جديد، يريد أن يؤسس كنيسة رسمية للدولة، ودينا للحياة أكثر أخوة، وهو الإنجيل المسيحي الأول، القديم الجديد، المسيحي على طريقة تولستوي.

ولكن لا بدّ، لدى تقييم هذا العمل الفكري الإنشائي -والأمانة فوق كل شيء- من إحداث خط فاصل بالسكين بين ناقد الحضارة العبقري، بين عبقرية العين الأرضية عند تولستوي، وبين تولستوي المفكّر، الأخلاقي، الباحث، والذي لا يصل إلى شيء، والمتقلّب المزاج، والمتناقض، الذي ما عاد يكتفي في الستينات من عمره بدفع فتيان الفلاحين في باستايا بوليانا إلى المدرسة، بل يريد أن يلقّن أوروبة كلها الأبجدية الكبيرة، للحياة الوحيدة (الصحيحة) و(تلك) الحقيقة التي تقوم على مستوى مفزع من الاستهتار الفلسفي. وليس هناك احترام يوفي تولستوي حقّه ما دام مقيماً في عالمه الحسّي، وهو المولود بلا جناحين، وما دام يحلّل بأدواته العبقرية بنية الإنسان، غير أنه ما يكاد يريد التحليق حراً في الغيبي، حتى تعجز حواسه عن التوثّب، والرؤية، والامتصاص، وتتخبّط

كل أذرع التناص هذه المصعّدة في الفراغ دونما جدوى، حتى يكاد يصيب المرء الذعر لتصوره الفكري.

ذلك لأن تولستوي، الأخلاقي النبيل النموذجي، والفنان الأكثر أصالة، هذا الرجل العظيم الذي يكاد يكون مقدساً، يلعب بالفعل لعباً رديئاً وغير مقنع، فلكي يدخل كل العالم الذي لا يتناهى فكراً، في جعبته الفلسفية، يبدأ بقطعة فنية من ألعاب الشعوذة السحرية، وبيان ذلك أن يبسّط أول الأمر كل المشكلات إلى أن ترقد ضئيلة في متناول اليد كأوراق اللعب، فهو يحدد أولاً، بمنتهى البساطة، (الإنسان) ثم (الخير)، (فالشر)، (فالخطيئة)، (فالشهوانية)، (فالأخوة)، (فالإيمان) ثم يخلط المؤثرات بعضها ببعض في مرح، ويسحب (الحب) ورقة رابحة، وإذا هو رابح.

ففي ساعة ضئيلة من ساعات الدنيا تمّ حل اللعبة العالمية بأسرها، تلك اللعبة التي لا نهاية لها ولا حل، والتي يبحث عنها ملايين الأجيال من البشر، على المنصّة في باسنايا بوليانا، وإذا الرجل الشيخ تتولّاه الدهشة وتشرق عيناه ببريق طفولي، وتفترّ الشفتان الهرمتان عن ابتسامة سعيدة ويتعجب، ويتعجب، (ما أبسط هذا كله!) أجل إنه لما لا يمكن تفسيره أن كل الفلاسفة، وكل المفكرين الذين يرقدون منذ ألف عام، في ألف تابوت، في ألف بلد، قد أنهكوا عقولهم على نحو يشوّش ويعذّب، بدلاً من أن يلاحظوا أن «الحقيقة كلها كانت ماثلة منذ عهد طويل، وواضحة وضوح الشمس، في الإنجيل، إذا ما افترض بالطبع، أن يفهمها المرء فهماً صحيحاً، مثلما فهمها هو (ليونيكولايفتش) في العام ١٨٧٨م لميلاد المسيح، للمرة الأولى منذ ثمانية عشر قرناً»، ويقوم أخيراً بتطهير الرسالة الربانيّة من (الطلاء) غير أن كل الجهود والمتاعب قد انتهت الآن إلى غايتها، ولا بد للناس أن يتبيّنوا الآن مقدار البساطة الهائلة في قضاء هذه الحياة، فما يزعج المرء يتم نبذه بلا تردد، ويتم إلغاء الدولة، والدين والفن، والثقافة، والملكية، والزواج ببساطة، وبذلك يتم القضاء على (الشر) وعلى (الخطيئة) إلى الأبد.

وعندما يقوم الآن كل فرد بحراثة الأرض بيده، ويخبز الخبز، ويصنع أحذيته، لا يعود للدولة، ولا للأديان وجود، وإنما هي دولة الرب على الأرض وحينئذ يكون «الرب هو المحبة، والمحبة غاية الحياة» وإذاً فلتبعد كل الكتب، وكل تفكير وإبداع فكري بعد الآن، وإنما تكفي (المحبة).

ومن الممكن أن يتحقق كل شيء منذ الغد، لو أراد الناس فحسب، ويبدو المرء كأنما يبالغ حينما يؤدي المضمون الصريح للاهوت الدنيوي عند تولستوي، غير أن من المؤسف أن تولستوي نفسه هو الذي يبالغ

على هذا النحو الممقوت في حماسته التي تحاكي حماسة الداخلين في دين جديد.

فما أجمل الفكرة الأساسية في الحياة عنده، وما أوضحها، وما أبعدها عن المحاجة، وهي إنجيل اللاعنف: فتولستوي يطلب إلينا جميعاً المسالمة، وهي تواضع فكري. وهو ينبّهنا إلى استباق الثورة من الأسفل لتجنّب الصراع الذي لا بدّ لنا منه في التمايز المتصاعد للطبقات الاجتماعية، وذلك بأن نبدأها طوعاً من الأعلى، وتقطع طريق القوة عن طريق الموادعة المسيحية الأصلية في الوقت المناسب.

أما الغني فينبغي له أن يضحّي بثروته، وأما المثقف فينبغي له أن يضحي بكبريائه، وأما الفنانون فينبغي لهم أن يغادروا برجهم العاجي، ويتقربوا من الشعب عن طريق تفهّمه، وينبغي لنا أن نلجم أهواءنا و (شخصيتنا البهيمية)

وأن ننمي فينا، بدلاً من حب الأخذ، القدرة على العطاء وهي قدرة أكثر قداسة، ولا ريب أنها مطالب نبيلة تتوخاها كل أناجيل العالم منذ أقدم العصور، وهي مطالب خالدة، إذ يتكرّر التماسها من أجل بقاء البشرية، أبداً مرة بعد أخرى، غير أن اللجاج المفرط عند تولستوي لا يكتفي بما يكتفى به مع ضروب الأديان، التي تعتبر على أنها الحد الأقصى لإنجاز الفرد، بل يطالب، وهو اللجوج بصورة طاغية، بهذه الوداعة على الفور ومن الناس جميعاً، وهو غاضب.

وهو يطالب بأن نتخلّى نزولاً عند أمره الديني، عن كل شيء فوراً ونسلّمه، ونضحّي به، لنكون مترابطين في المشاعر. ويطلب إلى الشباب (وهو في الستين) العفّة (التي لم يمارسها بنفسه وهو رجل أبداً)، ومن رجال الفكر اللامبالاة، بل ازدراء الفن والنزعة الثقافية (وقد كرّس لهما حياته بأسرها) ولكي يقنعنا بسرعة كبيرة، بسرعة البرق تماماً، بمبدأ ضياع ثقافتنا في التفاحة، يدمّر بكلماته الغاضبة كل عالمنا الفكري.

ولمجرّد أن يجعل العفة الكاملة أكثر إغراء بالقياس إلينا يبصق على كل ثقافتنا الراهنة، وعلى فنانينا، وعلى أدبائنا، وعلى تقنيتنا وعلومنا، ويلجأ إلى أفحش ضروب المبالغة، إلى الأباطيل الصارخة السمجة، وهو في الحقيقة يشتم نفسه دائماً ويحقّرها أوّلاً، ليكون له منطلق حر إلى الهجوم على كل الآخرين.

وعلى هذا النحو يسوّد وجه أنبل النوايا الأخلاقية بمكابرة وحشية لا يعد أي تصعيد مفرط بالقياس إليها، ولا أيّ خداع سمج.

وهل يعتقد امرؤ حقاً أن لتولستوي الذي كان طبيب خاص يفحصه بالسمّاعة ويرافقه في كل يوم، كان ينظر إلى الطب والأطباء على أنهما، من الأشياء التي لا ضرورة لها وإلى القراءة على أنها (خطيئة) وإلى النظافة

علــى أنها (تــرف لا لزوم لــه) وهل قضى حياته، وهو الذي تملأ أعماله ترفاً، بالفعل طفيلياً لا نفع فيــه، كما يصوّرها هو نفسه على النحو التالي: «أنا آكل، وأثرثر، وأستمع، وآكل مرة أخرى، وأكتب وأقرأ، أي إنني أعود إلى الحديث والاستمــاع مرة أخرى، ثم آكل مرة، وأذهب إلى النوم» أعَلَى مثل هذا النحو بالفعل نشأت روايتا (الحرب والسلام) و(آنا كارنينــا) أو لا تعني الموسيقى شيئاً بالقياس إليــه، وهو الذي تفيض دموعه بمجرد أن يعزف عازف سوناتات شوبــان، شيئاً سوى (قربة الشيطان) مثل جماعة الأصدقاء ذات الأفق المحدود؟

أيعدّ بتهوفن حقــاً (محرّضاً للشهوات) ومسرحيــات شكسبير (سخفــاً لا شك فيه) وعمــل نيتشه (لغواً فظّــاً مفخماً على نحو فارغ) أم تعــدّ أعمال بوشكين (لا تصلح إلا ليستخدمها الشعب ورق لفافات)؟ وهل يعدّ الفــن عنده، وهو الذي خدمــه خدمة أروع مــن أي امرئ آخــر، بالفعل مجــرد (ترف للعاطلــين)، أكان يعتقد جــاداً، وهو نفسه الذي كان داعراً لا يعتريه الكلال في شبابه، ثــم أنجب في سريــر الزوجيــة ثلاثة عشر طفــلاً، إن كل عازب خليــق أن يغدو، بتأثير نداءاته، دفعة واحدة خصيّاً، ويحبّ نفسه؟ فالمــرء يرى تولستوي يبالغ كالمسعور، ويبالغ عن ضمــير غير نقي، لكيلا يقــال أنه أدلى (ببراهــين) مفرطة في الوهــن. ولكن ربما عرف أن مذهبــه كان دخاناً وعبثاً مناقضاً للواقــع، وأن العاطفــة المحتدمــة المستقرة ستكــون في كل زمــان أقوى مــن البشر من فضيلة الأخوة.

المراجع

١- (الحــرب والسلام)، تأليــف: (لونيكونيتش تولستوي)، ترجمة (إدوارد الخــراط)، الناشر: القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة النشر ١٩٩١-١٩٩٣م.

٢- (ليف تولستوي) مختارات من كتاباته الفكرية والفلسفية.

المحكيات الرقمية العربية في الفضاء الكوني واللغة العربية

د. محمد فاتح زغل ✿

ليس من الغريب أو العجيب أنَّ الناس في هذه الأيام باتوا يفكرون بعيونهم وأحياناً بآذانهم فقط فهم يشاهدون التلفاز أضعاف ما يقرؤون، فالعصر الذي هم فيه عصر المشاهدة بعد أن كان عصر القراءة والكتابة وقبلهما كان عصر المسموع والمروي والغريب والعجيب الآن هذا التحول السريع والكبير من عصر المشاهدة إلى عصر الرقمنة التي دخلت عالمنا اليوم وتحول الناس من المعرفة التناظرية إلى المعرفة الرقمية في النصوص والصوت والصورة عبر الأجهزة الإلكترونية الحديثة والمناسبة لشتى أنواع الاستخدام، وفعلاً بدأنا نعيش العولمة وبدأنا نرتبط بمنظومة واحدة فيها كل تفرعات الحياة من منظومات مالية وإعلامية واتصالية وأخيراً معلوماتية والتي تجسدها شبكة الإنترنت.

وإذا رحنا نتساءل أمام الواقع الجديد **ما واقع اللغة العربية في العصر الرقمي؟**

وهل لها دور على الخريطة المعرفية؟

وما التحديات التي تواجهها؟

وهل تملك إمكانات التحول الرقمي في الفضاء الكوني؟

في رأي مديرة برنامج ذاكرة العالم

✿ أديب وباحث سوري مقيم في الإمارات العربية المتحدة.

في منظمة اليونسكو أنَّ نصف لغات العالم ستختفي عام ٢٠٥٠م كما تشير التوقعات، وأنَّ الكثير من اللغات يواجه خطر الانحسار؛ غير أنَّ الدراسة أثبتت أيضاً أنَّ أكثر اللغات بعد اللغة الإنكليزية التي تتداول على شبكات التواصل الاجتماعي (الفيس بوك) هي اللغة الإسبانية والبرتغالية والعربية، بينما يشكك كثيرون في إمكانية اللغة العربية أن تصبح لغة العلم وتكون لغة شاملة لكل العلوم والفنون والآداب فيما سمي بعصر الرقمنة، ويستندون في تشاؤمهم على أنَّ حصة الإنتاج الفكري باللغة العربية المتاح على الإنترنت لا يتجاوز ١٪ وهذا مرده إلى الفجوة المعجمية، وإلى عدم وجود محركات بحث عربي ذكية يتعامل معها المستخدم للغة العربية بشكل علمي بما يتوافق مع خصائص اللغة العربية، وأدت هذه الفجوة الرقمية إلى الغزو المعلوماتي الذي يقوم به الغرب والصهيونية بإغراق مواقع الإنترنت بمواد وبرامج باللغة العربية تزيد من تغرب ثقافتنا وقيمنا وتزيد في الهوة المعرفية بين العربية وعصر الرقمنة.

مما لا شك فيه أنَّ اللغة العربية وهي تواجه هذا العصر لا بد لها بداية من جهود مجتمعة من العلماء والسياسيين تشمل وضع إستراتيجيات متعددة لمواجهة عصر المعرفة المعلوماتية وأولها عمل معجم للمعلوماتية، والتغلب على ظواهر الترادف والتضاد والاشتراك والاشتقاق، والترجمة الآلية التي هي من أهم المشكلات، وربط اللغة العربية باللغات الأخرى حتى تستطيع اللحاق بتقنية الشبكة الدلالية، وما تتطلبه من نظم ذكية لمعالجة اللغة العربية آلياً؛ فضلاً عن التوجه لإيجاد محركات بحث عربية على الإنترنت، وأهمية وجود مواقع متميزة باللغة العربية لخدمة المجتمع.

ونحن نقول ذلك انطلاقاً من أن لغتنا العربية قد صمدت أكثر من سبعة عشر قرناً وهذا دليل على أصالتها ومرونتها، بل إن ابن جني فقيه اللغة العربية وجنّي خصائصها يرى أن اللغة هي الإنسان، وهي الوطن، وهي الأصل، وهي نتيجة التفكير، وهي ما يميز الإنسان من الحيوان، وهي ثمرة العقل، وهي تستخدم للتفاهم والتعبير عن المشاعر والأفكار، كما شهد علماء اللغة والألسنيات في الغرب بهذه اللغة؛ فقد أشار أرنست رينان إلى أن اللغة العربية فاقت اللغات الأخرى، بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها، كما يذكر الأمريكي وليم درل

بأن اللغة العربية من اللين، والمرونة، ما يمكنها من التكيف وفق مقتضيات هذا العصر.

ومن ثمّ ألم تكن العربية اللغة العالمية الأولى في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية منذ القرن الثالث الهجري؟

إنَّ ما تعانيه العربية اليوم يرجع إلى عجز أهلها وتقاعسهم، وهي مؤهلة أكثر من غيرها، ليس فقط لتلبية مطالب مجتمع المعرفة، بل أيضاً لتقوم بدور طليعي في المعرفة اللغوية على المستوى الإنساني لما تتمتع به منظومتها النحوية والصرفية والمعجمية من خصائص ومميزات قلما توجد في لغة أخرى.

ما يلزم العربية اليوم لكي تواجه هذا العصر عصر المعرفة الرقمية وجود بنى تحتية قوية للمنظومات المعلوماتية العربية لتواجه التدفق المعلوماتي بتدفق عربي حتى تعبر الفجوة الرقمية بحيث نصبح منتجين للمعرفة وليس مستهلكين لها في عصر اقتصاد المعرفة.

وتشير الدراسات أن الصفحات العربية على الإنترنت لا تتجاوز ١٪ من إجمالي عدد الصفحات على الإنترنت أي ما يعادل صفحة واحدة لكل مئة صفحة، وهذا يدل على تدني إنتاجية صناعة المحتوى العربي على الرغم من أن الناطقين بالعربية يشكلون حوالى ٥٪ من سكان العالم؛ بينما بلغ عدد مستخدمي اللغة العربية على الإنترنت عام ٢٠٠٩م أكثر من ٤٩ مليون مستخدم يمثلون حوالى ١٧٪ من مجمل تعداد الناطقين بها في العالم.

إنَّ دخول عصر المعلوماتية يتطلب إقامة مشروعات عملاقة في الجامعات ومراكز البحوث العلمية حول ما يعرف اليوم بهندسة اللغة أو الهندسة اللسانية، وهذا أوّل الركائز الأساسية لتهيئة اللغة العربية لدخول مجال الذكاء الاصطناعي واللجوء إلى حركة واسعة من الترجمة والتعريب يكون أساسها وضع المصطلحات العلمية والتقنية لمعجم عربي حديث يتوافق مع مجتمع المعرفة.

ولا بد من الإشارة إلى أن موقع الوراق في دولة الإمارات وهو أحد أبرز وأهم مواقع التبادل الثقافي العربي يشكل نواة مهمة لمكتبة عربية رقمية شاملة حيث تمَّ رقمنة أكثر من ٦٠٠ كتاب إلى الآن،كما أنشأت دولة الإمارات العربية مدينة عالمية للإنترنت، وكذلك فإنَّ جهود مركز جمعة الماجد بدولة الإمارات العربية في رقمنة المخطوطات العربية يعد من المشاريع الرائدة في المنطقة.كما أن هناك مشاريع

في الدول العربية لا يتسع الحديث لذكرها ومن شأن هذه المشاريع زيادة الرصيد العربي الرقمي، وبالتالي خدمة مشاريع التنمية والتطوير للمحتوى الرقمي العربي المتردي.

وقد قدمت اللغة العربية حلولاً لهذا التطور يكمن في المصدر الصناعي وهو اللفظ الدال على الحدث مجرداً عن الزمان وهو قياسي ويطلق على كل لفظ جامد أو مشتق، اسم أو غير اسم زيد في آخره حرفان هما ياء مشددة بعدها تاء تأنيث مربوطة ليصير بعدها اسماً دالاً على معنى مجرد لم يكن يدل عليه قبل الزيادة فهو يدل على صفة في اللفظ الذي صنع منه أو على ما فيه من خصائص، وقد ورد عن العرب مصادر صناعية عديدة مثل: الجاهلية، الأريحية، الفروسية، العبقرية، الوحدانية، وغيرها.

وقد أكثر المولَّدون من هذه المصادر بعد ترجمة العلوم بالعربية وقرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة قياسيّة صوغ هذا المصدر، لِسَدِّ حاجة العلوم والصناعات إلى ألفاظ جديدة تعبر عن معانٍ جديدة مثل: الإنتاجية في الاقتصاد بمعنى العائد من سلعة أو من خدمة، والاتفاقية مصدر الاتفاق وهو ما تمت الموافقة عليه، ومنه الاشتراكية من المصدر اشتراك وتعني المذهب السياسي والاقتصادي القائم على سيطرة الدولة، ومنه التقدمية من المصدر التقدم وتعني المذهب السياسي والاقتصادي الذي يعتمد على الحداثة، ومنه الرأسمالية من الاسم الرأسمال وتعني النظام الاقتصادي الذي يقوم على الملكية الخاصة، ومنه الشخصية، والإباحية، والعقلية، والخاصية، والإحصائية، والمنهجية، والقابلية

كما استخدم المصدر الصناعي في المصطلحات العلمية مثل: الحمضية والسمّية والقلوية أو كاستخدامه في المقادير مثل: المطيافية، والمعلوماتية، والتأثرية، والاستقطابية، والبرمجية، والحاسوبية وغيرها ومن المصادر الصناعية الشائعة: الحرية، الوطنية، الأهمية، الهُوِيَّة، الأنانية، الغَيْرِية الصوفية، الرومانسية، الواقعية، السريانية.

لقد وضع العلماء العرب آلاف المصطلحات العلمية، وصنعوا عشرات المعجمات بجهودهم الفردية والجماعية، ولم تكن هناك أية شكوى من أنَّ اللغة العربية حالت يوماً من دون وضع أي مصطلح من المصطلحات العلمية.

كما نجح علماؤنا الأوائل في ترجمة ما

لدى الأمم الأخرى، وأشاعوا المناخ الملائم للبحث العلمي، وتمكنوا من الانتقال من استيعاب العلوم وتمثلها إلى تأصيلها والإبداع فيها، وقدموا للأمم الأخرى حضارة أفادت من سابقاتها وشرعت تخدم الحضارات التي واكبتها وتلك التي جاءت بعدها. فهل سنبصر من جديد قيام علمائنا في إشاعة هذا المناخ لتواكب اللغة العربية مثيلاتها من اللغات الحية في عصر الرقمنة والمعرفة الرقمية؟.

لا بدائل للدين
للفيلسوف والباحث الإنكليزي ألدوس هكسلي

مراجعة وترجمة: صلاح دهني*

يقدم الفيلسوف الإنكليزي ألدوس هكسلي، حول ما يسميه بعض الباحثين: «بدائل الدين»، دراسة له مثيرة للجدل، أو أنّ هذا ما قد يتبادر لذهن القارئ قبل أن يتوغل مع الكاتب في اجتهاداته واستنتاجاته التي تثبت تهافت تلك البدائل ما إن تواجه بعمق وبتجذر وأصالة الأحاسيس الدينية.

يمكن للمرء أن يتوقف عند فكرة الحرية الشخصية كما طرحت بكثافة خلال العديد من الأحداث المؤسفة التي نجمت، أو تلت ما تمَّ إنجازه من تغيرات مجتمعية في بعض البلدان العربية نتيجة ما عُرف بالربيع العربي.

لكن دونما أي مساس بحقائق الأديان، السماوية منها وغير السماوية، كما يرى الكاتب، تظل الحرية الشخصية مرتكزاً أساسياً من مرتكزات حرية العقل. فالإنسان ذو العقل الحر لديه ما يختاره من خلال تفاعله مع الزمان والمكان. وتتكون لديه اهتمامات وحاجات يجد أن من حقه أن يملك الحرية في اختيارها وإشباعها.

ولا تعرف هذه الحرية حدوداً سوى حدود المصلحة العامة الموضوعية والمنطقية، وموحيات الضمير الأخلاقي الكوني التي لا مجال فيها لأية تناقضات روحية أو مخالفات لأحكام أية ديانة.

* أديب وقاص ومخرج سينمائي له العديد من الأعمال والمؤلفات المهمة.

يذهب الكاتب في بحثه إلى أنّه على الرغم من أنّ الفلسفات والديانات المغرقة في القدم قد تبدو -من الناحية الفكرية- جد بعيدة عنا، فإننا نشعر مع ذلك أن أسباب الانفعال والحدس التي تؤدي إلى أيما تعبير عقلاني أو شبه عقلاني، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما نحن عليه، بذاتيتنا، بحقيقتنا.

الفلسفات تتغير، ومعها قواعد السلوك التي تأسست عليها، لكن ما تعقلن لا يتغير. أكثر ما هنالك أنّه قد تتطور قدرة ما كامنة، وما كان في حيز النفوذ والفاعلية يصبح واقعياً وآنياً، أو أنّ تقنية ما اخترعت، وتمّ استثمارها، لكي يعي المرء أنه باتت تتوافر له قدرات كانت حتى ذلك الحين مجهولة، وبلا نفع. أناس اليوم، في تشابههم وفي تغايرهم، يشبهون أناس الماضي.

كان ثمة انطوائيون، ومنفتحون، أيام هوميروس، وكان هنالك مثقفون وحدسيون، ذوو بصيرة، ومن غير ذوي البصيرة، تماماً كما هي الحال الآن. وقد يحتمل أن تكون نسب الأفراد في كل فئة بقيت على حال من الثبات على مدى التاريخ. فلا الاختلافات الوراثية بين بني البشر، ولا تشابهها، قد أصابها كبير تغيّر. ما تغير هو طرائق التفكير والعمل التي عبرت عنها الاختلافات والتشابهات التي بقيت ثابتة وراثياً، قد يتغير شكل المؤسسات والفلسفات، لكن الفحوى المستقرة لا تبلى، لأنّ طبيعة البشرية تظل عصية على الفساد.

ما تقدم من آراء الكاتب يعدُّه تمهيداً لا بديل عنه للدخول في الجوانب الأساسية لما يسمّيه تجاوزاً: (بدائل الدين). وهو هنا يوزع نظراته إلى تلك البدائل على عناوين عدة تشكل -حسب رؤيته- نماذج لتلك البدائل كما تصورها، من دون أن يبت أو يحسم في حقيقتها من الناحية القيمية لينتهي إلى إنكار أولويتها الثابتة على الأديان.

بادر الكاتب بداية بالحديث عمّا سماه: (تراجع الدين)، إلا أنّه عجل بالإشارة إلى أنّ الدين ما إن يقارَب حتى يتبدى أنه يناقض هذا التوكيد. يستطرد فيقول: إنّ ديانات الغرب تراجعت على نحو ثابت مدى المئتين أو الثلاثمئة سنة الأخيرة. كانت هنالك، في حقيقة الأمر، فترات عالية كما كانت هنالك أخرى واطئة. لكن الحركة باتجاه الهبوط كانت غالبة، وقد بتنا نعيش اليوم (يعني في أوروبة طبعاً) ما قد يعدّ العصر الأكثر بعداً عن الديانة على مدى التاريخ.

على الرغم من ذلك تظل الديانة تمثل عقلنة المشاعر والحدس بما هي، حسبما اعترف الباحث بذلك، لا تتغير ولا تتبدل في جوهرها، هل حقاً تغيرت حقيقتنا كلياً على مدى بضعة أجيال أخيرة؟ وإلا توجّب علينا أن نؤمن بأنّ الديانة ليست تمثل عقلنة

المشاعر والحدس كما هي متوغلة فينا، بل هي تخلّق غرائبي أبدعه الذهن وكرر إبداعه في كل جيل ليتسلى به ويترفّه؟

هذه التبادلية واضحة لكنها أبعد ما تكون عن الواقع. فحقيقة أنَّ الديانات تراجعت على مدى أجيال عدة لا يعني أنّها ماتت نهائياً. وحقيقة أن أشخاصاً كُثراً لا ديانة لهم في أيامنا لا يعني أنهم بلا أي بديل عن الدين. فمشاعرهم وحدسهم من أصل ديني قد تكون تعقلنت حسب صيغ يصعب التعرف آنياً على أشكالها.

يبين التاريخ بوفرة أن فئات بتمامها من الوظائف والقدرات العقلية يمكن أن تسقط الثقة بها على نحو عابر، لكنها تبرز للعيان على الرغم من ذلك من أن أية محاولة لإلغاء جانب من الفرد، والحياة من دونه، كما لو لم يكن له من وجود، لم تتكلل قط بنجاح دائم. فالعناصر التي وضعت خارج الأطر المقررة، ستعود فتنتصر مهما قربت المدة أو ابتعدت، ذاك أنَّ قرار تحريمها سيعاد فيه النظر، وأنَّ فلسفة جديدة للوجود تحظى برضى الجمهور الشعبي. فلسفة تمنح العناصر التي سبق أن أهملت وحرّمت المكانة التي تحظى بها ضمن اللوحة العامة، وعلى الغالب ضمن حُميا رد الفعل-سوف يكون لها موقع أسمى هو من حقها. لا مجال قط للافتراض أنَّ الحال القائمة في البعد عن الدين لدى فئات محددة من البشر، حالة دائمة.

إنَّ تراجع الإيمان بالدين -كما يفترض كثيرون- ليس مجرد ظاهرة وقتية، ولا هي منقوصة، فالغرائز الدينية لمن تخلّوا عن دين معروف يُعبَّر عنها في تصانيف مدهشة من الوسائل اللادينية، فما داموا تخلوا عن الدين، تراهم يعوّضون عنه ببدائل. وعن هذه البدائل -يقول الكاتب- أركّز بحثي الآن.

حول طبيعة الدين الأصيل

يستحيل على المرء أن يناقش بذكاء بدائل أمر ما إذا لم يتسلح ببعض الإضاءات عن طبيعة المادة الأصيلة. فوحده الذي تذوق الزبدة الصحيحة يسعه انتقاد تنوّع صنوفها الأخرى. ينطبق الأمر على بدائل الديانة.

لن أحاول تقديم تعريف قاطع للدين- يقول الباحث- فمثل هذه التعريفات تظل غامضة على نحو عام ومجردة إلى درجة تبلغ معها أن تكون فارغة من أي معنى، ومانحتاجه للهدف الذي نعمل على بلوغه، ليس مجرد تعريف للدين، بقدر ما هو الحصول على دليل للحالات الذهنية الرئيسة، والأفعال التي يتم الاعتراف بصفتها بدائل دينية، إضافة إلى عرض مختصر لأكثر الخصائص المميزة للمذاهب الدينية التي تعقلن تلك الحالات والأوضاع.

مــا أفترضــه هــو أنَّ شعــوراً بالرعب والاحترام في مواجهة ألغاز الدنيا ولانهائيتها، هوما يمثل الحالة الذهنية في أعمق أسسها الدينية، يتعقلن هذا الشعور على شكل إيمان بمخلوقات تتجاوز قــوى الطبيعة، صديقة بقدر ما هي ذات نية سيئة، صورة مضاعفة لهذا العالم الذي يعيش فيه البشر.

يتمثـل التعبيـر الصحيح عــن الشعور الديني في شكل طقســ محدد، بما يناقض التعبيـر العقلي. فمــا إن يتخلّــق الطقس الدينــي، حتى يحتل مكانــة أوّلية في جميع الديانــات. لأن الطقــس يُولّــد عن طريق الترابط الذهني، وانفعالات الرهبة المقدسة التي تؤدي بمــن يشعر بهــا إلى تمثل الإله ذاته، وهذه الانفعــالات تصحبها أخرى، لا تقلّ عنها حيوية، وبالتالي فهي في جوهرها ربانية. في مقدمتها نجد ما يمكن أن يدعى الانفعــال الاجتماعــي، والشعــور بأقصى درجات الإثارة، وهو ما يتولد عن الوجود في جمع من الناس.

إنَّ التنسّك عام بين الديانات كلها (عدا الإسلام). فلا جــدوى من محاولتنا تفسير: لمــاذا آمن الناس بأنهم قادرون على التماس نِعَم الآلهة عن طريق تجنّب الملذات وأسباب الرفاه. فما داموا آمنوا بذلك فهذا يكفي.

كبير هــو الشقاء الإنساني، وجدٌ منتشر، إلى درجة أنَّ إحدى أخطر مهام الديانة كان على الــدوام، المواساة. كمــا أنَّ إحدى أهم صفات المذاهب الدينيــة هي كونها حالات مستقبلية تعويضيّة.

رجــال الديــن موجــودون في جميــع الديانات، ينهضون بمهمة مزدوجة، كوسطاء ما بين الإنسان واللغز الذي يحيط به، وهو ما يستوعبونه أفضــل من غيرهم وقادرون علــى تيسير فهمــه أكثر من عامــة الناس. وظيفتهــم الثانية زمنية: فهــم مستشارون، مميزون، أطباء روحيون.. وفي أزمان سابقة كانوا أيضاً قادة سياسيين.

بدءاً مــن هنــا يسعنا أن نقــارن فكرة البدائل، أول مايلفت أنَّ البدائل كلها لاتبلغ التعويــض عن الديــن إلا على نحو جزئي. فالديــن يغطي كامــل المجــالات الذهنية والانفعالية. فيقدم تفسيراً للكون، ويواسي، ويهيئ للمؤمنين به طقوساً ترتفع بهم، وبذا يقربون لهم فكــرة الإله الخلاق. فلا يقدر أي بديل على مجاراتهم. هذا يقدم طقوساً، لكن بلا أيــة فلسفة، وآخــر يقدم مذاهب تعويضية لكن بلا طقوس.

مــا من بديل عن الدين يمكن أن يرضي مختلف حاجــات الإنســان الدينيــة كامل الإرضاء، لعل جانباً كبيراً من القلق والريبة اللذين يتصف بهما عصرنا مردّه إلى المشاعر المزمنــة برغائب لم تُروَ، يعانيها لزاماً الناس

المتدينون بطبيعتهم، لكنهم محرومون بسبب ظروف معينة من أن يكون لهم دين.

البديل السياسي

السياسة هي بلا منازع أهم بديل للدين، لدى فئات من الناس. فالقومية والوطنية المتطرفة تمنح المؤمنين بها إلهاً يعبد -الوطن -الأمة- وكذا بعض الطقوس الانفعالية، وخاصة النوع العسكري منها. ففي مجمل بلدان العالم، ومجمل سكانها، يبلغ أن تكون الوطنية أو القومية إيماناً تشنجياً، لا يعيه المؤمنون إلا لماماً. لكن في بلد ضعيف وعلى شفا خطر، وحيث الناس ينقادون لحاكم أجنبي، يُضفي حماسة لا تضعف أبداً، حتى في البلدان التي لا مجال فيها للشعور بالدونية يرنو إلى تعويض، يكون البديل الوطني للدين، في كثير من الأحيان، ملهماً دائماً.

للديمقراطية، إن هي دفعت إلى حد أقصى، مؤمنون بقدر ما للوطنية والقومية الجامحة. إذ إنَّ الديمقراطية الثورية إيمان يتجه بأنظاره إلى الأمام. إنَّها تدعو إلى دولة مستقبلية -في هذا العالم، لا في عالم آخر- حيث تداوى كل مظالم الحاضر، وتعوّض كل المآسي، والأوَّلون يُمسون الأخيرين، وعلى العكس، حيث للكل تيجان، حيث لا تتبقى دموع، ولا من عمل في الواقع. عدا ذلك فإنها تعالج فلسفياً على نحوٍ يفوق الوطنية والقومية.

الشعار الأسمى لكل إنسان ولد بمصادفة ما، في بلد ما، أصبح بلده، يندرج تحت هذه الكلمة: (بلدي، لئن كان على صواب أو على خطأ). هكذا نرى إذن أن الديمقراطية الثورية لمن يؤمن بها بديل متميز للدين. مع ذلك لا يمكن للديمقراطية الثورية أن تقدم ما يساوي الاستعراضات العسكرية، والموسيقى المحمَّلة بتداعيات انفعالية، والأعلام والرايات التي لا تعد ولا تحصى، تؤجج المشاعر الوطنية وتبرز للعيان، ولكل مشاهد، الحضور الحقيقي للوطن.

الطقس

تشتد الحاجة إلى طقوس وشعائر وتنتشر بقوة، يتبدى ذلك في حميًا اندفاع الرجال والنساء ممن لا دين لهم، أو ينتمون إلى دين متزمت بلا طقوس، إلى تبني أي مناسبة للمشاركة في احتفالات من أي نوع كانت. من مثل الاحتفالات الليلية الغرائبية، حيث لا يكون التنكر اختيارياً، بل إلزامياً. كما أثبت الإقبال الذي يحظى به الإنشاد الجماعي أنَّ الطقس، بوصفه طقساً، هو ما يرغب فيه الجمهور.

فما دام الطقس مؤثراً، باعثاً على الانفعال، فهو حسن بذاته. لا أهمية لما يعنيه. غابت الطقوس التقليدية للديانة

وللحياة اليومية علــى نحو واسع من العالم. لكــن اختفاءهــا سبَّب الكثير مــن الأسف. فكلما سنحت الفرصة للناس، تراهم يعملون على إرضاء تعطشهم للاحتفالية، حتى حين يكون الطقس الذي يلجؤون إليه فارغاً كلياً من أي معنى.

البديل الفني

يحتل الفن مكانــة على درجة كبيرة من الأهمية في العــالم الحديث. ولا أبغي بذلك أن أستبــق أنَّ الفــن الحديث أفضل من فن الأجيال الأخرى. الواضح أنه ليس كذلك.. فكمية الفن الحديث لا نوعيته هي المهمة.

أعداد كبيرة من الناس تفوق السابق تهتم، على سبيل الوعي، بالفن بذاته ولذاته، وأولئك الذيــن يكرسون له أنفسهم وممارستهم أكبر عدداً بما يفوق أي زمن مضى. هذه الزيادة في عــدد الممارسين والهواة للفنون جميعاً لا تخلو من علاقة بنقص أعداد المؤمنين بمادة الدين. أولئك الذين لم تنل حاجاتهم الدينية القــدر المرغوب من الرضى، يقدم لهم الفن بعض السكينة الروحية.

في مختلف العصور كان الفن، ومن ضمنه الموسيقى وضروب مهمة من أصناف الأدب، في خدمة الديانة. وكانــت مهمتها الرئيسة أن تقدم للديانة الرموز المرئية أو المسموعة التي تخلــق في ذهن المتأمل تلك الأحاسيس التي يتمثل بها، في دواخله، الإله.

في زماننا صارت العناية بالفنون مستقلة، الفنون لذات الفنون، على نحو منفصل عن الدين. هذا الجمــال الفني الذي كان فيما مضى مكرساً لخدمة الإله، تمركز الآن كإله لحسابه الخاص.

هكــذا صار الفن للفن بديلاً عن الدين. ولئــن كان بديلاً فهو أبعــد ما يكون عن أن يعدّ كافياً. هذا مــا يقفز أمام بصر كل من راقــب عــادات أولئك الذين يحيــون حياة جمالية مصفّاة. فهنالك حيث يُعبَد الجمال لذاتــه كما تعبَد الربّــات، على نحو مستقل عن الأخلاق وعــن الفلسفة، ينفسح المجال لدخول أبشع أشكال الانحلال، وحياة العديد من الفنانين ما كانت قط تشكل قدوة حسنة لديانة الجمال.

ديانة الجنس

هنــاك الأنقيــاء، وهناك مــن يسميهم أحد الفلاسفة: (كلاب القمامة). بين كلاب القمامة المحدثين نجد أناساً تشكل عندهم عبادة النقــاء الجنسي بذاته بديلاً معاصراً عن الديــن. كان المتعصــب المسيحي فيما مضى يردع شهواته كلها، الشراهة والحسد. كما الزاهد، يردعها ويقمعها ظاناً أنه بفعله هذا يرضي الله.

الإنسان الحديث المنتمي إلى عصبة من المطهّريــن لا يردع نفسه عــن الجري وراء المال والنهم: همه الوحيــد حرية التصرف

الجنسي، خاصة لدى الآخرين، يعدّ نفسه في الغالب حرّ التفكير، لا تتجه حملاته ضد الفحش لاسترضاء الرب، يقودها باعتبارها حسنة بذاتها. لكن هل هي حقاً كذلك؟ في حدود هذه النقطة الوحيدة فقط، يتقبل (كلب القمامة) مُدَّعي حرية التفكير، قانون الرب، في كل ما عدا ذلك من شؤون يركن إلى فساد ذهنه الطبيعي. كان الأحرى أن يكون أكثر منطقية، وأكثر تماسكاً.

في معظم البلدان الحديثة نجد أن العقيدة التقليدية التي تدعمها هذه البلدان هي العقيدة الجنسية. هنالك ديانة مقتدرة أو بالأحرى. ديانة- كاذبة، جنسية بامتياز. لا تتباهى في واقع الأمر بمن يتبعها من أتقياء متحمسين. والمتعصبون إذا عرّفناهم بلغة بسيكولوجية، هم أناس يعوّضون بكامل وعيهم إلى حد المبالغة، عن شكوك مستترة. لو كان (لكلاب القمامة) ديانة قديمة يرضون بها، لكان من المحتمل أن يكونوا أقل إزعاجاً مما هم عليه في الوقت الراهن.

الأعمال

دهاقنة التجارة المحدثون يجهدون في إقناع الناس بقبول كون الأعمال التجارية وغير التجارية بديلاً عن الدين. ربح المال، كما يؤكدون، عمل روحاني. (النجاعة) والتعامل الشريف العادي هما خدمة تُقدّم للبشر، الأعمال عمل ربوبي رفيع، والبيت الفردي ربوبية لاحقة تتجه نحوها عبادتهم مباشرة.

القول الحق هنا هو أنّ عبادة الأعمال قد تعوضهم عن النقص في الدين القويم. لكن عدم كفايتها عميق وجذري.

إنّ الخدمات التي تقدمها الأعمال سهلة الممارسة، إذ إنّ كل مخلوق بشري يؤمن بديانة الأعمال يسعه أن يتصور أنه حقاً إنسان طيب. من هنا ينجم الرضى المرعب عن الذات والأنانية المفرطة الواعية اللذان يتصف بهما عبدة الأعمال، ديانة هي تبريرية للأغنياء ولأولئك الذين يرغبون في الثراء. إنّ دعاة هذا البديل التجاري للدين كثر، وهم مثيرو ضجيج ومدّعون. غير أنهم لن يعرفوا أبداً بطبيعة الحال، أكثر من النجاح الآني والسطحي. فالناس بحاجة إلى غذاء روحي أكثر ماهية وفحوى مما هم على تقديمه قادرون.

الغرائبيون

تتكون بعض المخلوقات البشرية بحيث إنّ أية فكرة يمكنها لديهم ارتداء صفة العقيدة الدينية. يبلغون درجة الإيمان المطلق، وغرض ذلك الإيمان يتصف بصفة مطلقة، وبذا يصبح ربانياً. إنّ العمل بموجب ذاك الإيمان، وخدمة غرضه الربوبي، ونشر الحقيقة ومحاربة النظريات الخاطئة، تصبح كلها وظائف دينية، ترجع غرائبيتهم،

وانحيازيتهم السخيفة والبربرية، إلى أنهم يعالجون فكرة ليس لها أية صلة بعقيدة دينية كما لو كانت دينية.

فيما عدا ذلك كثيراً ما نرى بين ذوي الطبائع الخاصة من لهم هوايات متلاحقة يعدّونها، الواحدة بعد الأخرى، كعقائد مطلقة ودينية، لماذا وكيف يحوّل ذوو الطباع الخاصة الآراء إلى ديانات؟ ذاك أمر غامض إلى حد ما.

إنّهم -كما يقول الفيلسوف جونغ- أناس تتجه ميولهم الروحية كاملة نحو الخارج، نحو الغرض. والغرض الذي يتركز عليه اهتمامهم هو فكرة قائمة مسبقاً، يتلمسونها بمحبة، وإيمان خاصين، حتى إنهم يُقادون إلى إنكار واع لكل شيء، ومن ضمن ذلك أناهم الذاتية.

في مرحلة لاحقة يمكن لصاحب الطبع الخاص أن يشعر بالارتياب في موضوع ما جعله في مجال المطلق. هذا الارتياب والشك يتطلب منه المزيد من المعوّضات، فينقلب الإيمان إلى تعصب، والأفكار إلى عقائد مطلقة، هي نفسها -في حالتهم- بدائل للدين. إنّ عدم كفاية هذه الأفكار لاحتلال مكان العقائد الدينية أمر واضح. وما يبقى هو أنّ ذا الطباع الخاصة يعيش حياة ضيقة، أي وبكامل معنى الكلمة، إنها حياة بلا معنى وخرقاء.

حول الخرافة

إذا كانت فرضيتنا الأصلية صحيحة، وإذا كانت الطبيعة البشرية، ظلت بلا تغيّر من الناحية الفكرية على مدى العهود التاريخية، يقع علينا توقع وجود العالم المعاصر مليئاً بالخرافات قدر ما كان العالم القديم. وذاك أنّ المعتقدات والممارسات الخرافية تمثل وجوه التعبير لعدد من الحالات الفكرية. فإذا كانت تلك الحالات الفكرية موجودة، فلا بد أن ينطبق الأمر على الممارسات والمعتقدات.

درج عصرنا على عادة أن يصف نفسه بالنيّر. من الصعوبة بمكان فهم ما يبرره- إلا إذا عُدَّ السير على طريق المعرفة ضرباً من التقدم لا تكون فيه الخرافات الفارغة، السحرية، مرتبطة بديانة ما.

كانت الكنيسة قديماً تستغل تلك العادات، وما فيها من خرافات، لتستخدمها في أغراضها الخاصة الأرفع قيمة. انقضى عصر التخريف والتشاؤم، تُعبَد الآن تحت تسمية: (جلاّب حظ): خنازير حمّالة للسعادة، صلبان نازية معقوفة، وما إلى ذلك من سخافات لا تمثل شيئاً خارج ما هي عليه.

ما من أحد يساوره شك فينسي إلى أية درجة كانت تلك الرموز تؤخذ على نحو جاد خلال فترة الحرب العالمية الأولى بشكل

خاص، وبأية قدرات كانت تنعت آنذاك، وبأية آلام ومخاوف حقيقية كانت تتسبب. في أيامنا، وبعد انقضاء الزمان، لم تعد تلك المعتقدات بالاضطرام ذاته. لكن ذلك لا يعني قط أنها قد زالت. هذا بغض النظر عن الروحانيات والإيمان بقارئات الفأل، والسحرة، كان ذلك كله موجوداً، وما يزال، قد يكون الإيمان بالأوهام الخرافية شائعاً حتى الآن، لكنه أقل انتشاراً من الماضي. انقضت أيام الخرافات، صار على المرء أن يعبر عما يخالجه بوساطة معتقدات أخرى، اتَّخذَت العُصَيَّات مكان الروحانيات لدى أناس كثر، خاصة النساء.

فالجراثيم لديهم تجسيد للشر، يحيون في الخوف منها، ويمارسون شعائر مطهِّرة معقدة لتجنُّب تأثيرها، مثل ذلك الإيمان بأيام النحس، وأماكن الشؤم بما لا يزال شائعاً بين الشعوب البدائية.

بدائل الكهنة

للكاهن وظيفة مضاعفة تتمثل في أنه بذات الوقت: «المكلف بالأمور الغامضة» وطبيب الأرواح. هذه الوظيفة صارت في العصر الحديث منتشرة بلا كهنة، لايمارسها فئات من الناس، بل العديد منهم. يظهر الكاهن حالياً بوصفه المرشد للأسرار المقدسة، ومفسّر اللغز المحيط بنا، على نحو غير متكامل، في شخص فنان.

ينسب العالم المعاصر إلى الفنانين أهمية هائلة وبلا حدود، بصفتهم فنانين، من دون أخذ جدارتهم بالحسبان. مرجع ذلك إلى أنَّ الفنان يذكِّر بتلك الحالات الانفعالية التي يشعر بها المرء في حضور فكرة الرب، هذا الرب الذي يُعزِّم عليه هو في الأغلب من مستوى أدنى بكثير.

هناك كهنة فنانون يعرفون أرباباً من مستوى أدنى، لأنهم هم أنفسهم من مستوى أدنى. مع ذلك يمكن تحميل الفنان دوراً مقدّساً، يمنحه أهمية في العالم المعاصر. فاسمه يتصدر الإعلانات بأحرف كبيرة، والصحفيون يرصدون حركاته وسكناته: مراسلون مجهولون يكاتبونه في خصوصيات حياتهم، يطلبون صوره. وحتى إنَّ العديد من الصبايا على استعداد للتدلّه به.

الكاهن مسؤول (الاعتراف) -(بالمعنى الكاثوليكي الذي هو مذهب الباحث الفيلسوف ألدوس هكسلي)- وفي الوقت ذاته مفسر ألغاز. يمكن للفنان أن يحل محله على نحو ما في ممارسة بعض وظائفه، لكن تنقصه التربية والمعرفة اللازمتان لجعل شخص ما جديراً بأن يكون رجلَ ومرشدَ الضمير، هذا الجانب من وظائفه هو ما فوّض به الكاهن رجل القانون والطبيب.

فالطبيب وخاصة اختصاصي الأمراض العصبية، يحتل مكانة عالية في عالمنا.

مقامــه كان دومــاً رفيعاً، حتــى في مراحل كانت فيهــا الأمراض الذهنية خارج مجاله، صار موضعه في العالم الحديث يوازي تقريباً موضع الساحر لدى البدائيين.

مع تراجع سلطة الكاهن، ازدادت أهمية الإنســان الجديــر بالثقة. الكاتــب بالعدل ومحامي العائلة يتحملان بالوكالة مسؤولية أفعــال موكّلهما. هم موضــع أكثر أسرارهم حميمية. يزودونهم بالنصائح، لا القضائية فحسب، بل حتى ما يخص المجال الأخلاقي، يمكن للكهنة أن يندثــروا، لكن عدد الناس الذيــن لا يــودون تحمــل نتائــج أعمالهم، ويكرهــون اتخــاذ القــرارات، ويرغبون في الانقياد، لا يقل ولا يتراجع.

ولدت شخصية مرشد الضمير من حاجة حقيقية للبشر. والطبيب ورجل القانون معاً يملآن مكانه الشاغــر في أحيان كثيرة لدى فئات من الناس.

بين الفلسفة والتصوف

عيد الدرويش *

يصعب علينا أن نضع خطاً ناظماً بين المتصوف الذي يعتمد على الإشارات وبين المنطق الذي يضعه العقل بما يسمى الفلسفة التي تدلل على القضايا بالبراهين، والأدلة العقلية، فالأوَّل يعتمد على العاطفة، أمَّا الثاني فيعتمد على العقل، فكلاهما لا ينفصلان عن حياة الإنسان، وتدل كل البحوث والدراسات التي طرقت هذا المجال بأن الفلسفة توصل إلى نهاية الطريق في العلوم بالاستناد إلى طرق العقل ومعاييره، ولكنها لا تستطيع أن تجيبك عن علوم، ومجالات أخرى في مجال التصوف وحالات الإشراق، التي لايمكن الإفصاح عنها إلا بالمجاهدة، وهي لا تخضع لمعايير محددة وطرق خاصة، ولكنها تتدرج في البحث عن الحقيقة والحياة فيها من دون آلام بدلاً من الحياة مع هذه الجوارح، وهذا ما يدفع المتصوفة، والزاهدين والنساك إلى الابتعاد عن المعاصي والأخطاء، وهذه الحالة لا يمكن الوصول إليها إلا بالمجاهدة والذوق، ويصعب على الدارس أن يطرق هذا الجانب عندما يريد البحث فيه مستنداً على الاستدلالات العقلية.

فالتصوف تجربة روحية وهذه الحالات الصوفية توجد في كل الأديان، فالمتصوفة يبحثون في أحوال العقل الواعي وفي ماهية

* أديب سوري.

الوجود وفلسفته ومحور ذلك الإرادة، وليس العقل، فقد كثرت الدراسات حول هذا المفهوم والمصطلح، وأمعن بعض الدارسين في تكوين رؤية شاملة لهذا التصوف، إلا أن أغلب الدراسات لم تصل إلى دراسة جادة تضع النقاط على الحروف من أجل تفسيرها وبيان مكوناتها في حين أن السبب يعود إلى أن لكل صوفي طريقته.

وبعضهم يضرب مثلاً: ليس في استطاعة المرء أن يشكل صورة ذهنية عن رأس له شعر، وبغير شعر في آن واحد، ويعني ذلك أن قوانين المنطق تنطبق على عالم الخيال.

وقضايا لا يقبلها العقل وفق منطقه ودلالاته، ولكنها تبقى في حرم المعقول عندما يعايشها الصوفي في حياته وسلوكه، فهل يدحض مقولة المنطق عندما لا تنطبق على كل تجربة؟ وهي بحد ذاتها مفارقة.

والمعضلة الأخرى التي تواجه الصوفي للبوح بما يشعر، ويستبصر من معايشات تعجز اللغة عن البوح بها، ولا يمكن وصفها لعجز اللغة أمامه.

وعندما يتكلم الصوفي، فهو يخضع لقواعد ودلالات اللغة، التي لا تعبر عن الصورة الحقيقية، فاللغة تجبره بألفاظها ومعاييرها، ولا يستطيع أن يجبرها، أو يعثر على الحالات الوجدانية التي عايشها.

عند ذلك لا يستطيع نقلها إلى الآخرين، وإن نقلها بهذه الصورة، فتكيفهم لها خارج المنطق والمعقول، وما نجده من إشارات لدى الصوفية فيما بين بعضهم بعضا هو أقرب لفهم تلك الحالات، ولكن بصورة مختلفة، وربما بإشارات تكون حاملاً لتلك الرسالة التي يراد البوح بها.

ويقف الصوفي عاجزاً عن الوصف لتلك المعايشات لعدم قدرة اللغة على استيعاب ذلك، وإن كان متبحراً في اللغة، فكيف لمن يجهل اللغة وقواعدها، ونراه مجسداً هذه الأسرار والألغاز في الأشعار الصوفية، والأقوال ما استطاع ذلك الصوفي أن يفصح أو يعبر عنها، وإنَّ معرفة الدلائل للتصوف هي ذاتها للمسألة الفلسفية، التي لا يمكن أن تبتعد كثيراً بما لهذين المفهومين من علاقة بعضهما ببعض.

وإن كانت النسبية تشوب بعض التفاصيل لتلك التعاريف على الواقع لمبدأ من المبادئ، أو لدين من الأديان، ولسنا أمام دين واحد، وهذه الأديان ليس كلها من وضع واحد، فمنها السماوي، ومنها الوضعي.

فالأديان السماوية التي جاءت في فترات زمنية ليست بالقليلة لتعطي الإنسان مسافات محدودة في حياته وعبادته وتعامله مع الآخرين، وأنَّ هناك عقاباً وثواباً، وهذه الديانات دخل بعضها نوع من التحريف والدس، ومن أهواء ورغبات، وميول

امتزجت فيه السلطة الدنيوية، بالأفكار الذاتية مدفوعة بالميول والدوافع، وما بقي منها يدل على عظمة هذه الأديان.

وإنَّ عظمة الخالق التي تجسدت في مخلوقاته هو ما كان يدفع ذلك الإنسان للتفكير في مظاهر الكون قبل نزول الديانات السماوية، فظهر ما يسمى بالأديان الوضعية في الحضارات القديمة، وقد تضاءل عددها اليوم، إلا بعض الديانات القديمة الكبرى التي سادت لقرون قبل الميلاد.

وكان للديانات السماوية تأثيراً كبيراً عليها، وكذلك الديانات الوضعية بحثت في الروح والبدن والأخلاق والتقاليد والآلهة، ولم تصل إلى حقائق ثابتة متسقة مع ظواهر الكون، وهذا مما عدد الآلهة، وما تمَّ ترميزه من خلال التماثيل والنصب والمعابد، وتنوع العبادات بين دين وآخر وبين فترة، وأخرى لنجد عبادة الشمس في ديانة، وعبادة الظواهر الطبيعية في ديانة أخرى ومن أكثر هذه الأديان الوضعية شهرة، الهندوسية، والبوذية والكونفوشيوسية والزرادشتية وغيرها.

إنَّ تكوين الإنسان هو من المادة والروح، والفلسفة تنظر إلى هذه المكونات بعين على المادة، وبأخرى على الروح، وإنَّ الفلاسفة الذين جنحوا إلى المادية على حساب الروحية كانوا أقرب إلى الوجودية، وإنَّ الإفراط في مسألة الروحانيات أيضاً تظهر في فلسفة التصوف، وإذا كانت الفلسفة لها نواظم في حدود العقل، فإنَّ التصوف هو خارج حدود العقل، ولكنه في حرم المعقول.

وما دامت الفلسفة لم تصل إلى حقيقة الروح ولن تصل، فإنَّ قوانين المنطق هي قوانين وعينا المألوف، وتجاربنا اليومية، فلا ينبغي تطبيقها على التجربة الصوفية، ومن السهل جداً أن نرى لماذا لا ينطبق عليها المنطق وفق قواعد المنطق الشائع؟ لأنها ليست سوى قواعد لغوية، ودلالات لفظية.

لقد تطرقت كل الفلسفات والأديان إلى إشكالية المادة والروح، وكثرت الآراء حولها، وأن الدنس يأتي من المادة والمال، وهذا ما نجده عند اليهود عندما وضعوا غايتهم المادة على حساب القيم الروحية.

وظهرت عند المسيحية الرهبنة، ومجاهدة النفس، وبعد ظهور الإسلام ظهر التصوف، فكان المغالاة في العبادة، وهجر الملذات، والميل باتجاه الروح على حساب المادة، وإنَّ تعاليم القرآن هي الاعتدالية، وليس العزوف عنها، والإبراهيمية ترى أن أفعال الخطيئة ليست من المادة لأنَّ المادة والروح مجسدة في جسد الإنسان، فيجمعان النقيضين (الخير والشر) وأن المخطئ الأول هو آدم في كل الأديان السماوية.

فاليهودية ترى الخطيئة في الجنس البشري، والمسيحية تعتبر أن الإنسان جديداً قد كفّر عن خطاياه، والمسيح جاء ليكفّر عن البشرية، ومسألة الصراع بين الخير والشر صوّرتها كل الأديان، فالصينيون كانوا يضعون على مداخل بيوتهم ديكة خشبية لتطرد الأرواح الشريرة والشياطين، لأنّ الظلام هو موطن تلك الأرواح، وهي تعالج مسألة الصراع بين النور والظلام، كما جاءت الزرادشتية تقول بأن الشر هو من صنع الشيطان، وسينتصر اهورمازدا على الشر في نهاية العالم، وهذا ما تذكره أكثر الأديان وترى الغلبة للخير.

أمّا الهندوسية فترى أن الإله فيشنو نزل من السماء تسع مرات إلى الأرض راكباً طائر الغارودا، وفي الانحدار العاشر ينزل راكباً جواداً أبيض، ويحمل سيفاً من لهب ليهلك الأشرار على هذه الأرض.

وما تذكره البوذية أيضاً، ويعتبر ذروة الصوفية لديهم الخلاص الأكبر هو الخلاص من المادة، وعدم العودة لها، وهي في البرهمية درجة النرفانا، التي تصلها النفس بتحقيق السعادة.

وكلّ الأديان كانت تؤكد على بقاء الروح بعد الموت، التي أكدتها الديانات السماوية، وقبلها الزرادشتية بشيء من الغموض، وحتى الديانات الوثنية كانت تدرك أن هناك عالماً آخر لايمكن إدراكه، وما نلاحظه عند دفن الأموات يضعون لهم الأمتعة، وبعض الحاجات من الأواني والأطعمة، والألبسة التي سادت في تلك المناطق التي كانت تدين بالوثنية ومروراً بالفراعنة في بلاد العرب وفي عصور مظلمة في الجاهلية.

إنّ الديانات الوضعية والسماوية، وبكل الصيغ المتباينة، والمفاهيم المتفاوتة، تتفق حول مسائل كثيرة منها أنّ هناك خالق لهذا الكون والعالم، وهناك حياة ثانية بعد الموت، وفيه الحساب والجزاء لما اقترفه الإنسان في حياته الأولى.

وتلونت هذه المعارف، وأشكال العبادات، فتعددت طوائف هذه العبادات بعدد أنماط معتنقيها سواء أكانت في الديانات الوضعية، أم في الديانات السماوية، وما تضفي عليه البيئة والثقافة.

وهذا ما أفرز إيحاءات للبعض منهم بإرساء عقائد التقمص حيناً وعقائد التناسخ حيناً آخر، والتي تدحضها الديانات السماوية، وكل طرف له أتباعه ومريدوه، وإن ما يهمنا في هذه الدراسة أن نتلمس شيئاً عن الشريحة التي تتميز باتصالها بالجانب الروحي، ومنها أصحاب التصوف والزهد، والذين يتساموني عن كل فعل دنيء، وهم مغالون في العبادة، وأداء الفرائض، ومن هنا نجد الفرق بين التدين والتصوف.

فالتدين هو أداء العبادة والمناسك، بينما التصوف هو إشراق في القلب، ويأتي درجة متقدمة في العبادة، وليس الاستغناء عنها.

إنَّ الإنسان الذي بدأ يحس وطأة الحياة المادية المفرطة، وحالات الفوضى على حساب القيم والمعايير الاجتماعية النبيلة، و مجموعة الأعراف، والروابط بين الفرد والمجتمع التي كان يتحلى بها، وأخذته الحياة المادية المعاصرة من حيث لا يدري، فبات فيه الإنسان بحاجة إلى تحقيق روحانيته، وفي حاجه إلى ما يرضي عقله، ويشبع روحه ويعيد إليه ثقته بنفسه، وطمأنينته التي بدأ يفقدها في زحمة الحياة المادية، وما فيها من أشكال الصراع الفكري، والعقائدي، وبهذا يحقق مع التصوف إنسانيته.

فإذا كان انخراط الإنسان في الحياة المادية بشكل كامل، وابتعاده عن الروحية سيفقده كل إنسانيته، ويجعله ينخرط في شرائح للكائنات الأخرى، وهذا ما يمكن تسميته بالتطرف، و هو الأساس في كل المشاكل الإنسانية على وجه الأرض وفي المقابل هناك المغالاة كثيراً في حالات الزهد والتصوف التي قد تكون تطرفاً عندما يصبح هذا التصوف والزهد حالة تقاعس عن العمل وانخراط في عالم الروحانيات، وهو ليس هروباً من الواقع ولا انزواء، أو خلوة فحسب، بل هو محاولة للإنسان للتسلح بقيم روحيه جديدة تعينه على مواجهة الحياة المادية، وتحقق له التوازن النفسي حتى يواجه مصاعبها ومشكلاتها.

وبهذا يصبح التصوف إيجابياً لا سلبياً، ما دام يربط بين حياة الإنسان ومجتمعه، ويوازن بين رغباته الروحية والمادية.

إنَّ محاسبة الإنسان لنفسه باستمرار لتقويم أعماله وتغذية النفس بالفضائل يجعل حياته معتدلة، فلا يتهالك على شهواتها، ولا ينغمس في أسبابها إلى الحد الذي ينسى فيه نفسه وربه، فيشقى شقاء لا حد له.

والتصوف الحقيقي ينظر إلى الحياة على أنها وسيلة وليس غاية، يأخذ منها كفايته، ولا يصبح خاضعاً لحب المال والجاه، ليستعلي بهما على الآخرين، وهو بذلك يتحرر تماماً من شهواته، على أنَّ كلمة التصوف، وإن كانت من الكلمات الشائعة التي ظهرت حديثاً، ولكنها قديمة في المضمون، وفي الوقت نفسه من الكلمات الغامضة التي تتعدد مفاهيمها وتتباين أحياناً.

وهذا المصطلح كان يعتبر قاسماً مشتركاً في كثير من الأحيان بين ديانات وفلسفات وحضارات متباينة وفي عصور مختلفة، وإننا نقول الرهبنة والغنوصية والكهنة والقديسين في الفلسفات البوذية

والهندوسية والزرادشتية، هي تسميات تدل على المغالاة في تطبيق تلك المبادئ الوضعية والسماوية في كل منهما، ونرى استحالة مطابقة تجربة لتجربة أخرى بشكل كلي في ميدان التصوف.

وإن ما نراه من اختلاف بين مناهج الصوفية، ليس بغريب، فمن الطبيعي أن يعبر كلّ صوفي عن تجربته في إطار ما يسود مجتمعه من عقائد وأفكار، وأحداث معاصرة له، ليتفاعل مع ما يسود بيئته وعصره من ازدهار، أو خمول وبذلك يكون سلوكه الصوفي ردة فعل لواقعه الذي يعيش فيه.

ومن الجدير بالذكر إنَّ التجربة الصوفية هي واحدة في جوهرها، ولكن الاختلاف بين صوفي وآخر، راجع أساساً إلى تفسير التجربة ذاتها التي يمر بها الصوفي للوصول إلى الحقيقة والكمال الروحي، تبعا للأحوال والمقامات التي يمر بها.

والتصوف أولاً وقبل كل شيء، يمثل تجربه خاصة، وليس شيئاً مشتركاً بين الناس جميعاً، ولكل صوفي طريقة خاصة في التعبير عن حالاته، فهو بعبارة أخرى يشكل خبرة ذاتية، وهذا يجعل من التصوف شيئاً قريباً إلى الفن، خصوصاً، وأنَّ أصحابه يعتمدون الأسلوب الرمزي في وصف حالاتهم.

فالتصوف الحقيقي ليس معناه هجر المال والأولاد، وتعذيب النفس والبدن بالسهر الطويل والجوع الشديد والاعتزال في البيوت المظلمة والصمت الطويل، وعدم التزوج، لأنَّ اتخاذ مثل ذلك نمطاً للحياة يعد سلوكاً سلبياً يؤدي إلى فساد التصور، واختلال التفكير الذي يترتب عليه الانطواء والبعد عن العمل الذي لا يستغني عنه أي عضو فعال في مجتمع ما، كما يؤدي بالأمة إلى الضعف والتخلي عن الدور الحضاري الذي ينتظر منها.

يتعامل الصوفي مع عصره، من خلال تفاعله مع واقعه، لذلك نرى الاختلاف الواضح بين تصوف وآخر، وعلى العكس من ذلك، من يمعن النظر في تاريخ الصوفية يلمس بوضوح مدى الإيجابية التي جاءت بها مناهج الصوفية تبعاً لبيئة الصوفي وواقعه الذي يعاصره وكان السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني يحث على طلب العلم وعدم الانقطاع عن الناس في الزوايا.

وكان الشيخ حارث بن أسد المحاسبي يقول«خيار هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم، ولا دنياهم عن آخرتهم، فهم رجال الدنيا والآخرة».

فقد وازن التصوف بين حاجات النفس ورغباتها المشروعة في إطار التوافق بين الدنيا والآخرة ذلك التوافق الذي لا يجعل مجالاً للتطرف في الزهد دونما حساب لنصيب الإنسان من الحياة الدنيا، كما

لا يدع مجالا للغرق في الشهوات الدنيوية دونما وعي بنعيم الحياة الآخرة الذي أفاض القرآن بذكره بل إن أجمل ما في الإسلام إن حق الحياة الآخرة لا يجور على حق الحياة الدنيا، وإنَّ المسلم مأمور بالسعي والعمل، والاستمتاع بما يكسبه بسعيه وعمله من نعمتها وزينتها.

إلا أنَّ الميزة الخاصة للتصوف تتعلق بالإنسان مع الخالق الذي يجد فيه المخلص، والمحرك لكل شيء، وفضول ذلك الإنسان، ودوافعه التي تدفعه للمعرفة بما وقعت عليه حواسه، أو لم تقع لأنَّ كل هذه العقول، وكل ما أنتجته لم تصل إلى معرفة حقيقة، وكلما تقدم الإنسان بعقله وروحه وقلبه، يجد أسراراً كبيرة، وكثيرة تحيط به في حياته في يقظته ومنامه، وينظر في نفسه المفارقات التي تدفعه بين الحين، والآخر إلى الاكتشاف، وإن لم يحصل ذلك برر لنفسه بالجهل، أو عدم قدرته على معرفة ذلك لقد بحث في الأرض، وفي نفسه، وفي السماء، وفي عقله وروحه وجسمه، فتزداد اللهفة أكثر.

وهذه هي الأيام، والسنون تطوى، وتغيب الروح من الجسد، فيفكر كيف نشأ وكيف مات، وتتسق هناك معايير لمن أوتوا العلم، وتوصلوا إلى نفحات في الحب الإلهي، وتختلف المذاهب، والرؤى حول التسمية، ومدى المصداقية فيها، لأن تناولها وفق معايير تختلف من معيار لآخر، ولكنها تتوحد في صيغة واحدة هي السعادة الأبدية التي يبحث عنها الإنسان في حياته، ولتبقى هاجسه الدائم في هذا المجال، وعن علم الخلود، فهل يتساوى من يبحث في عالم المعقول، ومن يبحث الغيبيات، ولكن قد يختلفون في التسمية، وعالم التحليل الرياضي والفيزيائي، وربما تصل هذه المنظومة إلى أن كل ما يدور في هذا الكون يشكل دلالة على أن هناك محركاً وجوهراً لهذا الكون، وهذه هي الصيرورة التي سار عليها الإنسان منذ القديم مروراً بكل الفلسفات، والآراء والأفكار وصولاً إلى ما نحن فيه، ولكن وجه الاختلاف بينها بأن كل فترة متقدمة على الأخرى لما أثرى فيه العقل البشري من هذه النظريات والأفكار، وعلى أي حال منهم علماء كل في مجاله، وهم أيضاً فلاسفة، لأنهم قدموا أشياء تضاف إلى حركة الوعي الإنساني، و هم متصوفة في بحثهم عن الحقيقة، والابتعاد عن الملذات، ولكن بدرجات متفاوتة.

ومن يعتنق الدين بشكل، أو بآخر هم متصوفة، وإن الولوج في عالم المتصوفة، يجعلنا أكثر دراية بالعلوم التي يعايشونها، أو بعالمهم الروحي، ولكن لمعرفة هذا الجانب يجب المعرفة المسبقة عن أخلاقية، ومبادئ

هـذه الشريحة التي يمكـن أن نطلق عليها المتصوفـة في الأديان وفق نمـاذج وأشكال وأطياف.

والباحث لا بد له إلا أن يعرف شيئاً عن التصـوف، وإن كان قـد عايش هذه الحالة بنسبيتهـا مـا دام هو يشترك مـع الوجود بصفتـه الإنسانية، وإذا كان ذلك في المساق ذاتـه، فكيف يمكـن أن تضع خطـاً ناظماً بين المتصـوف الذي يعتمد علـى العاطفة والإشارات، وبـين المنطق الذي يتبع العقل؟ أو ما يسمى بالفلسفة، لأنَّ صاحب الفلسفة سيدلـل علـى القضايا والبراهـين والأدلة العقليـة، وفق منهجية المنطق، ووازع صوفي عبر عاطفته، لأنَّ العاطفة لا يمكن أن تنفصل عن الإنسان، وتدل كل البحوث التي طرقت هـذا المجال بـأنَّ غاية الفلسفـة إيصالك إلى نهايـة الطريق في العلـوم بالاستناد إلى طرق العقـل ومعاييره، ولكنهـا لا تستطيع أن تجيبك على مسائـل أخرى خارج نطاق الدلائل والقواعد العقلية.

ولأنَّ هـذا مجـال التصـوف، وحالات الإشـراق للمتصوفة التي لا يمكن الإفصاح عنها إلا بالمجاهـدة، وتبقى حالة خاصة لا تخضع لأية معايـير أو طرق، ولكنها تتدرج في البحـث عن الحقيقة، والحياة فيها بدلا من البحث عن الحياة مع الجوارح.

فـإدراك المتصـوف للحقيقـة المطلقة يجعله يخلو بها بعيداً عن الآثام، والأخطاء، واقتراف المعاصـي، فالحالـة الصوفية لا يمكـن الوصـول إليها بالتعلم بـل بحالات الـذوق، وعلـى الدارس لهـذا الجانب أن يبدأ البحـث في الاستدلالات العقلية ضمن منظومة الفكر، ولن يحقق الغاية التي يطمع إليهـا، ولكـن عندما يعايش هـذه الحالة، أو ربمـا ينتابه نوع من ذلـك الشعور، فإنه يستطيـع أن يحقق ما يريد بقدر ولوجه في معايشة ذلك، وهذا ما يؤكده الإمام الغزالي «بـأن التصوف تجربة روحيـة» وبأنه شيء مختلـف تمام الاختلاف عن الفلسفة والعلم ولا يكتسب بهما، ولا يستند إليهما.

إلا أننا يمكن أن نعرج، ولو بشكل بسيط علـى ذلك لـما تقدم من القـول، وربما أنَّ الحالـة الصوفية للمتصوفـة لا يعرفها إلا من يخالجه هذا الشعـور، أو قد أسهب في تلك الدراسات، أن الحالات الصوفية في كل الأديان، وفي جوهرهـا تبحث عن الحقيقة المطلقة، وإلا كيف نقرأ أشعار ابن الفارض، وأقـوال وحكم المتصوفـة، التي تشترك مع الفلاسفة في ماهية الوجود وفلسفته الذين يبحثون في أحوال العقل الواعي، والتصوف يتعـدى ذلك، وتتعلق بالعقل الباطن، وتتعلق

بالنشاط الروحي، والاتصال بالإرادة اللامتناهية، أو بما يسمى الفناء في الله محورها الإرادة، وليس العقل، وهل يستطيع الإنسان أن يعيش، أو أن يدرك من دون ذلك العقل؟ وهذا ما يذكره ابن عربي في فصوص الحكم «بأن من أراد العثور على الحكمة، فلينزل عن حكم عقله إلى شهوته، ويكون حيوانا ناطقا حتى يكشفه ما تكشفه كل دابة ماعدا الثقلين عندئذ يعلم أنه قد تحقق بحيوانيته، وعلامته علامتان الواحدة هذا الكشف، والعلامة الثانية الخرس، بحيث أنه لو أراد النطق بما رآه لم يقدر».

نظريات الضبط الاجتماعي وتحقيق منظومة الأمن

○
محمد علي درويش

يمثل الضبط الاجتماعي منظومة الخطوات الإجرائية التي يقوم بها المجتمع عن طريق مختلف مؤسساته بهدف جعل أفراد المجتمع يتصرفون بشكل طبيعي ويسلكون السلوك السوي بعيداً عن طريق الانحراف. ويسعى الضبط الاجتماعي إلى جعل أفراد المجتمع أكثر

توافقاً وتكيُّفاً مع نظم وقواعد المجتمع وقيمه ومعاييره وأنشطته الشرعية (التوافق والارتباط بالمجتمع) بهدف وقايتهم ومنعهم من الاتجاه نحو السلوك الانحرافي.

أهمية الضبط الاجتماعي

يعدّ الضبط الاجتماعي أحد الطرق التي يتبعها المجتمع تجاه أفراده لضبط سلوكهم وتصرفاتهم، وامتثالهم لنظم المجتمع وقيمه وعاداته وتقاليده وابتعادهم عن أنماط السلوك الانحرافي، واتباع السلوك السوي، ويشار إلى أنّ الضبط الاجتماعي أو الرقابة الاجتماعية كما يطلق عليها أحياناً ابن خلدون هي جميع الجهود والإجراءات التي يتخذها المجتمع أو جزء من هذا المجتمع لحمل الأفراد على السير على المستوى العادي المألوف المصطلح عليه من الجماعة من دون انحراف أو اعتداء.

○ باحث وأديب سوري.

وقد فطن ابن خلدون في مقدمته لأهمية الضبط الاجتماعي، وأنّه أساس الحياة الاجتماعية وضمان لأمنها واستمرار لبقائها. حيث إن الضبط الاجتماعي هو القوة التي يمتثل الأفراد لنظم المجتمع الذي يعيشون فيه وتختلف وسائل الضبط تبعاً لاختلاف المجتمعات بل وأحياناً في المجتمع نفسه تبعاً لاختلاف الزمان ويكاد يجمع علماء الاجتماع على أنّ الضبط الاجتماعي هو العملية الاضطرادية التي بها يمتثل الأفراد لمعايير المجتمع ونظمه المختلفة والموقوفة على طبيعة البناء الاجتماعي ذاته ويتم ذلك في ضوء ما يتلقاه الفرد من الجماعات التي ينتمي إليها حيث إنها تعبر عن أنماط السلوك السائد في المجتمع.

ويعتبر الضبط الاجتماعي من أقدم المفاهيم في علم الاجتماع، فمنذ رسالة إدوار أ.روس التي تناولت هذا الموضوع في أواخر القرن التاسع عشر نجد أنّ الضبط الاجتماعي ظل حيّاً في علم الاجتماع وعلم الإجرام.

ونجد أنّ الضبط الاجتماعي يشير إلى قدرة المجتمع على تنظيم نفسه، وتأتي أهمية الضبط الاجتماعي نظراً لما يترتب عليه من جعل الأفراد يلتزمون بالسلوك السوي، بعيداً عن طريق الانحراف ما يجعل المجتمع أكثر تماسكاً ويسوده الأمن والاستقرار.

فالضبط الاجتماعي هو الرقابة التي تمليها النظم والمنظمات على الأفراد والجماعات وتحاول بها وعن طريقها أن توجه وتضبط وتقوم سلوكهم كي يسير في الخط الصحيح متجنباً أي انحراف، وهو الأدوات والوسائل التي يحاول بها المجتمع ضبط سلوك أفراده منعاً لانحرافهم، حتى تستطيع الجماعة الوصول إلى أهدافها محافظة في الوقت نفسه على تماسكها ووحدتها وكيانها. والضبط الاجتماعي هو القوة والسلطة التي يمارسها المجتمع على أفراده، والطريقة التي يسلكها للإشراف والهيمنة على سلوكهم، وذلك لضمان سلامة البناء الاجتماعي والبعد عن مهالك الانحراف.

نظريات الضبط الاجتماعي

توجد مجموعة من الفرضيات والقضايا النظرية التي طرحها بعض العلماء، وهي تسعى لتفسير الضبط الاجتماعي والعوامل التي تؤدي لزيادة فعاليته داخل المجتمع بهدف الحفاظ على نظمه والتعرف على العوامل التي تؤدي إلى الانحراف. وتهتم نظرية الاحتواء التي قدمها ريكليس بالإشارة إلى أنّ الإنسان يتجه للانحراف بفعل القوى السيكولوجية.

ولوقاية الأفراد من الانحراف تأتي أهمية تدعيم عناصر الاحتواء الداخلي

للأفراد حيث يوضح ريكليس في نظرية الاحتواء رؤيته لنظرية الضبط حيث يرى أنه من ناحية علم الاجتماع والفطرة السليمة أنّ الفرد مدفوع للانحراف بوساطة قوى خارجية أو اجتماعية مثل الفقر أو الحرمان أو الصراع، والمداخل المحدودة المتاحة للنجاح في هيكل يعتمد على الفرص، إضافة لأنماط الانحراف وحاملي الأنماط الإجرامية والإنحرافية، والثقافة الفرعية للجناح وغيرها.

ومن ناحية علم النفس والفطرة السليمة يرى ريكليس أنّ الفرد يندفع نحو الانحراف بوساطة قوة داخلية أو سيكولوجية كالدوافع والإحباطات والقلق وخيبة الأمل والعصيان والعداء ومشاعر النقص وأنّ وقوع الناس في أفخاخ هذه القوى الداخلية والخارجية قد ولّد عندهم ميلاً قوياً لخرق الأعراف الاجتماعية وانتهاكها.

ولقد قام ريكليس وزملاؤه بدراسة لمجموعتين من الأولاد الأسوياء وتبين أنّ كل الأدلة والقرائن تشير إلى أنّ الأولاد الأسوياء كان لديهم احتواء داخلي قوي مثل الإدراك الإيجابي للذات والإحساس الكافي بالمسؤولية في حين أنّ الأولاد الجانحين كان الاحتواء الداخلي لديهم ضعيفاً مثل الإدراك السلبي للذات والإحساس غير الكافي بالمسؤولية، علاوة على أنّ هناك بعض الدلائل تشير إلى أنّ الأولاد الأسوياء كانوا في حماية ووقاية من الجناح بوساطة عناصر الاحتواء الخارجي القوي مثل الإشراف التربوي اللصيق لأنشطة الأولاد وصداقاتهم، في حين أنّ الأولاد الجانحين كانت عناصر الاحتواء الخارجي ضعيفة مثل نقص الإشراف التربوي.

وقد أوضح كل من جونفريدسون وهيرشي أنّ السبب الرئيس وراء انعدام انخفاض الضبط الذاتي هو الأبوة غير الفعّالة. ويعترف كل من جونفريدسون وهيرشي بأنّ المدارس ومؤسسات التنشئة الاجتماعية الأخرى (الزواج، العمل، والكشافة.. وغير ذلك) قد يكون لها تأثيرات إيجابية على الضبط الذاتي للشخص ولكن كلما تحرك الفرد أبعد من مرحلة الطفولة المبكرة، ازدادت صعوبة الموقف لتعويض أوجه النقص المبكرة.

وبالنسبة للضبط الاجتماعي يشير إيفان ناي إلى أنّ وجود ثلاث قوى تدفعنا للانحراف، ولكنه قسّم الضبط الاجتماعي إلى الضبط الداخلي ممثلاً في الضمير الشخصي للإنسان، والضبط غير المباشر الذي ينتج من تطور عاطفة الشخص واحترامه لوالديه، والضبط المباشر الذي تمارسه مؤسسات المجتمع الرسمية وغير الرسمية وإشباع الحاجات الشرعية

كمدخل لتوفير الآمال ووقاية الشخص من الانحراف.

ويفترض إيفان ناي أنَّ هناك ثلاثة طرق تدفعنا نحو الانحراف ويعتمد على السلوكية الفرويدية ويرى أنَّ لدينا جميعاً الميل والاستعداد الطبيعي للتصرف كالحيوان بكسر كل القواعد والأعراف الاجتماعية وأنَّ المجتمع يستخدم الضبط الاجتماعي حتى نصبح مواطنين نلتزم بالقانون وأنَّ الضبط الاجتماعي ينظر إليه على أنه يمنعنا من الانحراف ويضمن توافقنا، ويقسِّم «ناي» الضبط الاجتماعي إلى أربعة أقسام:

١- **الضبط الداخلي**: فالمجتمع يضفي على الطفل الطابع الاجتماعي بمده بالقيم والأعراف، حتى يتكوّن لديه الضمير كضابط داخلي يمنع الشخص من الانغماس في الانحراف.

٢- **الضبط غير المباشر**: حيث أن تطور العاطفة والاحترام داخل الطفل نحو الوالدين يقوم بدور الضبط غير المباشر.

٣- **الضبط المباشر**: حيث يعتمد المجتمع على الشرطة والآباء والأصدقاء والجماعات الأخرى لفرض الضبط المباشر على الفرد ويتضمن الضبط المباشر استخدام السخرية والنبذ والأشكال الأخرى للعقاب.

٤- **إشباع الحاجة الشرعية**: فتوفير وإشباع حاجات الفرد من العاطفة والاعتراف والأمان بأسلوب شرعي يقي الفرد من أنشطة الانحراف. بخصوص الأسرة وسلوك العنف يتضح أن غياب الوالدين لمدة طويلة عن المنزل يؤدي إلى ظهور سلوك العنف بين الشباب وقد يرجع ذلك إلى أنَّ غياب الوالدين عن المنزل يؤدي إلى انعدام الضبط وعدم امتثال الأبناء للمعايير الاجتماعية، وتوضح نظرية الضبط الاجتماعي أنَّ الأسرة تعتبر من أهم مصادر الضبط الاجتماعي لذلك فإن تغيب الآباء عن الأسرة يؤدي إلى ضعف القيود على الأبناء وعدم تعلمهم الطاعة والامتثال للأمر الذي يؤدي إلى عدم ضبط سلوكهم.

وبخصوص الارتباط بالمجتمع يوضِّح هيرشي أن الارتباط القوي للشخص يقيه من الانحراف. وعرض أربع طرق لهذا الارتباط وهي: الارتباط بالأشخاص والهيئات التقليدية، والالتزام بالتوافق، والانضمام إلى أنشطة اجتماعية، والإيمان بالصلاحية الأخلاقية للقواعد الاجتماعية.

ويرى هيرشي أن ارتباطنا القوي بالمجتمع يؤكد توافقنا وبالعكس فلو كان ارتباطنا بالمجتمع ضعيفاً أو منهاراً فإننا سوف نرتكب أفعالاً جانحة، ويطرح هيرشي أربع طرق لهذا الارتباط:

١- **الارتباط بالأشخاص والهيئات التقليدية**: فالأحداث يظهرون الارتباط عن

طريق حب واحترام آبائهم وعمل صداقات مع نظرائهم وحب المدرسة والعمل بدأب من أجل تنمية مهاراتهم الفكرية.

٢- **الالتزام بالتوافق:** فالأشخاص يستثمرون أوقاتهم في أنماط اجتماعية سلوكية مثل الحصول على وظيفة وتنمية مهارات وظيفية، وتحسين وضع مهني والقيام بعمل أو الحصول على سمعة فاضلة ويظهر التزام الأشخاص من خلال هذه الأنشطة.

٣- **الانضمام إلى أنشطة اجتماعية:** حيث يشغل الأفراد أنفسهم بعمل أمور اجتماعية (تقليدية) لدرجة أنه لا يصبح لديهم وقت للاشتراك في أنشطة منحرفة أو حتى التفكير في ذلك.

٤- **الإيمان بالصلاحية الأخلاقية للقواعد الاجتماعية:** فالأفراد لديهم اعتقاد أخلاقي قوي بأنه يجب أن يطيعوا القواعد العرفية للمجتمع، وإذا كانت هذه العناصر الأربعة قوية فإنَّ الفرد سوف يزداد ارتباطه بالتوافق وإذا ضعفت فسوف تزداد فرصة جنوحه وانحرافه. وبالنسبة لمذاهب الردع تفترض الصورة القديمة لنظرية الضبط أنَّ البشر عقلانيون بشكل أساسي ومعتادون على حساب الفائدة وتكلفة ارتكاب جريمة ما، فإذا وجدوا أنَّ التكلفة أعلى من الفائدة سوف يمتنعون عن ارتكاب الجريمة، والتكلفة وفقاً لمذهب الردع هي العقاب القانوني مثل القبض على الجاني أو المقاضاة أو الحبس أو الإعدام فالعقاب يردع الجريمة ونقص العقاب يشجع على ارتكابها.

خلاصة القول: إنَّ جميع نظريات الضبط الاجتماعي تقترح شكلاً ما من الضبط يمنع الناس من ارتكاب أفعال جانحة، وأن نقص هذا الشكل يساعد الناس على ارتكاب الجرائم، وتختلف النظريات فيما يتعلق بنمط الضبط المطلوب لمنع الانحراف فهم يقدمون أنماطاً عديدة من الضبط مثل الاحتواء والضبط الاجتماعي والارتباط بالمجتمع والعقاب القانوني. مما سبق تتضح أهمية الضبط الاجتماعي وما يترتب عليه من الحفاظ على النظام الاجتماعي للمجتمع ومؤسساته ووقاية الأفراد من السلوك الانحرافي مما يحقق للمجتمع الأمن والطمأنينة والاستقرار.

«جون كيتس».. والبحث في مأسي الوجود الإنساني

بقلم: موريل إندرسون
ترجمة: رافع شاهين ✪

«الجمال هو الحقيقة، والحقيقة هي الجمال.. وهذا كل ما تعرفه على الأرض، وكل ما أنت بحاجة لمعرفته..»، هكذا يعبر الشاعر الإنكليزي «جون كيتس» أحد رموز المدرسة الرومانسية الخالدين، عن خلاصة فلسفته الشعرية في نهاية إحدى أعظم قصائده «أغنية حول جرة أفريقية».. فالجمال بكل دقائقه وسماته ومفرداته هو القيمة الأولى والهدف الأسمى لكيتس، وهو الموضوع الأساسي الذي يتمحور حوله معظم قصائده. وقد انطلق كيتس في رؤيته الفنية المتميزة هذه من اعتبار ضرورة أن يكون الشعر جميلاً.. وأن تكون القصيدة غاية في حدّ ذاتها وليس مجرد أداة تعبير عن مكنونات الشاعر.

والمتأمل لحياة هذا الشاعر، الذي يحمل بجدارة لقب «أمير الشعراء الإنكليز»، سوف يشعر لأول وهلة أنه أمام شخصية مليئة بالحزن والشجن والعواطف الجياشة والأحاسيس المرهفة، وصاحب شخصية كهذه لابد وأن يعاني في حياته وألا يصمد طويلاً أمام المحن والصعاب.. وكم كانت الحياة قاسية على شاعر بهذه الأحاسيس والمشاعر الأكثر رقة وشفافية.

✪ أديب ومترجم سوري.

رسائل ذاتية

في خطاب له كتبه في تشرين الأول ١٨١٨م، يعترف كيتس بأنه شاعر بلا ذاتية، حيث يقول فيه: «إن الشخصية الشاعرية ليست ذاتها.. إنها لا ذات لها.. إنها كل شيء.

الشاعر أقل الموضوعات الشعرية في هذا الوجود.. إنه ليس له ذات. إنه لايفتأ يبرز شيئاً ويملؤه. شيئا كالشمس أو القمر.. ألا تعساً لي إن اضطررت إلى الاعتراف، ولكنها الحقيقة في صميمها، فليست هناك كلمة واحدة أقولها ويمكن اعتبارها رأياً نابعاً من طبيعتي الذاتية. وكيف يكون ذلك وأنا لا طبيعة لي!..».

وقد أرسل كيتس في آب ١٨٢٠م رسالة مختصرة إلى الرسام «بنجامين روبرت هايدون» واعداً إياه بإعادة النسخة من قصيدة «هومر» التي ترجمها «تشيمان» خلال بضعة أيام. وفي حقيقة الأمر فقد أضاع كيتس تلك النسخة.

وقد أدى إلحاح «هايدون» على إعادتها لإصابة كيتس بآلام كبيرة وذلك أثناء محاولة تدبر إعادة نسخة بديلة عنها. هذه الآلام كان مبعثها معرفة «هايدون» التامة بمرض وعزلة كيتس المنزلية. وعلى الرغم من ذلك تعامل كيتس مع صديقه المتعب بكل رحابة صدر، فقد كتب إليه يقول: «أنا مسرور لسماعي عن تقدمك في رسم لوحة أخرى.. استمر، فأنا أخشى أن أموت في اللحظة التي يكون فيها عقلي قادراً على العمل لوحده».

وهناك تناظر مخيف في هذه العبارة، فهناك إحساس أنه، وبشكل دقيق، أصبح قادراً على الموت بسبب تطور عقله إلى درجة كونه قادراً على العمل لوحده.. فهو يرغب بالموت لأنه أنجز عمله.

وقد كتب كيتس قبل عام من هذه الرسالة إلى صديقه «جون هاملتون رينولدز» قائلاً: «إن الروح عالم ذاتها وتملك ما يكفي لتقوم به في مستقرها». ويعتقد العديد من النقاد أن عمل حياة كيتس الحقيقي هو عمل حياة.. عمل يصفه كيتس نفسه باعتباره «وادي صنع الروح». وقد عبر عن هذا الاعتقاد بقوله: «إن الشؤم الشائع لهذا العالم هو وادي الدموع. وإذا أردنا أن نتعافى من هذا الشؤم الشائع عن طريق تدخل اعتباطي، فنغادره إلى السماء، أو إلى الغيب، فإن ذلك لا يعدو أن يكون توجها هروبياً ضيقاً. سُمِّيَ العالم» وادي صنع الروح «لو شئت.. ومن ثم ستكتشف فائدة العالم. ألا ترى كم هو ضروري عالم الآلام والمشكلات مَنْ أحلَّ ترويض الفكر وجعله روحا؟».

إنَّ كل شيء حول كيتس تقريبا يتصف بالتوهّج والرشاقة والنشاط. وفي هذا الإطار يقول كيتس عن نفسه: «إذا لم أكن

أعمل فكرياً أو جسدياً فأنا أتألم». وقد كتب كيتس جميع قصائده تقريبا التي اشتهر بها في غضون أقل من سنتين بين شباط ١٨١٨م وتشرين الأول ١٨١٩م.

وتعتبر قصيدة «إلى الخريف» من أجمل اللوحات الشعرية في وصف جمال الطبيعة والتعبير عن ثنائياتها بشكل رقيق وشفاف. فجمال الخريف كما يراه كيتس يكمن في حقيقة أنه على وشك الزوال. ونحن كبشر نتوق للكمال، والخلود.. ولكن ما أن نقترب من ذلك حتى تتم الغلبة للفناء. وقد رأى العديد من النقاد أن هذه القصيدة تحمل طابع النبوءة.. ذلك أن كيتس نفسه توفي بالسل، وكأنه في وصفه لتجدد الطبيعة في دورتها الفصلية كان يتنبأ بموته. والسؤال الذي يطرحه الدارسون والنقاد حول أعمال هذا الأديب (الشاعر-الكاتب): لماذا يعترف شاعر كبير كهذا بانعدام الذاتية؟.. وما هي الدوافع والأسباب التي دعته إلى ذلك؟.

حياة زاخرة بالمآسي

ولكي نجيب على هذا التساؤل، ومتفرعاته الأخرى، ينبغي علينا -لكي نكون موضوعيين- أن نتتبع حياة الشاعر نفسه.. فقد كانت حياة كيتس قاسية وشاقة، ولذلك فإن قراره أن يصبح شاعراً يبدو متسماً بكثير من الشجاعة.

ولد كيتس في الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول عام ١٧٩٥م، وكان الابن الأكبر لرجل يعمل حارسا لإسطبل خيل في لندن. التحق كيتس بالمدرسة في طفولته، وهناك التقى بأول شخص وجهه إلى الاهتمام بالأدب، وهو كمعلمه في المدرسة «تشارلز كلارك». وكان كلارك يقوم بالتدريس في هذه المدرسة. وعندما بلغ كيتس الخامسة عشرة من عمره توفي والده.. ثم توفيت والدته التي كان يحبها كثيراً. ونراه يخاطبها في إحدى قصائده:

آه يا أمي،
اسمعيني قبل أن أموت
فإيقاع صوتي يذهب مع غبار الريح
ومفردات أيامي تتحول إلى عواء ذئب..
وأحلامي تصير رغبات طير في الأسر
لا يملك قدره.. سوى أوهام مستحيلة،
وبدونك ينتفي معنى وجودي واستمراري
وإيقاع حياتي..

وقد وجد كيتس نفسه بعد وفاة والديه مسؤولا عن رعاية أشقائه تحت رعاية وصي، والذي أخرجه من المدرسة وألحقه بعيادة أحد الأطباء الجراحين في مدينة «إنفيلد» لكي يتمكن من كسب معاشه. ولكنه سرعان ما ترك العمل في مجال الطب. ومن خلال صديقه وأستاذه «تشارلز كلارك» يبدأ كيتس حياته الأدبية، حيث يوفر له صديقه وأستاذه كل ما يحتاج إليه من كتب ومراجع.. وقد

أتاح له، باستمرار، فرصة الاطلاع والقراءة في مكتبته الخاصة.

وفي عام ١٨١٦م، ومن خلال كلارك، يتعرف كيتس إلى «لاي هانت» المحرر الأدبي بصحيفة «الإغزاميـنر» في لندن، والذي قام بتقديمه إلى «وردز ورث» و«كولرديج» و«شيللي» و«لامب» وغيرهم من شعراء المدرسة الرومانسية، والتي أصبح كيتس من أبرز أعضائها وأحد أقطابها الكبار. وفي عام ١٨١٧م نشر كيتس أول كتاب له بعنوان «قصائد»، ثم يبدأ بكتابة قصائده القصصية «انديميون» والتي نشرها في عام ١٨١٨م، والتي حققت بتراثها اللغوي وزخرفتها بداية شهرته، مع أنها قوبلت في البداية بنقد قاس من معظم الكتاب. ولكن بالرغم من ذلك فقد كان كيتس يبشر بموهبة عظيمة في مجال الكتابة الأدبية والشعرية.

غير أن قسوة الحياة لم تتركه يهنأ بهذا النجاح المبكر، فقد كانت مسؤولياته رعاية أسرة بأكملها جاثمة فوق كاهله تحاصره من كل الجهات. فقد شهدت الفترة ١٨١٨-١٨١٩م أحداثاً مأساوية تركت آثارها على كيتس، الذي كان قد تيتم في الخامسة عشرة. فقد كان حبه لأخويه (جورج وتوم) يحمل في طياته عاطفة النساء. وقد فقد كلاهما عام ١٨١٨م، فقد هاجر «جورج» إلى أمريكا في حزيران من العام نفسه، وتوفي «توم» بين يديه بمرض السل، وهو في التاسعة عشرة. وفي العام نفسه، بعد سفر جورج، التقى كيتس في أسكتلندا «فاني براون» والتي غدت حبه العظيم، فقد وصفها في الخطاب نفسه الذي أرسله إلى أخيه «جورج»، ناعياً فيه موت شقيقه الآخر «توم» قائلاً: «أعتقد أنها جميلة، أنيقة، لبقة، مع أنها سخيفة تهتم بثيابها كثيراً، وغريبة، نتبادل الشجار بين الحين والآخر، وهي تتعامل معي الآن بطريقة أفضل».

غير أن صراعه الداخلي الذي أيقظته استجابته العاطفية لتلك الفتاة غلبه التشاؤم بعد ذلك، خصوصاً وقد أظهرت له الصد وقابلت حبه بالرفض والاعتراض، وهو ما عبر عنه في خطاب كتبه لشقيقه «جورج» جاء فيه: «آمل أن لا أتزوج أبداً.. إن زئير الريح هي زوجتي.. والنجوم تبدو من زجاج النافذة هم أولادي».

إلا أن كيتس الذي وقع، على الرغم من نفسه، في حب أعنف قلب غر، زاد من مآسيه وشقائه، وكان له أبعد الأثر في تكثيف أحاسيس لم يعرف من قبل، وقد كتب يصف حاله آنذاك قائلاً: «كم أتمنى لو كنا فراشتين وعشنا معاً ثلاثة أيام صيفية.. ثلاثة من تلك الأيام معك أستطيع أن أشعر بسعادة أكثر مما يمكن أن تضمه خمسون سنة عادية..».

إلا أن الزواج الذي كان القدر المحتوم لذلك الحب، جلب له تهديد الملل والخلافات. يقول كيتس: «أترتجف من الأعباء المنزلية.. ومع ذلك، ومن أجلك سوف أُلبيها لك.. ينبغي علينا تحقيق ما يدعوه الآخرون بالاستقرار.. مهما كلف الأمر».

وقد افترض جورج الذي كان يجهل حب شقيقه لفاني أن كيتس، كرجل أعزب، كان لديه حاجة للمال أقل من حاجته لزوجة وطفل، وقد سأله فيما إذا كان يحتاج لمساعدة مالية بدا كيتس أنه لن يملك الوسائل اللازمة ليتمكن من الزواج. وفي صيف ١٨١٩م وجد نفسه أمام خيارين صعبين، فإما إعادة إحياء وظيفته الطبية كجراح، أو أن يعيش حياةً شديدة الاضطراب، وحيداً مع الشعر، كان كيتس يستطيع الاستمرار في الحياة ماليا، لذلك فقد ابتعد عن «فاني» ولندن لمدة خمسة عشر أسبوعاً بين أواخر شهر حزيران وأوائل شهر تشرين الأول من تلك السنة التي أمضاها في جزيرة «ويت»، ومن ثم في «ونشستر». ويبدو أنه تساءل مع نفسه فيما إذا كان استمرار إبداعه الشعري يتطلب غياب «فاني»، ففي رسائله تتوضح مقاومته لحبه الجديد، فيقول: «لا شيء يثير في نفسي بقوة إحساس السخافة مثل الحب.. وأنا على حد سواء أكره تفضيل حب امرأة.. وكلاهما قيود تحد من أجنحة الاستقلال». وفي أيلول قام كيتس بزيارة قصيرة إلى لندن، إلا أنه تجنب خلالها لقاء فاني فيقول: «أشعر أنها ليست مجرد زيارة بل مغامرة في قلب النار.. أنا جبان.. لا أستطيع تحمل كوني سعيداً».

قصائد متميزة

وفي ذلك الشهر كتب كيتس قصيدته الشهيرة «إلى الخريف». وقد وصف كيتس نفسه في تموز ١٨١٩م كما لو أنه في حالة من «الارتداد الطوري»، فيقول: «لقد تبدلت، ليس من شرنقة إلى فراشة، ولكن على العكس، فبحوزتي ثقبان صغيران أستطيع منهما النظر خارجاً إلى منصة العالم».

والفراشة -لدى كيتس- هي رمز الروح، إلا أن هذا الشاعر عرف جيدا أن الطريقة الوحيدة لصنع الروح في هذا العالم ليست عن طريق السمو فوقها.. بل في العيش فيها.. وغالباً في الظلام. ولقد كانت تلك الأشهر هي الفترة الأغزر في حياته لكتابة قصائده الرائعة، فقد كتب لفاني خلالها عدة قصائد، منها «إلى فاني» و«نجم لامع».

وبالرغم من كل تلك المآسي واضطراب الحياة، إلا أن كيتس لم يفكر إلا في الكتابة الشعرية، فقد أصدر في العامين التاليين كل قصائده الشهيرة، منها «سيدة جميلة من دون رحمة»، «إلى القدر اليوناني»، «إلى عندليب»، «ليلة عيد القديس أجنس»، «غيزابيلا»، «هيبريون».

حياة قصيرة

وفي عام ١٨٢١م اشتد المرض على الشاعر، وكان في ذلك الوقت في روما مع صديقه «جوزيف سيفرن»، حيث توفي هناك، في شباط عام ١٨٢١م، بعد حياة قصيرة حافلة بالعطاء والإبداع، ودفن في المقبرة البروتستانتية بروما. ولكن على الرغم من أنه توفي وهو في الخامسة والعشرين، إلا أن الشاعر والناقد «ماثيو أرنولد» يضعه مع شكسبير. كما أن صديقه «شيللي»، وهو أيضاً أحد روَّاد المدرسة الرومانسية كتب مرثية عنه تخيل فيها روح كيتس:

السلام ... السلام

إنه ليس ميتا ...

إنه لا ينام

فقد استيقظ من حلم الحياة

لقد كانت حياة بالرغم من قصرها زاخرة بالإبداع. ومما لا شك فيه أن وفاته المبكرة، في الوقت الذي كان إنتاجه الأدبي قد بدأ يتطور بشكل هام، هو قمة المأساة.

وقد تميز كيتس بأنه أول كاتب يقرر أن يصبح شاعراً لم يشغل أية وظيفة، فقد ركز كل نشاطه في الكتابة الأدبية منذ اللحظة التي شب فيها.. ولقد كان يعتقد أن الشاعر لا يستطيع الكتابة إلا إذا كان في حالة استرخاء. وقد تميزت أشعار كيتس بالثراء والزخرفة والكآبة والنبرة الحزينة، فنراه في قصيدة «إلى العندليب» يقول: «لا أستطيع أن أرى الزهور الجميلة عند قدمي، ولا الأريج العطري الذي يرفرف فوق الأغصان».

وأخيراً.. فإن الحياة المأساوية لهذا الشاعر المبدع، كانت سبباً رئيسياً في اعترافه بانعدام الذاتية.. أمَّا المآسي والفواجع والنكبات الشخصية التي ملأت قلبه بالحزن والكآبة ونفسه بالحيرة والقلق، وأحاسيسه بالشجن والمعاناة، فقد فجرت في أعماقه عبقرية الشعر ودفق الكتابة الاستثنائية وروعة الإبداع الإنساني.

ليس عباس بن فرناس وحده..
روّاد الطيران في التاريخ العربي كانوا ثلاثة

محمد حسام الشالاتي ٭

يزخر تاريخنا العربي الإسلامي بعشرات العلماء الذين قدّموا للبشرية إنجازات رائدة في مختلف فروع العلوم، مثل الطب والرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والعلوم البصرية... وأسهموا في إنارة الدرب أمام غيرهم من العلماء الغربيين لمتابعة البحث والوصول إلى الاكتشافات الهائلة التي تحققت للبشرية حتى اليوم وأوجدت التراث العلمي العالمي.



وفي مجال الطيران، قد يذكر البعض العالم العربي الإسلامي «عباس ابن فرناس» كأحد الروّاد الذين

٭ باحث في علوم الطيران.

حاولوا التحليق. إلا أنَّ الحقيقة والواقع هي أنَّ عالِمين عربيين آخرَين، غير ابن فرناس، كانا قد حاولا الطيران بشكل عملي، بحيث أماط هؤلاء العلماء العرب الثلاثة اللثام عن هذا العلم الذي يعتبر واحداً من أهم الإنجازات العلمية، حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن من تطور سريع وفريد. وكان لنا نحن -العرب والمسلمين- قصب السبق في المحاولات الأولى للطيران وفخر الريادة فيها، فعلياً وعملياً.

مَنْ هم هؤلاء العلماء العرب المسلمون الثلاثة؟

عباس بن فرناس

اسمه «عباس بن فِرْناس بن وَرْداس التاكُريني (و قيل التاكراني) القرطبي» (أبو القاسم)، وهو من أهل قرطبة، ومن موالي بني أُمَيَّة في الأندلس. ولد في زمن غير معروف، وتوفي عام ٢٧٤هـ / ٨٨٧م (يمكن التوصُّل بشكل تقريبي إلى السنة التي ولد فيها استناداً إلى سنة وفاته عام ٢٧٤هـ وأنه عاش ما يربوا عن الثمانين عاماً، فيكون الحاصل حوالى سنة ١٩٤هـ، أي في أواخر القرن الثاني الهجري). وكان من عائلة عادية بسيطة ومغمورة ذات أصل بربري من قبيلة «البرانس» أو «التبر» المستقرة في جنوب الأندلس.

وهو أحد عباقرة العلم والأدب والفن المسلمين، وظاهرة فريدة في تاريخ الأندلس، ومخترع وحكيم في ميادين العلوم التجريبية والتطبيقية، وموسوعي وفيلسوف وشاعر، وعلَّامة في الرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء، واشتهر بأنَّه صاحب أوَّل محاولة عمليَّة للطيران في العالم الإسلامي بالأندلس، إذ يُعدُّ أول طيار في التاريخ. كما كان صيدلانياً، وقرأ الطب، حتى أُطلق عليه لقب «حكيم الأندلس».

يعتبر عباس بن فرناس -وبحق- أوَّل رائد للطيران الفعلي في العالم الإسلامي وصفحة مشرقة في الحضارة العربية، ولم تقف عبقريته عند الدراسة النظرية لثقل الأجسام النوعي ومقاومة الهواء لها وتأثير ضغطه عليها إذا ما ارتفعت في السماء وقوانين الجاذبية... بل تعدتها إلى التطبيقات العملية، ففكر في الطيور وكيف تسبح في الفضاء، ثم أدرك أنَّ ثقلها النوعي ومقاومة الهواء لها يضعفان في منطقة الجناحين حيث يتواجد الريش. وكان خير معين له على هذه الدراسة، تبحّره في العلوم الطبيعية والرياضيات والكيمياء. وهكذا، كانت محاولته مبنية على أسس نظرية صحيحة قبل تطبيقها عملياً، غير أنه أغفل موضوع الذَّنَب، وهو القسم الضروري للتوجيه وحفظ التوازن.

أشهر ما اقترن باسمه محاولته تصميم

رداء يُمكِّن الإنسان من الطيران، فنتيجة براعته في علم الفلك، اتجه إلى تجارب الانزلاق الجوي، ومهَّد لمحاولته هذه بدراسات مطوَّلة لطيران الطيور وتركيب جسم الطير. ولتحقيق ذلك كسا جسمه بقوادم النسر (أكبر ريشات جناح النسر)، وصنع لنفسه جناحين على هيئة أجنحة الطيور، وفرشهما بالريش على قطعة من السَّرَق (الحرير).

وبعبارة أخرى، صنع آلة هي عبارة عن جناحين من عكوس وزوايا مركَّبة ومرتبطة بعضها ببعض، وتتحرك بتأثير الحركات المركزية من اليدين والرجلين، وقد كساهما بالقماش والريش. وربطهما بجسمه بشرائط دقيقة من الحرير المتين، وطار بهما في الجو من تل مرتفع قفز منه، في ناحية «الرُّصافة» بظاهر قرطبة قرب جبل العروس، بعد أن أعلن للملأ أنه سيفعل ذلك منها، فاجتمع الناس فيها ليشاهدوا هذا الطائر الآدمي البطل يتهاوى في سماء قرطبة، فهللوا له وقد ارتسمت على وجوههم مظاهر الدهشة والإعجاب، وحلَّق في الجو إلى مسافة بعيدة على مشهد من أهلها، واستقل الهواء ثم سقط فتأذَّى ظهره، وقيل كُسرت إحدى فقراته (لعلها العجزيَّة أو العُصْعُصيَّة) لأنه لم يجعل له ذنباً، إضافة إلى إصابته بالكدمات والرضوض التي ألزمته الفراش شهوراً عديدة، فلم يكن يدري أنَّ الطائر إنَّما يقع على زمكه (مؤخرته). فكان بذلك أوَّل طيار اخترق الجو في ذلك العصر، حيث يرجع تاريخ هذه المحاولة إلى سنة ٢٦٧هـ / ٨٨٠م. ثم عاش بعدها ثمان سنوات، خلافاً لما توهَّمه عدد من المؤرِّخين من أنه توفي نتيجة سقوطه. من الواضح أنَّ ابن فرناس لم يقم بتجربته الرائعة بوحي من الخيال، إنَّما قام بها على أساس من البحث والدراسة في ميادين العلم، وخاصة في الفلك والفيزياء. وكان كثيراً ما يقوم بشرح نظريته في الطيران لروَّاد منتديات الخلافة في قرطبة نتيجة لدراساته في الرياضيات والفلك، لذلك قام بتجربته الخطرة أمام جمع غفير من أهالي قرطبة، وفيها ما فيها من إيماءات علمية نادرة، فضلاً عن كونها مغامرة بارعة «فاحتال في تطيير جثمانه، وكسا نفسه الريش على الحرير، فتهيأ له أنَّه استطار في الجو، فحلَّق فيه حتى وقع على مسافة بعيدة».

وهذا النص يكفي لتفسير أبعاد هذه التجربة العلمية الفذَّة، حيث إنَّ ابن فرناس بناها على دراسة فائقة في الفيزياء والفلك، فالرجل الذي يتّخذ من الحرير والريش جناحين له، كان يعلم السر في خفة هذين النوعين، ولا يمكن أن يخفى عليه صنع الذيل. وفي العصر الحديث، نتذكر المواد التي صنعت منها الطائرات الشراعية، واتخاذ مظلات الهبوط من الحرير.

اعتبرت محاولة ابن فرناس هذه بداية الطريق لولوج عالم الفضاء، وربما كان أثر الحسد الذي ناله من بعض معاصريه قد منعه من إعادة تجربته على أساس جديد من العلم، حيث إنّه لم يحسن الاحتيال في هبوطه، فتأذى في مؤخرته.

وقد أورد بعض المؤرخين الأسباب المحتملة لفشل ابن فرناس في الهبوط، والتي تتلخص في الآتي:

١- عدم وجود ذيل يحفظ توازن جسمه عند التحليق والهبوط، ويعمل كدفة عمق وتوجيه، وبالتالي عدم القدرة على المناورة في الجو.

٢- لعلَّ كمية الريش المستعمل في إكساء جناحيه كانت غير كافية، أو لعلَّ ذلك الريش كان قصيراً، أو قليل الكثافة.

٣- يُحتمل أنه لم يأخذ بعين الاعتبار طول الجناحين، خاصة وأنَّ قانون التناسب (النسبة الثابتة بين وزن الطائرة ومساحة الجناحين الأفقية) لم يكن معروفاً في ذلك الزمان.

٤- عدم معرفته بأسلوب هبوط الأجسام الطائرة، خاصة وأنَّ الذيل غير موجود، إذ لم يضع في اعتباره أهمية صنع ذيل للرداء الذي اتخذه في الطيران، لإبقاء التوازن وتسهيل عملية الانزلاق في الجو والهبوط فيه. وكذلك غياب إمكانية رفع جناحيه نحو الأعلى لتخفيف قوة الرفع، وبالتالي التحكم في سرعة الهبوط.

٥- لعله لم يقدِّر مقدار الضغط المناسب والضروري لمقاومة وزن جسمه في حالة الهبوط، وذلك عبر قرع الهواء بجناحيه بقوة كافية تجعله يحافظ على ارتفاعه أو يفقده تدريجياً.

أو لعلَّ القوة التي طبقها لم تكن كافية، أو أنَّ سرعة رفرفة جناحيه كانت أقل من المطلوب، فالحمامة مثلاً، ترفرف بجناحيها ثلاث مرات في الثانية الواحدة كي تستمر في التحليق، وهي (ككل الطيور) تملك عضلات صدر قوية جداً (نسبةً إلى حجمها) ترتبط بجناحيها، بينما لا يمتلك الإنسان مثل هذه القوة في عضلات ساعديه.

٦- لا يمكن إهمال العامل النفسي الهام في مثل هذه الحالات، إذ من المحتمل أنه ارتبك أو اضطرب أو فزع عندما وجد نفسه معلّقاً بين الأرض والسماء، مما جعله يفقد قدرة السيطرة على حركات جناحيه فسقط على الأرض.

٧- يُحتمل أنه لم يستطع المحافظة على توازنه في الجو. وهذا عائد لغياب الذيل أيضاً.

٨- لعلّه لم يحسن اختيار أنسب هبوب منتظم ومستمر للريح، وهي ضرورة حتمية تتطلبها كل لحظة من لحظات الطيران

شراعياً، سواء في الإقلاع أو التحليق أو الانحدار والهبوط.

و للمقارنة بين فشل تجربة ابن فرناس في الهبوط، ونجاح طريقة انحدار المهندس الألماني «أوتو ليلينتال» (رائد الطيران الشراعي الأوَّل) بعد أن راقب تحليق الطيور طويلاً، وهي الطريقة التي نسج على منوالها بعده كل من عالج هذا الموضوع... يمكن القول أنَّ ليلينتال كان يقبض على قضيب متصل بالجناحين، ويجري على سفح جبل إلى أن يشعر بأنَّ الهواء يرفعه بقدر يمكّنه من الطيران، فيقفز إلى الهواء ويبدأ بالانحدار تحت تأثير الجاذبية الأرضية. وكان يتوخى الأماكن التي يهب فيها نسيم لطيف ليواجهه عند انحداره، فتزيد بذلك فترة تحليقه وبقائه في الجو. ثم مازال بتصميمه يحسِّنه، وبالتلال ينتخب أنسبها، حتى تمكَّن من أن ينحدر بزاوية بلغ ظلها «ثمن»، أي إنه قطع قبل أن يهبط إلى الأرض مسافة أفقية تعادل ثمانية أمثال ارتفاعه حين قفز في الهواء.

مهما يكن من أمر، فإنَّ محاولة ابن فرناس الحقيقية تلك تحولت إلى أسطورة تناقلتها الأجيال العربية باعتزاز وفخار، كما تناقلها الإسبان من بعدهم. فعلى الرغم من أنَّها كانت لا توحي بنجاحها، إلا أن تلك التجربة لم تكن كلها فاشلة، فقد حلَّق ابن فرناس مسافة ما، كما يؤكد المؤرخون، وهذا وحده يكفي للدلالة على أنَّ محاولته كانت ناجحة جزئياً، وإلا لكان سقط منذ اللحظة التي قذف فيها نفسه من ذلك المكان المرتفع.

و مما لا شك فيه أنَّ ابن فرناس هو الرائد الأوَّل في المحاولة العملية شبه الأسطورية للطيران، وهي التجربة التي فتحت المجال أمام العالم لتحقيق هذا الحلم الذي أصبح حقيقة في أيامنا هذه، ولو أن الغرب لا يعترف لنا -نحن العرب- بذلك.

فالطيران في ذلك العصر كان مجرد حلم وتوق، ولم تكن نظرياته معروفة أو حتى موجودة أصلاً، بل كانت مجرد نظريات لا تستند إلا إلى الحد الأدنى من المعرفة، وحوالى منتصف القرن التاسع عشر للميلاد تحولت هذه الفرضيات إلى نظريات بدائية، ثم بدأ تطبيقها الفعلي والعملي على أرض الواقع في نهاية ذلك القرن.

وتكريماً له، سُمِّيت فوهة قمرية باسمه، عُرفت بفوهة ابن فرناس القمرية. وصُمِّم في ليبيا طابع بريد يصور محاولته في الطيران، وأُطلق اسمه على فندق مطار طرابلس. كما وُضِعَ في العراق تمثال له على طريق مطار بغداد الدولي، وسُمِّيَ مطار آخر شمال بغداد باسمه «مطار ابن فرناس».

الجوهري

رائد الطيران العربي الثاني هو «إسماعيل ابن حمَّاد الجوهري الأتراري التركي» (أبو

نصر الفارابي). وهو أحد أئمَّة اللسان واللغة والأدب، وذو خط جيد، وممن آتاه الله قوة بصيرة وحُسن سريرة وسيرة، وكان من أعاجيب الزمان ذكاءً وفطنةً وعلماً.

أصله من «فاراب» في بلاد الترك، شرقي نهر «سيحون». ولادته غير معروفة (و يُحتمل أنَّها كانت مع بدايات القرن الرابع للهجرة). دخل العراق إلى صغيراً، وقرأ العربية فيها، ثم ترحَّل بين الجزيرة والشام والعراق والحجاز للاقتباس من علمائها، فتعلَّم العربية وأتقن الأدب ولغة العرب، وأجهد نفسه في طلب العلم. ولما قضى وطره من الطواف، عاد راجعاً إلى «خراسان» في إيران، حيث أقام في «نيسابور» على التدريس والتأليف وتعليم الخط وكتابة المصاحف والدفاتر واللطائف، حتى مضى لسبيله عن آثار جميلة.

يعتبر الجوهري ثاني من حاول الطيران بعد عباس بن فرناس الأندلسي، ومات في سبيله. إذ وضع جناحين من الخشب وربطهما بحبل، ثم صعد فوق سطح داره، ونادى في الناس: «لقد صنعت ما لم أسبق إليه، وسأطير الساعة»، فازدحم أهل نيسابور ينظرون إليه، فتأبَّط الجناحين ونهض بهما، فخانه اختراعه وسقط إلى الأرض ميتاً سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م (و قيل في حدود الأربعمئة للهجرة).

وقيل في رواية أخرى أنَّ سبب محاولته يرجع إلى التصحيف في مواضع عديدة من كتاب الصحاح، فلما صنَّفه سُمع عليه إلى باب الضاد المعجَّمة، فعرض له وَسْوسة انتقل بعدها إلى الجامع القديم في نيسابور، فصعد سطحه وقال:

«أيها الناس، إني عملت في الدنيا شيئاً لم أُسبق إليه، فسأعمل للآخرة أمراً لم أُسبق إليه»، وضمَّ إلى جنبيه مصراعي باب تأبطهما بحبل، وصعد مكاناً عالياً من الجامع، وزعم أنه يطير، فوقع ومات. كما قيل أنه تسودن وعمل له جناحين، وقال أريد أن أطير، فأهلك نفسه رحمه الله.

رائد الطيران الثالث

كان الرائد الثالث في محاولة الطيران عربياً يقيم في مدينة القسطنطينية «بيزنطة» (إسطنبول حالياً)، مجهول الاسم، درس تجارب عباس بن فرناس، وتوصَّل إلى أنَّ ريش الطير لا يصلح لطيران الإنسان، ففكَّر بمادة أخرى تكون أكثر ملاءمة لهذا الغرض، واعتقد أنَّ القماش يمكن أن يفي بالغرض، فاستعمل قطعة كبيرة منه، ورتَّبها على شكل جناحي الخفاش (الوطواط)، وربط أجزاءها بالحبال، وشدَّها إلى جسمه ويديه.

ويبدو أنَّ هذا المخترع العربي كان واثقاً كل الثقة من نجاح تجربته، إلا أنَّ أمله قد خاب بعد أن أسلم نفسه للريح، حيث أنَّ

جناحي الخشب لم يقويا على حمله. وأدّى تجربته تلك عندما صعد إلى رأس برج عالٍ أمام حشود كبيرة من الناس تجمهروا في ساحة واسعة في مدينة القسطنطينية حوالى سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م، وكان على رأسهم الإمبراطور البيزنطي «ألكسيوس الأول» من أسرة «كومنينوس»، تحيطه نخبة من رجال البلاط والحاشية والنبلاء والأشراف. ووقف ينتظر ريحاً مواتية قبل أن يقذف بنفسه، وعندما حانت الفرصة قذف بنفسه، لكن الأجنحة التي صنعها لم تقوَ على تحمُّل وزنه، فتمزّقت، وسقط إلى الأرض ومات.

وعلى الرغم من فشل التجربة، إلا أن فكرة الأجنحة القماشية مهّدت الطريق أمام المخترعين أوروبيين لتطبيقها بنجاح في محلّقاتهم، كما مهّدت السبيل إلى اختراع مظلة الهبوط.

وهكذا، يعتبر هؤلاء الثلاثة روّاد الجو والفضاء، ولهم يعود الفضل الكبير في تقدم علوم الطيران والفضاء التي أخذت تتطور طيلة ثمانية قرون، حتى تمكّن الأخوان «أورفيل وويلبر رايت» من الطيران.

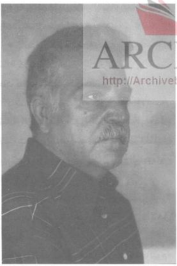
أخيراً، آن الأوان للغرب أن يعترف بعد طول إغفال وتعمُّد إهمال، بأننا وضعنا الأسس العلمية الأولى للطيران، وساهمنا في جعل فكرته واقعاً قائماً، وأنهم (الغرب) لولا ابن فرناس والجوهري والعربي الثالث (مجهول الاسم)، لما وصلت دراساتهم وأبحاثهم وتجاربهم في حقل الطيران إلى ما وصلت إليه اليوم من جعل العالم قرية كونية، وأوصلت الإنسان إلى الفضاء وكواكب أخرى.

المراجع

- كتاب «الطيران وروّاده في التاريخ الإسلامي» للدكتور قتيبة الشهابي- دمشق ١٩٩٩م.
- كتاب «بسائط الطيران» للدكتور أحمد الكرداني- القاهرة ١٩٢٥م.
- كتاب «قصة الطيران» لشفيق جحا وجورج شهلا- القاهرة ١٩٤٨م.
- صفحات متنوعة من مواقع على شبكة الإنترنت.

مع الملحن والشاعر ومدوّن التراث الشعبي سعدو الذيب

إعداد وحوار: حسني هلال ٭



لقد رافقت الأغنية الإنسان، مدى عمره، منذ كان، وإلى يوم الناس هذا. فكانت له خير أنيس وجليس في معظم أحواله وحالاته.

يوم على يوم.. شهر على شهر.. وعام على عام.. تراصف الزمن وراء حديقة العمر. منذ أن سمعت أغنية «يوم على يوم» أوّل مرّة، ووعدت نفسي التعرّف إلى صاحب لحن وكلمات تلك الأغنية.

إلى أن وَفَيْتُ نفسي ما وعدتها به، في بلدة «جرمانا» حيّ النهضة ٢٠١٢/١٠/٧م. حيث التقيت الشاعر الفنان «سعدو الذيب» في مكتبه في الاستديو الذي زينت جدرانه مجموعة صور ولوحات وشهادات:

٭ أديب وصحافي سوري

غربة وحنين

- كتبت الشعر في المرحلة الثانوية، وصلت بالدراسة إلى الجامعة، حيث تركت كلية الفلسفة في جامعة دمشق -على أبواب التخرج- وسافرت إلى السعودية طلباً للرزق، هناك إلى اشتغالك بمهن عديدة، كتبت الشعر ونشرت المقالات في الصحافة. بعدها رجعت إلى سورية عام ١٩٨٦م لتلتقي «فهد بلان» وتشتغلا معاً «يوم على يوم»، الأغنية التي أعادته بقوة إلى مستمعيه بعد انقطاع، وكرّستك ملحناً مميّزاً بعد بداية لم تنل رضاك.

هل من إضافة إلى ما سبق، تغني بها معلومات الراغب في الاستزادة حول بداية مشوارك؟

• كانت البداية في المرحلة الثانوية. أوّل مقالة كتبتها نشرت في مجلة جيش الشعب تحت عنوان «على الرصيف».

درست في جامعة دمشق- كلية الآداب/ قسم الفلسفة، حتى السنة الرابعة، ثم انقطعت عن الدراسة بسبب الوضع المادي لأسرتي. مما اضطرني للسفر إلى «السعودية» عام ١٩٧٩م.

لقد أثرت بي الغربة وكتبت شعراً غلب عليه طابع الحنين إلى الوطن والأهل والأحبة.

كتبت الشعر والمقالة في جريدة «اليوم» السعودية، بعدها عملت في مهن شتّى كالبناء والدهان وسواهما.

إلى أن رجعت إلى سورية عام ١٩٨٦م، حيث جمعتني صداقة مع ابن البلد المطرب «فهد بلان» واتفقنا على عمل أغنية «يا سنين» من كلماتي وألحاني. لكن سفري ثانية، حال دون إتمامها.

عدت إلى سورية عام ١٩٩٠م حاملاً معي أغنيتين، «يوم على يوم» و«شيّلوا». استمع فهد إليهما واتفقنا على تسجيلهما مباشرة.

آنذاك، كان الأستاذ «فهد» يحضر لألبوم جديد، يحتوي على أغنية من ألحان «سيد مكاوي» اسمها «ياحلاوة يا حلاوة»، وأغنية للملحن «زهير عيساوي» من كلمات الشاعر «حسين حمزة» عنوانها: «وين أخبّي الشوق منّك»، وأغنية «إنتي يا بلادي» كتب كلماتها حيّان حسن ولحنها الموسيقار «صفوان بهلوان»، اختيرت أغنية «يوم على يوم» عنواناً للألبوم. واشتهرت هذه الأغنية في سورية والدول المجاورة وبلاد المغترب، يقول مطلع الأغنية:

يوم على يوم لو طالت الفرقة

ما نسيت أنا يوم

ما نسيت أنا الرفقة.

قبل ذلك كنت قد أعطيت بعض الأشعار لمطربين، لحنها ملحنون آخرون، ولمّا شعرت ببعد الألحان وغربتها عن الكلمات. قرّرت أن ألحن كلماتي بنفسي. فكانت البداية بكلمات ولحن «يوم على يوم».

- عادة تكتب نصّ الأغنية ثم تؤلف له اللحن المناسب أم أنّ العمليتين تجريان معاً؟

• تنتهي الأغنية معي كلاماً ولحناً في الوقت نفسه. لأنّ اللحن على ارتباط وتواشج مع الكلمة.

توثيق التراث

- «الدخيلة.. شيماء.. العود.. على رصيف آخر..» هي أعمال درامية قدمتها للتلفزيون. تنقّلك هذا من الشعر على التلحين إلى الصحافة إلى الدراما وغيرها. هل يعني أنك مازلت تبحث عن الجانب الإبداعي الأهم في داخلك؟ أم يعود إلى التنوّع الذي يمتاز به إبداعك في الأساس؟

• الجانب الأهم في حياتي، والذي وجدته منذ الصغر، هو الشعر. لأنّه أكثر الفنون ديمومة في أذهان الناس وقلوبهم.

استهوتني الدراما التلفزيونية فكتبت «الدخيلة» التي نلت عليها جائزة أفضل عمل عربي باستفتاء الخليج على تلفزيون دبي عام ١٩٩٢م.

وتزامن هذا العمل مع أغنية «يوم على يوم». ثم كتبت «شيماء» و«دموع الأصايل» ثم مسلسل «العود» وتعني الرجل الأكبر في الأسرة. ومجموعة أفلام وثائقية منها:

«خيال يرمح عالشمس».. «الطريق إلى ميسلون».. «قانا».. و«وعد».

وقد قدّمت للتلفزيون السوري، عملاً تراثياً توثيقياً مؤلفاً من /٣٣/ ساعة تلفزيونية. تناولتُ فيه ألوان الغناء في سورية. كالدلعونا، والمواليا، واللالا والقدود والموشح وأغاني الأمهات والهدهدة وأغاني الأعراس والأهازيج الوطنية.. إلخ.

ما يؤسف له يا عزيزي، أنّ الدول والشعوب توثق العلوم والآداب والفنون عموماً. في حين أنّ التراث الفني، قلما نجد من يوثّق له ويحفظه. ربما يعود ذلك إلى صعوبة توثيق التراث الشفوي.

- بقيت مغترباً (٧) سنين.. ولديك (٧) مجموعات شعرية. ما حكايتك مع الرقم ٧؟

• ليس هناك ما يستحق الذكر ربما المصادفة فقط هي التي أدت إلى ذلك.

تزوير التراث

- ضمن ما قدمته للتلفزيون برنامج «نغم ووتر» و«حكايات وأغاني ع البال» البرنامج الذي نال استحسان وثناء المختصين والكثير من الذواقة لما تضمّنه من اشتغال دؤوب على تراثنا الشفهي وجمعه وتوثيقه وبالتالي حفظه للأجيال.

أين وصلتم في هذا الشأن؟ وهل من متابعة جديدة للبرنامج أو رفده ببرنامج آخر؟

• لقد حضّرت للجزء الثاني من برنامج «أغاني ع البال» وما أخّرنا عن التنفيذ، سوى الأزمة التي يمر بها البلد. لكنني مصمم إن

شاء الله على متابعة البرنامج لأني أعتبر التراث أمانة في أعناقنا يجب توصيلها لأحفادنا. وآمل أن تتوافر لي الحياة والمكنة لمتابعة هذا العمل الهام.

حالياً بدأت بتسجيل حلقة من خمسين جاهزات لديّ. من برنامج إذاعي يحمل عنوان: «تراث من ذهب» جمعت مادته من مختلف المحافظات السورية.

وعندما نتكلم عن التراث في سورية الذي يعود إلى أكثر من مئة سنة سابقة فهذا يعني أننا نتكلم عن تراث بلاد الشام بشكل عام.

- كيف ترى إلى الأغنية التراثية عندنا اليوم- لحناً وكلمات وصوتاً؟

• الأغنية التراثية في سورية، هي نتاج تراكم حضارات. وقد أخذت أغنيتنا التراثية عدة ألوان. وهي مازالت ومنذ القديم القديم حاضرة على شفاه الناس.

هناك مبدعون في الموسيقا والتوزيع دخلوا على الأغنية التراثية، وهذا أمر مشروع. لكن غير المشروع هو تسجيل كثير من الأغاني التراثية بأسماء كتّاب وملحنين معاصرين. وقد ساهمت إذاعتنا بهذا العمل -بقصد أو من دونه-.. لأنّ الإذاعة لا تدفع مكافأة الأغنية إلّا إذا كانت مسجلة باسم كاتب وملحن

أوّل مرة يصل فيها فهد بلان لجواب الجواب. كانت في أحد ألحاني.

- هناك ملاحظة من أحد الموسيقيين أرجو أن يتسع لها صدرك. وهي إطالتك مدّ «الواو» في كلمة يوم من أغنية «يوم على يوم الثانية» لم يكن محبّذاً. علماً أنه كان بالإمكان تلافي ذلك موسيقياً؟

• أنا أرى أنّ مدّ الحرف أو تقصيره يعود لرأي ومزاج الملحن. وقد وصلت هذه الأغنية «يوم على يوم» إلى مؤتمر الموسيقى العربية في حلب منذ سنوات، حيث اعتبروا موسيقى أوّل اللحن، هو دخول وفتح جديدان في الأغنية السورية!

كما نوّه في المؤتمر بأغنية فهد بلان «ترحل ولا كلمة وداع» من كلماتي وألحاني. الأغنية التي وصل فيها «فهد» ولأوّل مرّة في أغانيه إلى جواب الجواب!

- ألم يصل إلى جواب الجواب قبل ذلك في أغنية «يا صلاة الزين»؟

• لا لا أبداً.

- إلياس كرم، سمارة السمارة.. فؤاد غازي.. عمر عبد اللات.. داود رضوان.. برهان صقر.. رفيق سبيعي.. وأحمد الأحمد.

هم مطربون غنّوا من ألحانك. مَن منهم يجذبك أكثر من حيث تمثّله للحن وقوة صوته وحضوره. ومَنْ المطربات اللواتي غنين من ألحانك؟

• لكل مطرب لونه المحدد الذي يجيد أداءه.. بالنسبة للمطربات: غنت لي كنانة القصير: «حبيبي» وهالة القصير: «ع ديارهم» ولـ«رامي خليل» أعطيت أغنية «الأم» وأخذتها كثير من المحطات الإذاعية.

أغنية رائعة

- بصفتك شاعراً وملحناً مسكوناً مهموماً بالتراث، ومستمعاً ذوّاقة بآن معاً. حبذا لو تشركنا ببعض من الانطباع الذي تتركه في نفسك أغنيات مثل:

- رقّة حسنك وسمارك، لـ نجاح سلام.

- اسقنيها، لـ أسمهان.

- ست الحبايب، لـ فايزة أحمد؟

- لكتب ورق وارسلك، من تراث جبل العرب؟

- سكّرنا باب القلب وخبينا المفتاح، لـ سامي صيداوي.

• «رقة حسنك وسمارك»: من الأغاني السورية الرائعة.

- «اسقنيها لأسمهان»: هذه الأغنية أعدت بطريقة فنية جداً لحناً وكلاماً.

- «ست الحبايب لفايزة أحمد»: هي أغنية اجتمعت لها الشروط الأساسية للنجاح: الكلمة- اللحن- الأداء- والإعلام.

وهي من الأعمال الكبيرة التي ستبقى إلى ما شاء الله.

- «لكتب ورق وأرسل لك»: هي من الأغاني التراثية الجميلة التي ما زالت تُغنّى ويعاد توزيعها: لأنَّها من نوع «من القلب إلى القلب» وذلك بسبب بساطتها..

- أما أغنية «سكّرنا باب القلب..» فلم أسمع بها من قبل.

- كلما استمعت لحنك «خلي العتب بعدين» للمطرب «نهاد نجار» تذكرت فهد بلان، ما السبب برأيك؟

• الحق معك، هناك تشابه واضح بين لحن أغنية «نهاد نجار» التي ذكرتها ولحن أغنية «يوم على يوم» يمكن بحسن نيّة أن نعيده إلى تأثره ببعض ألحاني.

وقد التقينا أنا ونهاد نجار واتفقنا على عمل مشترك. ولكن الظروف حالت دون ذلك.

- ما هو آخر لحن سجلته وبصوت مَنْ؟

• آخر لحن لتاريخه، أغنية «الجولان» وقدمها المطرب إيهاب فهد بلان، وقد لاقت انتشاراً واستلطافاً ملحوظين.

- هل في جعبتك ألحان جديدة، ولمن؟

• هناك لحن قدمته لـ«سعدون جابر» وآخر لـ«وديع الصافي».

ستسمعونهما قريباً إن شاء الله.

شهادات وجوائز نالها الفنان سعدو الذيب:

- شهادة تقدير من مهرجان الأغنية السورية الثالث، عن لحن «يامشنشلة بالذهب».
- جائزة «الأورنينا» لأفضل لحن شعبي في مهرجان الأغنية السورية السادس. عن أغنية «قلبي تعلّق بيه».
- جائزة «الأورنينا» لأفضل لحن شعبي، في مهرجان الأغنية السورية السابع. عن أغنية «عيني».
- شهادة شكر وتقدير من وزارة الثقافة/ عام ٢٠٠٠م/ عن جهوده لإنجاح تظاهرة أيام دمشق المسرحية- تظاهرة يوم المسرح العالمي.
- شهادة تقدير من الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون في سورية. لتميّزه في مهنة العمل الإذاعي. دمشق/ عام ٢٠٠٥م.
- شهادة تقدير من الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون في سورية. لما قدّمه من جهد وعطاء متميزين في نهضة العمل الإذاعي /دمشق/ عام ٢٠١١م.
- شهادة شكر وتقدير من مهرجان الجبل الأوّل في محافظة السويداء. عن مساهمته وجهوده المبذولة لإنجاح المهرجان.

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين ⭘

لننهض بلغتنا:

أطلقت مؤسّسة الفكر العربي مشروع إعلان «لننهض بلغتنا» بهدف تعزيز اللغة العربية والإعلاء من شأنها ووقف تدهور استخدامها.

وتتيح هذه المبادرة لذوي الاهتمام من الباحثين وأهل العلم وأصحاب الخبرة أن يضعوا رؤية مستقبلية لواقع اللغة العربية في المجالات كافة، بحيث تتوافر لهذه الرؤية الرعاية والمؤازرة على أعلى مستوى سياسي لتوضع في نهاية المطاف بين أيدي صنّاع القرار التعليمي والتربوي والثقافي في الدول العربية.

وألقى الدكتور سليمان عبد المنعم الأمين العام لمؤسّسة الفكر العربي كلمة أشار فيها إلى أن إعلان «لننهض بلغتنا» جاء نتيجة جهد ميداني وبحثي ورؤيوي قام به لغويون ونخبة من رموز الفكر والإبداع العرب مؤكداً انه مشروع يهمّ جميع العرب الحريصين على لغتهم وثقافتهم وحضارتهم وتراثهم وتاريخهم.

وأكد الدكتور صلاح فضل ممثل مجمع اللغة العربية في القاهرة أن الأوان قد آن لمؤسّسة الفكر العربي أن تركّز عنايتها على اللغة العربية لأن الفكر واللغة هما العقل العربي في فاعليته وذاكرته وتوجّهه لمستقبله.

وقال: إنّ اللغة العربية تواجه اليوم

⭘ أديب وباحث في التراث العربي من (سورية).

مخاطر كبيرة رغم الجهود العلمية المنظّمة التي شهدها الوطن العربي عبر ثمانين عاماً مضت والتي تمثلت في إنجاز المجامع العربية العريقة، مطالبا بتحديث هذه المجامع وأن يكون للغة العربية مجمع تاريخي يرصد مراحل تطورها عبر مراحلها التاريخية.

وأكد أنَّ اللغة وإن لم تتّسم بالمرونة والتحديث لمواجهة تحديات العصر فهي تتراجع وتتأخّر بالنسبة لأبنائها أنفسهم وهو ما تنبغي مواجهته بعناد وتصميم.. مشدداً على أهمية رقمنة اللغة وتيسير تداولها خصوصاً لدى الشباب وذلك عبر تشجيع إبداعاتهم وبث روح اللغة العربية والاعتزاز بها لديهم.

ودعا المفكر واللغوي الدكتور أحمد ضبيب إلى النهوض باللغة العربية كي يستطيع أبناؤها المنافسة على الصعيد العالمي لافتاً إلى أن هناك اعتداء على التراث والأصالة العربية ينذر بتحوّل هذه اللغة تدريجياً إلى لغات أخرى مشتّتة.

وأكد عبد السلام المسدي باحث تونسي في اللسانيات أن اللغة هي صمّام الأمان داعيا إلى بذل كل جهد ممكن للحفاظ عليها والارتقاء بها ومشيداً بالجهود التي تبذلها مؤسّسة الفكر العربي للنهوض باللغة العربية.

وألقى الدكتور زياد الدريس نائب رئيس المجلس التنفيذي لمنظمة اليونسكو كلمة أكد فيها الحاجة إلى خطاب موجّه للعرب وخصوصاً الشباب لإقناعهم بأهمية لغتهم العربية وبعدم التردّد في استخدامها في كلّ مكان وتفكيك شعورهم بالفخر والتميّز عند استخدام اللغات الأجنبية في غير مكانها أو حاجتها، وأشاد بمبادرة مؤسّسة الفكر العربي بإطلاق إعلان «لننهض بلغتنا» وبالبند الذي يدعو لإنشاء منظمة مستقلة تعنى بقضايا اللغة العربية على غرار المنظمة الفرنكوفونية التي تخدم اللغة الفرنسية والناطقين بها من أهلها وغير أهلها.

ونص مشروع الإعلان عن المبادرة على أن المجتمعين في ملتقى مؤسّسة الفكر العربي في دبي يشددون على أن اللغة العربية هي مكوّن أصيل من مكوّنات هوية الأمّة ورمز خالد لانتماء أبنائها وهي تمثّل ذاكرتها الثقافية والحضارية.

وذكّر المجتمعون بأن التاريخ لم يسجّل

نهضة علمية لشعب من الشعوب بغير لغته الوطنية ما يجعل من اللغة العربية قضية أمن قومي بلا منازع وأداة معرفية لا يمكن الاستغناء عنها في أي مشروع عربي للتنمية، مثمنين مبادرة مؤسسة الفكر العربي في إنجازها مشروع «لننهض بلغتنا».

وأوصى المشاركون المسؤولين العرب في شتى مواقع صنع القرار والمعنيين بشأن اللغة العربية وعموم الرأي العام بالسعي الجاد لاتخاذ سياسات لغوية مُلزمة مبنية على تخطيط لغوي شامل يهدف إلى إعلاء شأن اللغة العربية في التداول والتعليم وإعادة الاعتبار إليها عن طريق القيام بمبادرات تشريعية وثقافية وتربوية واجتماعية وإعلامية ترعاها الحكومات العربية توجيهاً وتمويلاً، واعتبار تعليم اللغة العربية للأجانب في مختلف البلاد العربية واجباً وطنياً يضاهي خدمة العلم ويمكن أن يحلّ محلّها في بعض الظروف مع تهيئة الوسائل والأدوات الممكنة من برامج حديثة لتعليم اللغة العربية وتقنيات متطوّرة على غرار ما هو معمول به في تجارب بعض الدول التي تعتبر لغتها رمزاً لشرفها القومي.

كما أوصوا بإلزام المدارس الأجنبية في البلدان العربية بتخصيص حصص كافية لتدريس اللغة العربية لطلابها، ودعوة جامعة الدول العربية إلى تأسيس كيان دولي للغة العربية على غرار المنظمة الفرنكوفونية تكون بمثابة مظلّة لتنسيق الجهود والأعمال بين مختلف المؤسّسات العاملة في مجال اللغة العربية الحكومية والأهلية على أن تتوافر لهذا الكيان رؤية العمل الواضحة والموارد اللازمة والصلاحيات الضرورية لوضع الخطط والبرامج الكفيلة بالنهوض بلغتنا العربية.

ودعوا إلى إنشاء هيئة تخطيط لغوي عليا تنبثق من اتحاد المجامع اللغوية والعلمية الموجودة حالياً لتتولى شؤون التخطيط والتنسيق في الأقطار العربية والرقابة والإشراف على تنفيذ قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية وعلى سياسة تعليم اللغات واستخدامها.

والعمل على إصدار ميثاق شرف إعلامي عربي يوجب استخدام اللغة العربية الفصيحة الميسّرة في وسائل الإعلام العامة والخاصة ويهدف إلى الحدّ من ظاهرة

استشراء التعبير بالعامّية المحلية، واعتماد مبدأ التعريب الشامل من منطلق المنظور السياديّ إطاراً جامعا يتمثل في وحدة اللغة والثقافة والانتماء وانتهاج هذا التعريب في المقررات الدراسية بما لا ينتقص من مستوى التحصيل في اللغات الأجنبية.

ويرتكز مشروع «لننهض بلغتنا» على دراسة ميدانية قوامها تسعة استطلاعات للرأي اشتملت على ٢٦٥ سؤالاً وتمّ تنفيذها في إحدى عشرة دولة عربية هي المغرب والأردن ولبنان وفلسطين وسورية وقطر وموريتانيا والسعودية ومصر وتونس واليمن، وذلك انطلاقاً من الاقتناع بأهمية تشخيص جوانب أزمة لغة الضاد على الأرض ولدى مختلف الأطراف المعنية بها قبل وضع أية رؤية نظرية أو توصيات إصلاحية.(١)

حفل توقيع «كل ما يجب أن تعرفه عن العرب»:

صدرت عن دار «فلور دِلْ فينتو» التابعة لدائرة النشر العملاقة «لاس بون شاس» الطبعة الأولى من كتاب كل ما يجب أن تعرفه عن العرب، للمؤرخ والكاتب الفلسطيني د.صلاح جمال أبو علي.

وصدر الكتاب باللغتين الإسبانية والكتلانية، ويقع في ٢٥٧ صفحة من القطع المتوسط. وجرى حفل تقديمه وتوقيعه للجمهور في قاعة كلية الفلسفة في جامعة برشلونة.

يحتوي الكتاب على فصول مكثّفة عن التاريخ العربي، ابتداءً بما قبل العصر الجاهلي، مروراً بالإسلام، ووصولاً للوقت الحاضر.. وقد ركّز المؤلف على تعريف القارئ الإسباني بتاريخ العرب الحقيقي من زاوية نظر كاتب غير رسمي، فذكر عيوبه ومحاسنه، ودقائقه وأسراره، والمفاصل الرئيسية فيه، وأيضاً المسكوت عنه في السرد التاريخي للرواية المعتمدة. متكلماً عن تجليات الحياة الاجتماعية العربية، وطقوسها وعاداتها: كالولادة والموسيقى والزواج والفن والمغنين والرياضة والدين والشعوذات.. إلخ.

وخلا الكتاب من أي طابع أيديولوجي، رغم أنّ المؤلف يساري النزعة، ومتأثّر بالمفكر الروسي اللاسلطوي ميخائيل باكونين. وفي لقاء سريع مع إيلاف، على هامش حفل التوقيع، قال الكاتب: إنه كتب

كتابه ليعرّف الإسبان خاصة والغرب عامة، بحقيقة العرب كأمّـة، ماضياً وحاضراً، في وقت يتعرّضون فيه لحملة تشويه قاسية، خصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، والتركيز الإعلامي الغربي على التيارات الهامشية المتطرفة وتضخيمها في ما بات يُعرف بـ«الإسلام السياسي».

يُذكر أن د.صلاح أبوعلي جاء من نابلس إلى برشلونة عام ٧٠ من القرن الماضي، ودرس في جامعتها الطب والجغرافيا والتاريخ معاً. وهو يعمل منذ عام ٧٨ طبيباً للأمراض الجلدية، ومحاضراً في الجغرافيا والتاريخ في الجامعة ذاتها، إضافة إلى عمله كأستاذ يعطي محاضرات لطلبة الماجستير في عدة جامعات إسبانية.. وقد عمل سابقاً بروفيسوراً في جامعة بيك.[٢]

فكر الجابري في لقاء ثقافي:

نظمت جمعية آفاق للتنمية والمواطنة، بالقاعة الكبرى للندوات ببوعرفة لقاء ثقافياً مفتوحاً حول فكر الراحل محمد عابد الجابري، بالتعاون مع مؤسسة محمد عابد الجابري، وبمشاركة نخبة من المفكرين والباحثين المغاربة..

وأكّد المشاركون خلال هذا اللقاء المنظم في إطار «الملتقى الأول للفكر والثقافات بإقليم فجيج.. دورة المفكر محمد عابد الجابري»، أن الجابري كان مثل كل الكبار إنساناً عادياً متواضعاً في حياته ومعاملاته.

واعتبر المشاركون أن المفكر محمد عابد الجابري لم يكن يبحث عن الشهرة ولا يحب الأضواء، بل يفضل الانزواء في مكتبه، والاشتغال بكل هدوء، وترك أعماله تتحدث عنه، وكانت طريقة اشتغاله ذات نسقية عالية، تدخل ضمن مشروع متكامل، استطاع الجابري من خلاله، أن يفتح باب النقاش حول قضايا تراثية، وأن يخلق حواراً مستمراً مع مفكرين عرب.

وأوضحوا أن الحداثة بالنسبة للجابري لا تعني رفض التراث ولا القطيعة معه أو اعتباره مجرد بضاعة تنتمي للماضي بقدر ما يعتبرها الجابري ارتقاء بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى المعاصرة ومواكبة التقدم الحاصل على الصعيد العالمي.

وأبرزوا أن الجابري يعتقد أن الحاجة إلى الاشتغال بالتراث تمليها الحاجة إلى تحديث كيفية التعامل معه خدمة للحداثة

وتأصيلا لها، وهو ما اشتغل عليه الجابري طوال حياته من خلال دراسة التراث العربي ونقد العقل النظري والسياسي والأخلاقي العربي ومن خلال ما يعبر عنه اليوم بإشكالية الدين والدولة وتطبيق الشريعة.

يذكر أن الجابري حاصل على دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة في عام ١٩٦٧م ثم دكتوراه الدولة في الفلسفة عام ١٩٧٠م من كلية الآداب بالرباط وعمل أستاذاً للتعليم الابتدائي ثم أستاذاً للفلسفة والفكر العربي الإسلامي في كلية الآداب بالرباط وكان عضواً في مجلس أمناء المؤسسة العربية للديمقراطية.

وله العديد من الكتب المنشورة منها على الخصوص نحن والتراث (١٩٨٠م)، والعصبية والدولة (١٩٧١م)، وسلسلة نقد العقل العربي.

وقد حاز الراحل على جوائز عدة من بينها جائزة بغداد للثقافة العربية اليونسكو عام (١٩٨٨م)، والجائزة المغاربية للثقافة عام (١٩٩٩م)، وجائزة الدراسات الفكرية في العالم العربي سنة ٢٠٠٥م، إضافة إلى جائزة ابن رشد للفكر الحر سنة ٢٠٠٨م.[٣]

أندلسيات:

نظمت الجمعية المغربية لهواة الموسيقى الأندلسية بالمغرب الدورة التاسعة للمهرجان الدولي للموسيقى الأندلسية «أندلسيات» بمشاركة فرق ومنشدين من المغرب ومن دول عربية.

وأكد المنظمون لهذه الدورة أن المهرجان استطاع مع توالي الدورات أن يكرس موقعه كمرآة للفن المغربي الأصيل، والقيم الموسيقية العريقة التي يزخر بها التراث المغربي، إلى جانب إسهامه في إشعاع الموسيقى الأندلسية كلون موسيقي زاخر بمقومات الأصالة الوطنية.

وأوضحوا بهذه المناسبة أن هذه التظاهرة الفنية هي منتدى للقاء والتواصل بين مختلف مدارس الموسيقى الأندلسية، والتعريف بقدرتها على التجديد والابتكار التي مكنتها من استقطاب مزيد من العشاق.

وأبرز المنظمون أن هذا اللون الموسيقي شهد على مر السنين تطوراً كبيراً سواء على مستوى الإيقاع أو الكلمات أو الأدوات الموسيقية، مما أتاح له الانفتاح على ثقافات موسيقية أخرى والاستمرار في أسر المزيد من

المعجبين من فئات عمرية متنوعة، مشيرين في الوقت ذاته إلى أن روح الابتكار والتجديد التي تتميز بها الموسيقى الأندلسية، تؤكد أنها ليست موسيقى جامدة بل هي موسيقى علمية ذات علاقة وطيدة بفن العيش، تخاطب الروح والأحاسيس وتعطي للحياة سمواً روحياً ووجدانياً.

وشهدت فعاليات هذه الدورة مشاركة فرق موسيقية متميزة ومنشدين لهم صيتهم في الموسيقى الأندلسية من الجزائر وتونس وسورية والمغرب إلى جانب مشاركة فرق من البرتغال وإسبانيا، بما يساهم في تلاقح فني بين الفلامينكو الإيبيري وموسيقى القرون الوسطى والأندلسي المغربي.

وتضمن برنامجها، عقد ثلاث ندوات علمية متخصصة بمشاركة باحثين وموسيقيين ونقاد متخصصين، حيث ناقشت موضوعات تهم «المتن الشعري في الموسيقى الأندلسية المغربية وسؤال التلقي» و«الأبعاد الفنية في الموسيقى الأندلسية المغربية بين الثابت والمتحول» وذلك يومي ٢٩ و٣٠ نوفمبر/تشرين الثاني بالدار البيضاء إلى جانب ندوة عن «لسان الدين بن الخطيب: الأديب والشاعر والسياسي» التي ستحتضنها الجديدة يوم الأول من ديسمبر/كانون الأول.(٤)

مصيدة الفئران تدخل عامها الستين:

احتفل كادر مسرحية مصيدة الفئران للكاتبة البريطانية الشهيرة أغاثا كريستي بدخول عرض مسرحيتهم عامه الستين بتقديم عرض احتفائي بالمناسبة ضم عدداً من النجوم أمثال هيو بونفيل وميراندا هارت.

ويرجع افتتاح أول عرض لهذه المسرحية في «ويست إيند» بالعاصمة البريطانية إلى عام ١٩٥٢م، وقد ظلت محتفظة بالرقم القياسي لأكثر عرض مسرحي تواصلاً على خشبة المسرح في العالم.

وتم بهذه المناسبة إزاحة الستار عن نصب تذكاري للكاتبة التي اشتهرت بكتابة الروايات البوليسية أغاثا كريستي، وحضر حفل إزاحة الستار عن النصب التذكاري وتقديم العرض رقم ٢٥٠٠٠ على خشبة المسرح حفيد الكاتبة كريستي ماثيو ريتشارد، وكانت جدته قد منحته حقوق نشر المسرحية بمناسبة عيد ميلاده التاسع.

وحفل العرض الاحتفائي بحضور العديد من الوجوه الشخصيات الفنية بينهم فيليدا لويد التي أخرجت فيلم «ماما ميا» عن المسرحية الموسيقية الشهيرة وكذلك العديد من الأعمال الناجحة في ويست إيند.

ومن بين نجوم المسرحية الذين اجتمعوا في هذا العرض الاحتفائي باتريك ستيوارت وجولي والترز وليان غلين.(٥)

وفاة الروائي الأسترالي برايس كورتناي:

توفي الكاتب والروائي الأسترالي برايس كورتناي، المولود في جنوب أفريقيا قبل ٧٩ عاماً، في منزله بالعاصمة الأسترالية كانبيرا، نتيجة إصابته بمرض السرطان.

كان برايس كورتناي، الكاتب المعروف بنشاطه الأدبي المتعدد الوجوه، قرّر في أعوام الخمسينات ترك موطنه الأصلي جنوب أفريقيا والانتقال إلى أستراليا للاستقرار فيها، ليحقق شهرة واسعة في عام ١٩٨٩م، عبر روايته «قوّة الفرد»، التي باع منها نحو ٨ مليون نسخة، وتمت ترجمتها إلى أكثر من ١٨ لغة عالمية.

وتحولت روايته الشهيرة «قوّة الفرد» إلى فيلم سينمائي درامي في العام ١٩٩٢م، حيث يروي قصة شاب إنكليزي مولود في جنوب أفريقيا خلال حقبة الفصل العنصري في أعوام الثلاثينات، يقرر ترك مزرعته والقرية التي ترعرع فيها، ليقع فريسة الظلم الذي يحيط به من كل مكان، وقد اضطلع بمهمة إخراجه السينمائي الأمريكي جون جي أفيلدسن، وأدى دور البطولة فيه كل من ستيفن دورف، ومورغان فريمان، واي ماسترسون.

أصدر كورتناي على مدى مشواره الإبداعي ٢١ رواية، من بينها «تانديا»، و«مصنع البطاطا»، و«أغنيات السلمون»، وباع أكثر من ٢٠ مليون نسخة من كتبه في جميع أنحاء العالم.

وعُرف عن كورتناي، الذي ترك جنوب أفريقيا وعمره ١٧ عاماً، وقوفه ضد الأدب المتعالي على الآخرين، وتأكيده على أن أهمية كاتب ما ترتبط بنسبة عدد كتبه المباعة.

وكانت كريستين جي، زوجة الكاتب الأسترالي قد أعلنت وفاة زوجها يوم الخميس الماضي، إثر صراع طويل مع مرض سرطان المعدة.

ولد برايس كورتناي في ١٤ أغسطس/ آب عام ١٩٣٣م في جوهانسبرغ، جنوب أفريقيا، وتوفي في ٢٢ نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠١٢م، في كانبيرا، أستراليا. وهو كاتب وروائي يحمل الجنسيتين الجنوب أفريقية والأسترالية. أمضى جُلّ سنواته المبكرة في قرية «جبال ليبومبو» في ولاية ليمبوبو في جنوب أفريقيا. عمل في مجال الإعلانات لأكثر من ٣٤ عاماً، حيث عُيّن مديراً إبداعياً في شركة ماكين إيركسن، وجي. والتر ثومبسون أند جورج باترسون للإعلانات.

وخلال دراسته للصحافة بلندن في عام ١٩٥٥م، التقى كورتناي بزوجة المستقبل بينيتا، وهاجر لاحقاً إلى سيدني، أستراليا. وتزوجا في عام ١٩٥٩م، ومن ثمّ رزقا بثلاثة أبناء، بريت، وآدم، وديمون الذي توفي في عام ١٩٩١م وعمره ٢٤ عاماً.

في عام ٢٠٠٠م قرّر كورتناي الطلاق من زوجته بينيتا مؤكداً وجود بعض الخلافات بينهما خلال ٤٢ عاماً من حياتهما الزوجية. وعاش، بعد ذلك، في كانبيرا برفقة زوجته الثانية كريستين جي.

وغدا برايس كورتناي من أبرز المؤلفين الأستراليين نجاحاً حتى يوم رحيله، وعمل من أجل ترويج نفسه، وأسّس علاقات متينة مع كبار قادة البلد، إلى جانب تسويق كتبه، ودرج على توزيع ٢.٥٠٠ نسخة من كتبه سنوياً للقراء الذين كان يلتقيهم في الشارع.[٦]

سي أس لويس سيخلد في ركن الشعراء:

ينضم الكاتب والباحث سي أس لويس إلى قائمة المشاهير المكرمين بوضع شاهدة حجرية تحمل اسمهم في «ركن الشعراء» في دير وستمنستر وسط العاصمة البريطانية لندن، حيث ستوضع شاهدة تحمل اسمه فيه عام ٢٠١٣م.

وسيقام الاحتفال بوضع الشاهدة في ٢٢ نوفمبر/تشرين الثاني عام ٢٠١٣م في الذكرى الخمسين لوفاة لويس، وسيجاور لويس شواهد شخصيات أدبية بارزة من أمثال جون كيتس ووليم بليك وتي أس إليوت، ضمن هذا التقليد الذي يرجع تاريخه إلى نحو ٦٠٠ سنة ماضية.

ووصف فيرنون وايت المختص في اللاهوت الكنسي من دير ويستمنستر لويس

بأنــه «كان كاتبا تخيليًا بطريقــة استثنائية ومفكراً صلباً»، وأضــاف «كان لويس قادراً على تقديم الإيمان المسيحي بطريقة تجعله جذاباً وموثوقاً لمــدى واسع من الجماهير»، وأكمــل «إن لهــذا المؤلف تأثــيراً متواصلاً ومطرداً في حياتنا الوطنية».

ومن كتابات لويــس (١٨٩٨ - ١٩٦٣م) سلسلة كتب «سجــلات نانيا» التي بيع منها أكثر من ١٠٠ مليون نسخة في مختلف أنحاء العالم كمــا قدمت في سلسلــة أفلام شهيرة لاحقاً.

ونشــر أول أجزاء هــذه السلسة «الأسد والساحرة والخزانة» عام ١٩٥٠م ومنذ ذلك الحين أعدت غير مــرة في أعمال مسرحية وتلفزيونية وسينمائية.

اشتهر لويس المولــود في بلفاست بكتابة الروايــة والمقــالات والنقــد الأدبــي، ومن أعماله الشهيرة الأخرى «رسائل سكروتيب» و«ثلاثية الفضــاء» وكتب أخرى غير روائية مثل «المسيحية والمعجزات».

وكان الشاعــر الشهــير تيــد هيوز آخر مــن وضعت له شاهدة حجرية تكريمية بعد وفاته في ركــن الشعراء في دير ويستمنستر، وقد قام بإزاحة الستار عنها الشاعر شيموس هينــي في احتفال أقيــم في ديسمبر/كانون الأول من العام الماضي.(٧)

مكتبــة بودليــان تناشــد بوضــع مسرحيات شكسبير:

توجهــت مكتبــة بودليــان في جامعــة أكسفورد بدعوة من أجل وضع أول مجموعة لمسرحيات شكسبير والتي جمعت عام ١٦٢٣م على شبكة الإنترنت.

وتهدف الحملة مــن خلال تنظيم سباق في العدو إلى جمع مبلــغ ٢٠ ألف جنيه من أجــل تحويــل ١٠٠٠ صفحــة إلى الصيغة الرقميــة ووضعها على الإنترنت، أي بتكلفة ٢٠ جنيــه للصفحة الواحــدة، وقد حظيت الدعوة بدعم نجــوم مسرحيين وسينمائيين مثل ستيفن فراي وفانيسا ردغريف.

وقالت المكتبــة إنه سيكــون بإمكان أي شخص الدخــول إلى الموقع الــذي سيضم مقالات كتبها أكاديميــون وباحثون وخبراء، مجاناً فور إنجازه.

وبالرغــم من أن نسخاً من الكتاب يمكن الحصول عليهــا، إلا أن النسخــة الأصلية التــي لم يجر تجليدها أو ترميمها منذ أربعة

قرون هي شيء فريد، حسب ما أفادت به مكتبة بودليان.

وقال سير بيتر هول وهو مؤسس «فرقة شكسبير الملكية» ومدير مسرح ومخرج سينمائي: «سيكون تحويل الأعمال إلى الصيغة الرقمية إنجازا عظيما، ليس فقط للممثلين والمخرجين، بل للجمهور الذي بقي عشقه للمسرحيات كما هو عبر القرون».، وقال ستيفن فراي إنه يدعم المشروع من أعماق قلبه.[8]

رسالة ساحرة لفان كوخ تعرض للبيع:

عرضت للبيع بالمزاد في باريس الشهر الماضي رسالة فريدة من نوعها شارك في كتابتها الرسامان فنسنت فان كوخ وبول غوغان.

وتتحدث الرسالة «الساحرة» التي كتبها الفنانان على ورق رخيص منتزع من دفتر مدرسي عن الصداقة والأمل. وتشير الرسالة التي كُتبت في مرحلة دقيقة من حياة الرسامين الفنية إلى حلمهما ببناء مجتمع طوباوي من الفنانين المتآخين وتحقيق نهضة فنية جديدة وعن لوحات مغمورة أصبحت الآن تحفاً فنية تُباع بالملايين.

ولكن حياة الفنانين وقتذاك كانت لا تمت بصلة إلى هذه الأحلام والأماني. فبعد فترة قصيرة على كتابة الرسالة اشتبك الرسامان في معركة عنيفة، وفي واقعة تاريخية ذائعة الصيت قطع فان كوخ أذنه اليمنى إيذاناً بتردي حالة الرسام الهولندي العقلية إلى حد إصابته بالجنون ثم انتحاره.

وظهرت الرسالة التي تقع في أربع صفحات بخط يد كل من فان كوخ وغوغان بعد أن قرر صاحبها الذي يملك مجموعة مقتنيات خاصة، بيعها بالمزاد في باريس الشهر المقبل حيث من المتوقع أن تباع بمبلغ يصل إلى ٥٠٠ ألف يورو.

ونقل عن توماس فينينغ الخبير في دار كريستي للمزاد أن الرسالة تلقي الضوء على «أشهر علاقة فنية في التاريخ». وأضاف فينينغ أنه أمضى حياته في دراسة الرسائل «وهذه واحدة من أعظم الرسائل التي رأيتها وأكثرها سحراً. فهي تأخذك إلى بيتهما، وتفتح لك حياتهما في تلك اللحظة تحديداً».

ويمكن أن يتخيل المرء «فان كوخ» جالساً يكتب الرسالة على ورق رخيص لأنهما كانا

مفلسين ثم يقول لصديقه غوغان «أكملها أنت!».

كتب فان كوخ وغوغان الرسالة على ورق مخطط من النوع المستعمَل في الدفاتر المدرسية الفرنسية وبعثا بها إلى الفنان الطليعي أميل برنار في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٨٨٨م من بروفانس حيث استأجر فان كوخ طابقين من بيت خاص أصبح موضوع لوحته «البيت الأصفر».

وكان غوغان وصل قبل أسبوع من ذلك التاريخ، بعد أشهر من المماطلة والتردد، ليعيش ويرسم مع فان كوخ عاماً أو عامين. وكان عالم الفن الفرنسي ينتقل وقتذاك من الانطباعية إلى الحداثة والسوريالية ولكن فان كوخ وغوغان لم يكونا حتى ذاك الوقت رسامين معترفاً بهما على نطاق واسع في الوسط الفني.

وفرح فان كوخ كالطفل بمجيء غوغان رغم تقلب أمزجته وضعف قواه العقلية. وكتب انطباعاته الأولى عن الرسام الفرنسي في الرسالة المشتركة قائلاً «أن غوغان يثير اهتمامي كرجل. فأنا منذ زمن طويل أرى أننا في مهنتنا القذرة كرسامين بأمس الحاجة إلى أشخاص لديهم يد الكادح ومعدته، لديهم أذواق طبيعية، وطباع مجبولة على الحب والخير، أكثر من أثرياء باريس المنحطين والمستهلكين. وها نحن الآن، بلا أدنى شك، في حضرة مخلوق بكر له غرائز حيوان بري. ففي غوغان يطغى الدم والجنس على الطموح».

ويتابع «أجريتُ دراستين لأوراق ساقطة في جادة تحفّ بها أشجار الحور ودراسة ثالثة للجادة كلها، باللون الأصفر فقط».

ويكتب فان كوخ في الرسالة أنه يناقش مع غوغان «الموضوع الرائع لرابطة تضم فنانين معينين» وتوقعات غوغان بشأن بناء «عالم جديد.... ونهضة فنية عظيمة» تجد موطنها في المناطق المدارية.

ويضيف غوغان في الصفحة الأخيرة من الرسالة «لا تستمع إلى فنسنت، فهو كما تعرف ميال للتعبير عن الإعجاب والمغالاة فيه أيضاً. وإن فكرته عن مستقبل جيل جديد في المناطق المدارية تبدو صائبة تماما بنظري كرسام، وأنا ما زلت أعتزم العودة إلى هناك عندما تتوافر لي وسائل العودة. من يدري، بقليل من الحظ....؟».[٩]

إحالات

١- موقع ميدل إيست أون لاين WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO

٢- موقع إيلاف WWW.ELAPH.COM

٣- موقع ألف ياء WWW.ALEFYAA.COM

٤- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM.

٥- موقع نسيج WWW.NASEEJ.COM

٦- موقع القناة WWW.ALQANAT.COM

٧- موقع العرب أونلاين WW.ARABONLINE.CO

٨- موقع بي بي سي WWW.BBC.CO.UK/ARABIC

٩- موقع البوابة WWW.ALBAWABA.COM.

الذاكرة في الرواية العربيّة المعاصرة

جمال شحيد يجول في ذاكرة الرواية العربية المعاصرة

د.إسماعيل مروة ✪



الرواية العربية ومسألة الذاكرة، الرواية والقص عموماً والذاكرة، هل بالإمكان فصل الحـدث، القص، الرواية عن الذاكرة؟ وهل ثمة قص من دون ذاكرة وتذكر؟ وهل تحولت الذاكرة إلى جزء من تقنيات وضرورات القص فلم نعد أمامها قراءة وتمعناً! مسألة الزمن الماضي والحاضر والمستقبل، مسألة الذاكرة البعيدة والقريبة والقارئة، كلها قضايا يقف القارئ أمامها ليجد أنَّ المسألة جدّ متداخلة وعويصة، فالقص زمن وذاكرة

متحركة، وما من أحد يملك القدرة على الفصل بينهما، بل أزعم أنَّه ما من قص من دون ذاكرة، والروائي والقاص ليسا إلا ذاكرة مشعة مبدعة تعيد ترتيب الحدث والذاكرة، وتعيد مسألة خلق الحـدث بما يناسب، بل وفق الرؤى التـي ينطلق منها مبدع الأشياء من جديد.

هـل يمثـل التذكر حالـة مـن النشوة والإبداع؟ هل يمثل التذكر حالة من ألم؟ هل

✪ كاتب وأديب وشاعر وأستاذ جامعي.

هو طريقة لصياغة رؤية ما وإسنادها إلى عالم الذاكرة؟ هل يهرب المبدع ذاكرة ليحمِّل ذاكرته جريرة ما يعتقده؟ وسؤال آخر: هل تمثل الذاكرة تكنيكاً روائياً، أو ملاذاً، أو حائط مبكى؟ أليست الذاكرة بطلاً أسعف الكاتب وأعطاه ما غار في الأعماق وصارت رؤيته متعذرة؟

الذاكرة والتداعيات

أفكار عديدة، وأسئلة تناثرت أمامي وأنا أقرأ بنهم كتاب (الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة) للأستاذ الدكتور جمال شحيد الناقد المهم في دراساته وطروحاته ومتابعاته، وصاحب الحضور المميز في المؤتمرات والدوريات، والذي يعيدنا إلى زمن البحث الجميل القائم على رؤية وفلسفة وغاية..

قرأت كثيراً للدكتور شحيد كما قرأت لفيصل دراج ويمنى العيد، وغيرهم.. وأذكر أنَّ صديقي الراحل عفيف الرزاز أهداني أشياء لهم وتحدث لي عنهم كثيراً وعن طروحاتهم الفكرية المهمة.

قرأت هذا الكتاب بتفصيلاته لسببين: الأوَّل منهما أني مهموم بالقص والرواية، وأريد أن أكتشف كيف يتعامل داخلي مع هذا الفن الجميل والرائع، والثاني أني عرفت د شحيد عن قرب.. لأجد نفسي أمام كتاب أقل ما يقال فيه أنه حقق غايات التأليف: الجدة، المتعة، الفائدة.. فالكتاب في منهجه وطريقته قدم جديداً وفوائد ليس للقارئ وحده، بل للروائيين الذين درسهم، أو الذين يتابعون هذه الفصول، ليشكل لديهم هادياً إلى آليات السرد والاستفادة من الذاكرة الفردية أو الذواكر الجمعية.

الذاكرة.. الشباب.. الكهولة

يقدم الأستاذ الدكتور الناقد فيصل دراج لدراسة صديقه الباحث الدكتور جمال شحيد بمقدمة لافتة تختلف في أسلوبها وطروحها وغاياتها عن المقدمات التي تعودناها، فيقدم روائز للدراسة تجعل القارئ المهموم في صلب الدراسة، وتحرق المسافة الأكاديمية البحثية لتجعل البحث حميمياً وأكثر قرباً، ولترفع في الوقت نفسه القدرة التذوقية عند القارئ وتضعه في مرحلة تماس مباشر مع المصطلح والأبعاد الطبية والنفسية للدراسة.

ولا يخفى إعجاب دراج بهذه الدراسة التي أخذت منحى مختلفاً في البحث لتضع بين يدي القارئ كماً مهماً من المعلومات،

فيتناول الرواية (الحكاية) من مفهوم الزمن، ليدفعها من دائرة النسيان على يدي مبدع أراد التذكر وعاف النسيان، وهنا يقف دراج بمهارة عندما تشكلهُ الذاكرة من دوائر تدور غالباً في عالم مليء بالأسى حين يفرز دوائر الذاكرة إلى (المحبطة، الجريحة، الكئيبة، الهائمة، المغلوبة، الغالبة) وفي كل التصنيفات نجد الذاكرة تحمل جانبين يكونان الحياة خيراً وشراً، غالباً ومغلوباً، وينحاز إلى أنَّ الذاكرة تحمل همّ المغلوب، ورؤية المغلوب للغالب، وفي هذه الرؤية الكثير من الصدق، فإذا ما تجاوزنا أدب الوجدان والأدب المترف، لندخل في الرواية والقصة، فإننا غالباً ما نجدها ذاكرة تسجل الظلم الذي يلحق بالإنسان جرحاً وإحباطاً وكآبة وما شابه.. فهل حمل مطاع الصفدي في روايته (جيل القدر) إلا بقايا أطراف الهزيمة من ذاكرة جمعية لجيل أراد أمراً، والرواية صاغت عكس ما أراد؟

كما يشير دراج مستهدياً بدراسة شحيد المقدمة إلى تعدد الذواكر لدى الإنسان، ما يمنحه القدرة على أن يأخذ ما يشاء من هذه الذواكر ليخلص إلى تعبير غاية في الدقة: «ما يقنع الكهل بالنظر إلى شيخوخته، وما يأخذ بيد الشيخ في دروب طفولية» كذلك هي الذاكرة، وكذلك هي الذاكرة الروائية، فهل تجعل المرء مقتنعاً بما وصل إليه في شيخوخته؟ وهل تعود به وهو الشيخ للعيش في مدارج طفولته إن كانت هذه الطفولة قاسية أو رحيمة؟

فالذاكرة الروائية ليست تكنيكاً بقدر ما هي إعادة صياغة لما يمكن أن يكون قد مرّ في حياة الذاكرة الفردية أو الجمعية للراوي أو لمن ينتمي إليهم الراوي، وهذا ما يركز عليه بحرفية ونعومة الدكتور شحيد في نماذجه التطبيقية.

المقدمة.. الدراسة.. المفاجأة

لم أكن قد اطلعت على الكتاب من قبل، ولم أقف على شبيه له في المنهج، فعندما قرأت عنوان الكتاب، توقعت مقدمة بسيطة ثم تبدأ الرواية العربية والذاكرة وما شابه، لأفاجأ بمقدمة دراسة تتجاوز نصف حجم الكتاب، وهذه الدراسة أقف عندها لأكثر من سبب:

١- ضرورة هذه المقدمة للدراسات، ومع هذه الضرورة لم يكن شحيد مطالباً بها، ولا أحد يتخيل مثل هذه المقدمة التي عالجت موضوع الذاكرة نفسياً وتشريحياً، وذلك

بمعزل تام عن ميدان الدراسة، وهو الرواية العربية المعاصرة، ولكن بعد الانتهاء من الدراسة يجد القارئ نفسه ممتناً للكاتب الجاد الذي فرش أمامه ما يساعده على فهم النص وتداوله بأفضل صورة ممكنة، ولم تكن ممكنة لولا هذه المقدمة، ولولا هذه الدراسة العميقة لكانت الدراسات مجموعة وقفات نقدية يجمعها الناقد الفاضل بين دفتي كتاب، لكنه أراد غير ذلك.

٢- الاستقصاء والبحث: الدكتور شحيد بما عرف عنه من منهجية وبحث لم يشأ أن يدخل بحثه في عالم الرواية العربية والذاكرة من دون استقصاء وبحث، مع أن ذلك الأمر متعب له، وهو من لزوم ما لا يلزم، إلا أنَّ الباحث الكريم أراده من لزوم ما يلزم، فأعطى أكثر من نصف الكتاب لقيمة وقضية مفقودة في الدراسات العربية، وهو بهذا لم يقصد الاستزادة بقدر ما قصد الابتعاد عن الإنشاء، وكان بإمكانه أن يفعل، وأن يكتفي بمفهومنا عن الذاكرة ليتحدث حديثاً عاماً فضفاضاً، لكن الروح العلمية دفعته إلى كتب طبية ودراسات نفسية وأبحاث رائدة كما سنرى ليعطي الذاكرة حقها، الذاكرة لدينا جميعاً، ولدى الروائي بصورة خاصة، ولعلنا لا نجافي الصواب إن قلنا إنَّ الرواية أي رواية هي جزء لا يتجزأ من الذاكرة القبلية أو البعدية.

يبدأ من الذاكرة والوجود، فهل يقوم الوجود إلا على الذاكرة؟! ثم يربط بين التذكر والنسيان، وكيف يفقد الإنسان الكثير من خصوصيته إذا طغى عليه النسيان وافتقد التذكر كله أو جزءاً منه، ثم يدلف ببراعة إلى ارتباط الذات والسيرة الذاتية بالذاكرة والرواية في الوقت نفسه، وهو يقرر من مبدأ نقدي أنَّ جزءاً كبيراً من الرواية له علاقة بالذات والسيرة الذاتية، وإن لم تكن كذلك، وأضرب لذلك مثلاً جاء به الناقد عن عمل التلصص لصنع الله إبراهيم والذي أشار في أثناء دراسته إلى كونه من السيرة الذاتية، وإن لم يكن متطابقاً، وفي هذا مسوغ للربط بين الذاكرة الكاتبة الراوية والرواية...

والذاكرة ليست خاصة بالكاتب والروائي بقدر ما هي عند المبدع والروائي لجوء إلى تسجيل الحس المجتمعي والذاكرة المجتمعية بمجملها، وهنا يبرز الناقد أنَّ الذاكرة عموماً، وذاكرة الروائي هي الوعي المتيقظ لذلك الوعي المجتمعي الذي ينتقل في صياغة روائية، تحمل الحكاية الجزء الأكبر والأهم من الرواية والذاكرة معاً..

وتأكيداً لأهمية الذاكرة يبدأ الناقد بتعبير (أنا أتذكر إذاً أنا موجود) ويختم (أنا الذي أتذكر، أنا الروح) ما بين الوجود والروح يقرر الناقد اعتماداً على الدراسات الطبية والنفسية أنّ الذاكرة وجود، ومن ثم فالذاكرة روح، وما بين وجود وكينونة، وروح قادرة على أن تكون حاملاً يمضي الناقد لبيان أهمية الذاكرة في صناعة النص الروائي حكائية مجتمعية أو سيرة ذاتية.

آليات عمل الذاكرة

يجول الكاتب مع قارئه في عمل الذاكرة والدماغ طبياً، فالعمل الأول يكون غير واع من خلال المتابعة وتخزين المعلومات التي يراها الكاتب الروائي أمامه، وقد يمتلك الإنسان ذاكرة خارقة لا تترك شيئاً، وتملك القدرة على تقديم خزانها من الذكريات بشكل مدهش،

والذاكرة تأخذ من المراقبة والواقع ميداناً للمعلومات التي يريد جمعها، أو التي يتوافر له جمعها. ثم يفصّل في أنواع الذواكر طويلة المدى وقصيرة المدى، فالمتعلقة بالعمل اليومي تكون قصيرة المدى، لأنها تلبي الاحتياجات المباشرة، ولكنها تنتقي ما تعيده إلى خزان المعلومات والذكريات وما تبقى من الذواكر هي ذواكر طويلة المدى: الإجرائية التي تستوعب العادات والتقاليد، والاستباقية التي تستخرج ما علينا أن ننجزه، والدلالية للمعلومات وتوظيفها، والحدثية التي ترصد الزمان والمكان، والإدراكية هي أعلى الذواكر وتقوم على الحسّ والإدراك والانتخاب في التذكر.

التذكر والذاكرة في الفكر

قد لا أغالي إن رأيت أنّ هذا الفصل من أغنى الفصول، لأنه يجمع ما بين الإطارين النظري والتطبيقي ليقدم خلاصة تجارب المفكرين والفلاسفة مع الذاكرة منذ القدم عند الإغريق، وإلى يومنا هذا، ولا يحسن أن نختصر بقدر ما يحسن أن نسير إلى هذه التجارب التي امتدت قروناً متطاولة لتظهر أهمية الذاكرة والتذكر: (سيمونيذيس، أفلاطون، أرسطو، شيشرون، هيرينيوس، كنتليانوس، أوغسطينوس، ابن سينا، توما الأكويني، رامون لول، جيوردا نوبرونو، فرويد، برغسون، إيدلمان، بول ريكور).

ولا يفوت الباحث في حديثه عن الذاكرة والتذكر أن يقف عند نقيضه النسيان، فهل النسيان آفة أم نعمة؟

وأين يكون النسيان؟ وكيف يكون

النسيان؟ وهل ما ننساه يقوم على الانتقائية؟ فيتحدث عن النسيان الآفة بين النعمة والنقمة، وأشكال النسيان، ونهر النسيان، وفن النسيان، وهنا يأخذ نماذج عالمية عالية المستوى عن النسيان ودوره في روائع الأدب عند دانتي وسرفانتس وجان جاك روسو وعمانوئيل كانط، وفاوست وشاميسو وبروست ودي شامبي وبيراند يلو..

أقف عند هذه التفاصيل تقديراً لما أجهد الدكتور شحيد نفسه من أجل بيانه ليرسم موشور الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة، وقد وقف نظرياً مع التطبيق مع الذاكرة والسيرة الذاتية، واختار البئر الأولى لجبرا إبراهيم جبرا، ثم تحدث بتفصيل مهم عن الذاكرة والثقافة المدينية ليغطي التراث والعمران، ويختار دمشق مثالاً لذاكرة المدينة.

وانطلاقاً من مدرسة الدراسات الحديثة حول الذاكرة يدخل في عالم الروائيين العرب.

نماذج عربية للذاكرة والرواية

بعد هذه الجولة التي أمتعت القارئ وأرهقت الناقد في تتبعها، وساعده فيها إلمام لغوي ونقدي يدخل في عالم الرواية العربية ليقدم دراسة للذاكرة المتنوعة في ثلاث عشرة رواية:

١- نجيب محفوظ (ابن فطومة) ويبدأ من النسبة إلى الأم، ثم أسماء البلدان أو الدور من دار المشرق إلى دار الجبل، وما تعنيه هذه التسميات في وعي الذاكرة، ويبرر الناقد اختياره لعمل غير متداول كثيراً لنجيب محفوظ بأنَّ هذا النص يمثل عبقرية محفوظ.

٢- الطيب صالح (موسم الهجرة) ليقدم من البداية اعتماد الكاتب والبطل على الذاكرة بين الذين استقبلوه، وكنت أتمنى لو أخذت الرواية قسطاً أكبر من التشريح والدراسة، وهي رواية ذاكرة بامتياز.

٣- غسان كنفاني (عائد إلى حيفا) بعد مغادرة كنفاني تقوم الذاكرة بصناعة عالم روائي متفوق (ذاكرة إعصار).

٤- عبد الرحمن منيف (ذاكرة مدينة) رصد فيها الحركات السياسية والتنظيمات والحرب والملابس، وعمد إلى التوثيق للذاكرة.

٥- خيري الذهبي (هشام) رصد البداية والنهاية والأحزان والذكريات والتذكر والتحول، وحلل تقنيات السرد والتذكر.

٦- وليد إخلاصي (سمعت صوتاً هاتفاً) ركز على أهمية الذاكرة عند إخلاصي من حيث المكان والزمان والعائلة والمدرسة والأحداث وإصرار الروائي على التذكر.

٧- جمال الغيطاني (وتجليات) الانطلاق من التذكر ودمج الذاكرة التاريخية بالحاضر، الحسين وعبد الناصر و١٩٦٧م، وتداخل الزمن والذاكرة الماضية والحاضرة.

٨- روزا حسن (حراس الهواء) الذاكرة السلبية، الذاكرة والموت والحياة.

٩- جبرا إبراهيم جبرا (نصوص) الذاكرة نظرياً، والذاكرة وتعاملها مع التاريخ.

١٠- إلياس خوري (رحلة غاندي الصغير) الاسم ومفردات قاموس الذاكرة، وغاية الذكريات لمعالجة الذل، وتحليل البنية للذاكرة.

١١- صنع الله إبراهيم (التلصص) المتن والحاشية، الحاضر والماضي، الصورة الفوتوغرافية، الغناء والذكريات.

١٢- لينا هويان (بنات نعش) ذاكرة الصحراء والبداوة، الأوابد، الإصرار على فكرة التذكر والذاكرة.

١٣- سمر يزبك (صلصال) الذاكرة والتذكر، الرواية والذاكرة، العودة إلى جذور التكوين في القرآن والمكزون والخصيبي.

الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة كتاب من الكتب المهمة والعميقة والسهلة، يستحق أن يوقف عنده لما فيه من رؤى نقدية قد تكون أحياناً متجاوزة للنص الروائي المدروس أو للمنهج التطبيقي، الكتاب كله مهم، ولعلّ أهم ما فيه ذلك البحث المستفيض في الذاكرة الذي يمكن أن يكون معيناً للدارسين بعده.

آخر الكلام

رئيس التحرير

الحضارات على محكّ التجربة

أثناء وجودي في باريس، في خريف العام الماضي، للمشاركة في اجتماعات المؤتمر العام لليونسكو، (الدورة ٣٦) أتيحت لي الفرصة للاطلاع على بعض الكتب المهمة في مكتبة اليونسكو، ومنها كتاب «العولمة الثقافية - الحضارات البشرية على محك التجربة»، لمؤلفه جيرار لوكلير، الصادر في باريس منذ عدة سنوات، وأهمية الكتاب تكمن في تطرّقه للحديث عن العولمة الثقافية، من منطلق أنّ العولمة ليست فقط سوقاً رأسمالية واقتصادية فقط وإنّما هي أيضاً تبادل للأفكار والأيديولوجيات والثقافات، ففي عصر العولمة الكونية أصبحت التراثات الثقافية مضطرة للاحتكاك ببعضها البعض سلباً أو إيجاباً غصباً عنها.

في الماضي وحتى أمد قريب..

كان يمكن للثقافة الهندية أو الصينية أو العربية أو الإسلامية أن تنفتح على الخارج أو لا تنفتح.. كان بإمكانها أن تغلق الأبواب في وجه بعض الأيديولوجيات أو الأفكار التي لا تعجبها، وأمّا الآن، وفي عصر الإنترنت والفضائيات التلفزيونية

ومختلف وسائل الاتصال الإلكترونية، فلم يعد بالإمكان أن تفعل ذلك، أو قل إنه أصبح أمراً صعباً جداً، وبالتالي ماذا نفعل؟ هل ندخل في حرب ثقافات وحضارات، أم ندخل في عصر التواصل والتفاعل بين الحضارات؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه «جيرار لوكلير» في كتابه المهم ويحاول الإجابة عنه، ولعلّ مسألة المسائل هي: هل يوجد فرق نوعي بين الحضارات الغربية (أي الأوروبية - الأمريكية) وبقية الحضارات التي ظهرت على سطح الأرض، بما فيها الحضارة العربية الإسلامية؟ وأين يكمن هذا الفرق؟ وبأي شكل يتمثل ويتجسّد؟.

الإجابة تقول: إن الحداثة هي أوروبية منذ بداية نشأتها، ثم توسعت بعدئذ وأصبحت بحجم العالم عن طريق تغريب الثقافات الأخرى، أو التأثير عليها طوال القرنين التاسع عشر والعشرين، ولكن إذا كانت الحداثة أوروبية فإنّ العولمة، التي هي امتداد لها أمريكية، وذلك لأنّ المركز السياسي والاقتصادي والثقافي والسينمائي للعالم انتقل بعد الحرب العالمية الثانية من أوروبة إلى أمريكا، ولكن الحداثة بعدئذ لم تعد أوروبية ولا أمريكية، وإنّما أصبحت كونية، فاليابانيون تبنوها وكذلك الصينيون والهنود وحتى المسلمون في كثير من البلدان، لأنّ الحداثة تختلف عن الحضارات السابقة التي شهدتها البشرية من حيث أنها تعترف بالتسامح والتعددية والحرية الفكرية، والسبب يعود إلى العلم والتكنولوجيا، وهما الشيء الوحيد الذي قبلت الحضارات الأخرى بنقله إليها من دون أي تردد، وبهذا المعنى فإنّ الحضارة الغربية أصبحت كونية عن طريق تعميم الآلات التكنولوجية على جميع شعوب الأرض، وكذلك تعميم علم الفيزياء والكيمياء... ولكن المشكلة تبتدئ مع الأفكار و الأيديولوجيات والعقائد الدينية على وجه الخصوص، فهنا نلاحظ أن الحضارات الأخرى لا تقبل بعقائد الغرب بسهولة، بل تعتبرها غزواً فكرياً وخطراً على عقائدها و تراثاتها الخاصة.

إنَّ الغرب كوني في جزء منه، وغير كوني في جزئه الآخر، فالنموذج السياسي الغربي القائم على التعددية والديمقراطية أصبح يفرض نفسه أكثر فأكثر على شعوب الأرض، ولا يمكن أن نجد مثقفاً واحداً يقول بأنه غير ديمقراطي، وبالتالي، فكونية الحضارة الغربية لم تعد محصورة بالعلم، وإنَّما أصبحت تفرض نفسها على أصعدة ومستويات عدّة، وهنا الأديان الكبرى تطرح نفسها أيضاً على أساس (كوني) فالإسلام (كوني) في دعوته وموجه إلى الناس أجمعين، والأمر نفسه عن المسيحية التي ترسل المبشرين إلى مختلف أنحاء العالم، وهذا صحيح، ولكن لم يستطع أي دين -حتى الآن- أن يشمل البشرية جمعاء.. في حين أن الحضارة الغربية انتشرت في شتى أرجاء العالم، ولكن هذا لا يعني القضاء على التراثات الخصوصية كالتراث العربي الإسلامي أو التراث الهندوسي أو التراث الصيني الكونفوشيوسي أو التراث البوذي.. وإنَّما يعني أن التوصل إلى الحداثة الكونية يتم من خلال اللغة العربية والهندية والصينية، ومن خلال المصالحة، وكذلك المصارحة، ويرى المؤلف بأنه يجب ألا نخشى كثيراً على خصوصيتنا وأصالتنا من عصر العولمة الذي فرض نفسه، فنحن سنظل عرباً ومسلمين، ولكن بطريقة أخرى أكثر انفتاحاً وتحرراً وإنسانية، وبالتالي ينبغي أن نخرج من تلك الحلقة المفرغة.

والحداثة لم تعد غربية، وإنَّما أصبحت كونية بحجم العالم، لأنَّها عرفت كيف تستفيد من الحضارات السابقة ومنها الحضارة العربية الإسلامية، وتتطور لتصل إلى مرحلة النضج من خلال المنهجية التجريبية العقلانية والتخصصات الدقيقة، وتصبح (كونية).